

التَّائِيخُ الْإِسْلَامِيّ

مَوَاقِفُ وَعِبَر

١٥

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

الجزء الثالث

دكتور

عبد العزيز بن عبد الحميد

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار النشر

للنشر والتوزيع

جدة

دار الدعوة

للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢
التقييم الدولي
8 - 151 - 253 - 977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشأ - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضر للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإمام الزاهد والخليفة الراشد

عمر بن عبد العزيز

مواقف إصلاحية

- إرهابيات بين يدي خلافته -

لقد تم في فصول ماضية عرض مواقف الفتوح الإسلامية التي انتهت تقريبا في عهد الوليد بن عبد الملك ، وسيتم - بإذن الله تعالى- في هذه الفصول عرض مواقف من نوع آخر حيث تولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك الإمام العادل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذي جدد الله تعالى به لهذه الأمة أمر دينها حيث أرسى قواعد العدل وطبق السياسة الإسلامية .

لقد كان الخلفاء الذين عاصروهم عمر وكثير من ولائهم قد كثرت في عهودهم المظالم ، وعمل الولاة بأهوائهم أحيانا من غير نظر إلى الأحكام الشرعية فورث عمر تلك التركة الثقيلة ، وأحس من أول ساعة أنه يجب عليه أن يعدل سياسة الدولة لتتفق مع شريعة الله تعالى ، ولكن ذلك يصطدم بأهواء أفراد أسرته الحاكمة والمستفيدين من ورائهم ، فلم يخش في الله لومة لائم ، وشمّر عن ساعد الجد في إصلاح الأمة وإحقاق الحق ورد المظالم ، وكان حكيما ونزيها حينما طبق الحق على نفسه أولا وعلى أفراد أسرته الأقربين ثانيا ، فساعده ذلك في تطبيق الحق على بقية أفراد عشيرته من بني أمية وعلى المستفيدين من الوضع السابق .

فراصة صادقة من جده عمر رضي الله عنه :

وقبل أن نتحدث عن مواقف عمر في الإصلاح والعدل نذكر موقفا كريما لجدته من أمه وفراصة صادقة من جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد أخرج أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم فيما

يرويه عن شيوخه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى في خلافته عن مذاق اللبن بالماء ، فخرج ذات ليلة في حواشي المدينة فإذا بامرأة تقول لابنة لها : ألا تمذاقين لبنك فقد أصبحت ؟ فقالت الجارية : كيف أمدق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذاق ؟ فقالت : قد مذاق الناس فامذاقي فما يُدري أمير المؤمنين ، فقالت : إن كان عمر لا يعلم فإنه عمر يعلم ، ماكنت لأفعله وقد نهى عنه ، فوقعتم مقاتلتها من عمر ، فلما أصبح دعا عاصما ابنه فقال : يا بني اذهب إلى كذا وكذا فاسأل عن الجارية - ووصفها له - فذهب عاصم ، فإذا هي جارية من بني هلال ، فقال له عمر : اذهب يا بني فتزوجها ، فما أحرأها أن تأتي بفارس يسود العرب ، فتزوجها عاصم بن عمر ، فولدت له أمّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم فأتت بعمر بن عبد العزيز (١) .

وهكذا رأينا موقف تلك الفتاة التقية حيث راقبت الله عز وجل الذي يعلم السر وأخفى ، وأدركت أن حفظ الأمانة وأداء حقوق الناس ليس الدافع إليه والوارع من ضده هو الخوف من السلطان في الأرض ، لأن السلطان ونوابه قد يغفلون عن مراقبة الناس فتتهياً

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٢ ، وابن عبد الحكم هو أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المصري ، من كبار العلماء في مصر ، ومن أجلة أصحاب الإمام مالك ، ولما قدم الإمام الشافعي إلى مصر صاحبه وتلمذ عليه ، وقد ذكر شيوخه في هذا الكتاب في المقدمة وهم علماء أجلاء من أمثال الأئمة مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان بن عيينة ، ولكنه لما ساق الأخبار لم يذكر شيوخه من باب الاختصار .

الفرصة لمن التزم بالحق من أجلهم أن يتتبع فرصة غفلتهم عنه فيتبع هواه وينطلق في غش المسلمين وظلمهم، بل أدركت أن الدافع إلى الاستقامة على الحق هو خشية الله تعالى ، ومن استقرت هذه الخشية في قلبه فإنها تحول بينه وبين اتباع الهوى المنحرف لأن رقابة الله تعالى دائمة ، وعلمه لطيف دقيق لا تخفى عليه خافية .

ولقد كان هذا الفهم الثاقب والإيمان القوي مثار إعجاب عمر، ورغبته في أن يزوج ابنه عاصما من تلك الفتاة الزكية رغبة في نجابة الولد، وصلاح المحضن الأول الذي تصاغ فيه تربية الأولاد ، ليكونوا رجال خير وإصلاح .

وكانت فراسة صادقة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث أنجبت تلك الفتاة بنتا شرفت بإحجاب إمام من أعظم أئمة الإسلام في العدل والإصلاح .

وهكذا نجد الصحابة رضي الله عنهم يلتزمون بالمقياس الإسلامي وهو التقوى ، فيجعلونه مقياساً لعظمة الناس وتفوقهم، ويبنون على هذا المقياس آمالا مستقبلية عالية كما فعل عمر حينما أمر ابنه عاصما بالزواج من تلك الفتاة التقية .

رؤيا صالحة من جده عمر رضي الله عنه :

وعمر بن عبد العزيز هو الأشجُّ من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رأى فيه الرؤيا الصالحة ، وقد ذكر هذه الرؤيا ابن عبد الحكم فقال : واستيقظ عمر من نومه فمسح النوم عن وجهه وعرك

عينيه وهو يقول : من هذا الذي من ولد عمر يُسمَّى عمر يسير بسيرة عمر؟ يردّها مرات (١) .

ورواه ابن سعد في طبقاته من خبر نافع عن ابن عمر وعن نافع عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : ليت شعري من ذو الشين من ولدي الذي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً ، ذكره ابن الجوزي ، وذكر من رواية مبارك بن فضالة عن عبد الله بن عمر أنه كان كثيراً ما يقول : ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً (٢) .

مولده ونشأته :

ذكر أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم أنه ولد في المدينة (٣) وذكر محمد بن سعد أنه ولد سنة ثلاث وستين للهجرة ، وهي السنة التي توفيت فيها أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها (٤) .

وذكر ابن عبد الحكم أنه - وهو غلام صغير - كان يأتي عمه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كثيراً ، لمكان أمه منه (٥) .

ثم ذكر أن أمه لما أرادت اللحاق بزوجها في مصر قال لها عبد الله ابن عمر : خلّفي هذا الغلام عندنا - يريد عمر - فإنه أشبهكم بنا أهل

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٢ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥ ، وانظر البداية والنهاية ٩ / ١٩٦ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٤ .

(٤) طبقات ابن سعد ٥ / ٣٣٠ .

(٥) يعني لكون أمه ابنة عاصم أخي عبد الله بن عمر .

البيت ، فخلفته عنده ولم تخالفه ، فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده فإذا هو لا يرى عمر ، فقال لها : وأين عمر ؟ فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم ، فسرّ بذلك عبد العزيز وكتب إلى أخيه عبد الملك بن مروان يخبره بذلك فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر (١) .

وقد جاء في خبر آخر أن عمر طلب من أبيه عبد العزيز أن يرسله إلى المدينة ليتعلم على علمائها ، وذلك فيما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر العتيبي قال : إن أول ما استُبين من عمر بن عبد العزيز وحرصه على العلم ورغبته في الأدب أن أباه ولي مصر وهو [يعني عمر] حديث السن يُشكّ في بلوغه ، فأراد إخراجه معه ، فقال [يعني بعدما خرج] : يا أبة أو غير ذلك لعله أن يكون أنفع لي ولك ، ترحّلني إلى المدينة فأقعد إلى فقهاء أهلها وأتأدب بأدابهم .

فوجهه إلى المدينة فقعده مع مشايخ قريش وتجنب شبابهم ، وجاءته ألطاف أبيه من مصر فجعل يقسمها بينهم ، فشهره أهل المدينة بعلمه وعقله مع حداثة سنه فحسده فتيان قريش فقعدهوا إليه فقالوا : كيف أصبحت يا أبا نخفص ؟ فقال : مهلا ، إياي وكلام المجعة ، فشهرت منه بالمدينة حتى كُتب بها إلى أبيه بمصر - والمجعة : القليلة عقولهم ، الضعيفة آراؤهم - .

قال : ثم بعث إليه عبد الملك عند وفاة أبيه (٢) فخلطه بولده وقدمه

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٤ .

(٢) أي أبي عمر بن عبد العزيز بن مروان .

على كثير منهم، وزوجه بابنته فاطمة، وهي التي يقول فيها الشاعر:
بنت الخليفة والخليفة جدها أخت الخلائف والخليفة زوجها
فلم تكن امرأة تستحق هذا البيت إلى يومنا هذا غيرها .

قال : وكان الذين يعيرون عمر ممن يحسده لا يعيرونه إلا بشيئين:
إلا بالإفراط في النعمة والاختيال في المشية، ولو كانوا يجدون ثالثا
لجعلوه معهما ، وهو قول الأحنف : الكامل من عدت هفواته،
ولا تُعدُّ إلا من قلة (١) .

فيكون على هذا قد بقي في المدينة بطلب من عمه عبد الله بن
عمر، ثم سافر إلى أبيه في مصر ، ثم عاد إلى المدينة .

وجاء في رواية أخرى بيان سبب آخر لقناعة أبيه بعودته إلى
المدينة ، فقد ذكر ابن عبد الحكم أن بعض أهل بيته كانوا يؤملون أن
يكون هو الحاكم العادل الذي رآه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي
الله عنه في المنام لتحقق بعض الأمارات فيه ، فلما سقط من الدابة
فشجَّ في وجهه زاد أملهم ذلك فقال أبوه : ما ينبغي لمن كان يُرجى لما
يرجى له أن يكون تأديبه إلا بالمدينة ، فبعثه إليها (٢) .

وتربى عمر في أحضان العلماء الأتقياء حتى صار متفوقا في
العلم ، ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولاه على الحجاز من
سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين (٣) .

(١) تاريخ دمشق ١٣٧/٤٥ - ١٣٨ ، وانظر سير أعلام النبلاء ١١٧/٥ .

(٢) سير عمر بن عبد العزيز / ٢٥ .

(٣) تاريخ دمشق ١٣٩/٤٥ .

رؤيا صادقة وعزم على الاستقامة والعدل :

ذكر سعيد بن صفوان وفادة رجاء بن حيوة على عمر بن عبدالعزيز قبل خلافته إلى أن قال : وأقام عنده أياما ، فكان كلما أصبح دخل على عمر بعد صلاة الصبح ، فيتحدثان لا يدخل عليهما أحد حتى يخرج رجاء من عنده ، قال : فبينما رجاء ذات يوم عنده - وقد رأى رؤيا فأصبح وقد حفظها - قال فجعل يحدث نفسه وعمر يحدثه ، فأنكره عمر فقال : يا أبا المقدام إني لأنكر بعض حالك اليوم فما شأنك ! قال : إن الذي ترى وإنكارك إياي لرؤيا رأيتها الليلة ، فأنا أعجب وأحدث بها نفسي ؟ فقال عمر : اقصصها رحمك الله فقال : نعم وإن لك فيها نصيبا : رأيت الليلة كأن أبواب السماء فتحت ، فبينما أنا أرمقها إذ أقبل ملكان يهويان ، معهما سرير لم أر مثله حسنا ، حتى وضعاه بالمدينة ، ثم صعدا وأنا أنظر إليهما حتى دخلا أبواب السماء ، فلبثا مليا ، ثم أقبلا ومعهما ثياب بيض لم أر مثلهما ، وشممتُ عبق مسك لم أشم مثله قط ، فمهداها على ذلك السرير فدنوت منهما فقلت . ماهذه الثياب ؟ قالا : هذا السندس والاستبرق الذي ذكر في القرآن ، ثم صعدا فلبثا مليا ، ثم أقبلا معهما برجل أدعج العينين ، ذي وَفْرَةٍ شديدة سواد الشعر ، بعيد ما بين المنكبين ، مربع الجسم ، عليه هبة ووقار ، حتى أقعدها على ذلك السرير من فوق تلك الفرش ، فدنوت منهما فقلت : من هذا الرجل ؟ فقالا هذا محمد ﷺ ، قال : فهبته هبة شديدة : وتأخرت ناكصا على عقبي ، حتى كنت منه بمكان منظر ومسمع ، فبينما أنا كذلك إذ أتى

برجلٍ قد نهزه القتيير^(١)، ضَرَبَ الجسمَ، حسن اللحم، مشدودة يداه إلى عنقه، حتى وَقَفَ بين يديه، فأقبل رسول الله ﷺ يثني عليه فيما كان من فعّاله في الإسلام، ويقول أنت صاحبي في الغار، وأنت أبو بكر الصديق، والأمر ههنا إلى غيري، ولست أملك لك من الله شيئاً، فلم يزل قائماً بين يديه، ثم أمر به فأطلق عنه، وأجلس عند رأس السرير على الأرض، ثم أتى برجل حسن اللحم، نهزه القتيير، مجموعة يداه إلى عنقه، حتى وَقَفَ بين يديه، فأقبل رسول الله ﷺ يثني عليه بفعّاله في الإسلام، ويقول: أما إنك الفاروق الذي أعز الله عز وجل به الدين، وأنت صاحب اليهودي. والأمر ههنا إلى غيري، ولست أملك لك من الله شيئاً، فلم يزل قائماً بين يديه ملياً، ثم أطلق عنه وأجلس مع أبي بكر، فما زال كذلك يؤتي بخليفة خليفة حتى أفضى الأمر إليك، فلما سمع عمر ذلك منه ارتاع فاستوى جالساً ثم قال: يا أبا المقدام فماذا صنع بي؟ قال: أتى بك مجموعة يداك إلى عنقك، ثم وَقَفَت بين يديه طويلاً ثم أمر بك فأطلق الغُلَّ، ثم أجلس مع أبي بكر وعمر بن الخطاب فاشتد عجب عمر بن عبدالعزيز لرؤياري جاء بن حيوة ثم قال: يا أبا المقدام والله لولا ما أثنى به من صحبتك وورعك، وجدك واجتهادك، ووفائك وصدقك، لأنباتك أني لا ألي شيئاً من أمر الخلافة أبداً، ولكني قد سمعت كلامك ورؤياك، وما أخلق بي، سوف أبتلى بأمر هذه الأمة. فوالله لئن ابتليت بذلك وإنها شرف الدنيا لأُطلَبَ بها شرف الآخرة^(٢).

(١) القتيير هو الشيب .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٣٩ - ١٤١ .

— من مواقفه في إمارته على الحجاز —

لما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولاه على الحجاز من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين (١) .

استشارته فقهاء المدينة :

قال محمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة والياً عليها كتب حاجبه الناس ثم دخلوا فسلموا عليه، فلما صلى الظهر دعا عشرة نفر من فقهاء البلد : عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وعبد الله بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : إني دعوتكم لأمر تُوجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأخرج بالله على أحد بلغه ذلك إلا أبلغني . فجزوه خيراً وافترقوا (٢) .

وهذا الخبر يدلنا على قوة إيمان عمر بن عبد العزيز وحبه البالغ لتطبيق الإسلام كاملاً، حيث إن علماء الدين هم أخبر الناس

(١) تاريخ دمشق ١٣٩/٤٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٣٤/٥ ، وانظر تاريخ دمشق ١٤١/٤٥ .

بالإسلام، ففي استشارتهم والأخذ بحكمهم أمان من الوقوع في الخطأ والانحراف .

إجلاله سعيد بن المسيب :

قال ابن عبد الحكم : وأرسل عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة رسولا إلى سعيد بن المسيب رحمه الله يسأله عن مسألة، وكان سعيد لا يأتي أميرا ولا خليفة ، فأخطأ الرسول فقال له : الأمير يدعوك فأخذ نعليه وقام إليه من وقته، فلما رآه قال له : عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا فإننا لم نرسله ليدعوك ، ولكنه أخطأ إنما أرسلناه ليسألك ، ولم ير سعيد أنه يسعه التخلف عنه (١) .

وهذا موقف عظيم من عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تعظيم علماء الدين ورعاية حقهم، فالعلم يؤتى إليه ولا يأتي ، والعلماء يُقصدون ، ولا يقصدون غيرهم، لأن العلم لا يؤثّر ولا يعطي نتائج المطلوبة إلا إذا تواضع له طالبوه ، وأصبح جوه مُفعما بالحب والاحترام لحملة العلم .

ولقد كان عمر موفقا حينما اعتذر للعالم الرباني سعيد بن المسيب وأصر على أن يذهب إليه رسوله ليسأله وهو في مجلسه احتراماً له والتماساً لبركة العلم إذا أحيط بما يلزم له من ظروف وأسباب .

كما كان سعيد بن المسيب موفقا حينما استجاب لدعوة عمر وهو

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٦ .

الذي لم يستجب لدعوة أحد قبله ولا بعده.. كان موفقا لأنه أظهر توقير الوالي العادل وتفخيم أمره ، وفي ذلك مافيه من عون على الاستقامة على العدل ، ودفع الناس إلى طاعته وتثبيت أمره في الولاية.

استخلافه وموقف لرجاء بن حيوة :

قال ابن سعد رحمه الله تعالى : أخبرنا علي بن محمد عن جرير ابن حازم عن هزّان بن سعد قال : حدثني رجاء بن حيوة قال : لما ثقل سليمان بن عبد الملك رأيي عمر في الدار أخرج وأدخل وأتردد فدعاني فقال لي : يارجاء أذكرك الله والإسلام أن تذكرني لأمر المؤمنين أو تشير بي عليه إن استشارك، فوالله ما أقوى على هذا الأمر، فأنشذك الله إلا صرفت أمير المؤمنين عني. فانتهرته وقلت: إنك لحريص على الخلافة لتطمع أن أشير عليه بك . فاستحيى ودخلتُ، فقال لي سليمان : يارجاء من ترى لهذا الأمر وإلى من ترى أن أعهد ؟ قلت : ياأمير المؤمنين اتق الله فإنك قادم على الله وسائلك عن هذا الأمر وما صنعت فيه. قال : فمن ترى ؟ فقلت: عمر بن عبد العزيز . قال : كيف أصنع بعهد أمير المؤمنين عبد الملك إلى الوليد وإلى في ابني عاتكة أيهما بقي؟ قلت: تجعلهما من بعده . قال: أصبت ووفقت ، جئني بصحيفة . فأتيته بصحيفة فكتب عهد عمر ويزيد من بعده وختمها ، ثم دعوتُ رجالاً فدخلوا عليه فقال لهم : إني قد عهدتُ عهدي في هذه الصحيفة ودفعْتُها إلى رجاء وأمرته أمري وهو في الصحيفة ، اشهدوا واختموا الصحيفة. فختموا

عليها وخرجوا فلم يلبث سليمان أن مات فكففتُ النساء عن الصباح
وخرجتُ إلى الناس فقالوا : يارجاء كيف أمير المؤمنين ؟ قلت : لم
يكن منذ اشتكى أسكنَ منه الساعة . قالوا : لله الحمد ! فقلت :
أستم تعلمون أن هذا عهد أمير المؤمنين وتشهدون عليه ؟ قالوا : بلى ،
قلت : افترضون به ؟ قال هشام : إن كان فيه رجل من ولد عبد الملك
ولاً فلا . قلت : فإن فيه رجل من ولد عبد الملك ؟ قال : فنعم إذا .
قال فدخلتُ فمكثتُ ساعة ثم قلتُ للنساء اصرخن ، وخرجتُ فقرأتُ
الكتاب والناس مجتمعون وعمر في ناحية الرواق .

وقال : أخبرنا عليّ بن محمد عن يعقوب بن داود الشقفي عن
أشياخ من ثقيف قال : قرئ عهد عمر بعد وفاة سليمان بالخلافة وعمر
ناحية وهو بدابق . فقام رجل من ثقيف يقال له سالم من أخوال
عمر . فأخذ بضبعه فأقامه فقال عمر : أما والله ما الله أردت بهذا
ولن تصيب بها مني دنيا (١) .

(١) طبقات ابن سعد ٣٣٩/٥ - ٣٤٠ ، وانظر تاريخ دمشق ١٥٧/٤٥ .

- تقديره أهل الفضل -

تقديره ولد قتادة بن النعمان :

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : وأُصيب يومئذ (١) عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته . قال قتادة بن النعمان : فجئت رسول الله ﷺ فقلت : أي رسول الله ، إنَّ تحتِي امرأةً شابةً جميلةً أحبُّها وتُحبُّني وأنا أخشى أن تقلدَ مكانَ عيني . فأخذها رسول الله ﷺ فردَّها فأبصرت وعادت كما كانت ، فلم تضرب عليه ساعةً من ليل ولا نهار ، وكان يقول بعد أن أسنَّ : هي والله أقوى عيني ! وكانت أحسنهما (٢) .

وقال الحافظ ابن حجر : أخرج الدارقطني وابن شاهين من طريق عبد الرحمن بن يحيى العذري عن مالك عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أُصيب عينه يوم أحد فوقع على وجنته فردَّها النبي ﷺ فكانت أصح عينه .

قال : وأخرجه الدارقطني والبيهقي في الدلائل من طريق عياض ابن عبد الله بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري وذكر نحوه (٣) .
وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر

(١) يعني يوم معركة أحد .

(٢) مغاري الواقدي ١/ ٢٤٢ .

وأخرجه ابن هشام مختصراً - سيرة ابن هشام ٣/ ٣٣ - .

(٣) الإصابة ٣/ ٢١٧ ، رقم ٧٠٧٨ .

ابن عبد العزيز فقال له : من أنت ؟ فقال مرتجلا :
أنا ابن الذي سألت على الخدّ عينه
فرُدّت بكفّ المصطفى أحسن الردّ
فعادت كما كانت لأول أمرها
فياحُسْنُهَا عَيْنًا وياحُسْنُ مَارَدٍ
فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك :
تلك المكارم لا قَعْبَانِ مَنْ لَبِن
شَيْبًا بِمَاءِ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا
ثم وصله فأحسن جائزته رضي الله عنه (١) .

وولد قتادة هذا لم يُذكر اسمه في هذه الروايات ، لكن جاء في
رواية ذكرها الحافظ ابن حجر : قال عاصم : فحدثت به عمر بن
عبد العزيز ، فذكر البيت الذي تمثل به عمر (٢) ، وهذا يعني أن عاصم
ابن عمر بن قتادة المؤرخ المشهور هو صاحب القصة ، ويكون قد
انتسب إلى جده .

ففي هذا الخبر موقف لأmir المؤمنين عمر بن العزيز رحمه الله
تعالى في إكرام ولد قتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما عرف نفسه بما
حدث لأبيه رضي الله عنه في هذا الخبر على يد رسول الله ﷺ ،

(١) البداية والنهاية ٣٥/٤ ، وانظر عيون الاثر ١٤/٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن
الجبوري ١٩٦/ .

(٢) الإصابة ٢١٧/٣ ، رقم ٧٠٧٨ .

وهذا يدل على تفوق عمر بن عبد العزيز في المجال الأخلاقي، وذلك بتقدير أهل الفضل والتقدم في خدمة الإسلام والمسلمين، فإن ما حدث لقتادة رضي الله عنه من اقتلاع عينه بتلك الصورة شاهد على إيغاله في القتال وتعرضه للمهالك، كما أنه شرف له أن تمثلت فيه تلك المعجزة النبوية .

ولقد كان ولده بارعًا حينما صور هذا المشهد بدينك البيتين من الشعر اللذين ارتجلهما في الرد على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما سأله عن اسمه ، وكان عمر أيضًا بارعًا في جوابه واستشهاده ببيت الشعر الذي استشهد به .

تقديره زياد مولى ابن عياش :

إن من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في التواضع وتقدير العلماء ماجاء في رواية ابن عبد الحكم أنه قال : وقدم عليه زياد مولى ابن عياش وأصحاب له ، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم ، فدخل عليه فنسي أن يسلم عليه بالخلافة، ثم ذكر فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : والأولى لم تضرنني ، ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأرض وقال : إني أعظم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد، فلما قضى زياد ما يريد خرج ، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم ، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمته عينه أن يكون يُفتح لمثله بيت المال ويسلطُ عليه - وهو به غير عارف - ففعل الخازن ما أمر به ، فدخل زياد فأخذ لنفسه ولأصحابه بضعا وثمانين درهما، أو

بضعا وتسعين درهما ، فلما رأى ذلك الخازن قال : أمير المؤمنين أعلم
بمن يسلط على بيت المال (١) .

ففي هذا الخبر صور من تواضع عمر بن عبد العزيز رحمه الله
وتقديره للعلماء الربانيين ، فهو أولاً لم يبال بلقب الخلافة وهو أعلى
لقب عند المسلمين ، والمناصب لها فتنة يقع في حبالها من اغتروا
بالجاه والمنزلة الدنيوية ، أما أقوياء الإيمان فإن شخصيتهم لا تتغير بعد
المنصب بل يظلون على ما هم عليه من التواضع ، وربما زادوا تواضعا
في مقابلة احترام الناس لهم .

ثم هو ثانياً نزل عن مكانه حتى لا يعلو ذلك العالم الرباني ريادة
ابن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ، وكون ذلك
العالم من الموالي لا يُنزل من قدره عند عمر فإن العبرة بالعلم والتقوى
لا بشرف النسب .

وموقف كريم لذلك العالم الرباني حيث لم يأخذ من بيت المال
إلا ذلك القدر الزهيد مع أنه قد مكّن منه ، وهذا مثال رفيع من أمثلة
الزهد والورع .

وحينما تكون النفوس كبيرة والعقول راجحة فإنها تعف عن متاع
الدنيا الذي يتنافس عليه الصغار ، وتطمح ببصرها نحو نعيم الآخرة
الخالد الذي يتنافس فيه الكبار .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٥٣ ، وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه
- الزهد / ٢٩٩ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوري / ٦١ .

إكرامه من ينتسبون إلى علي رضي الله عنه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب . قال : حدثني يزيد بن عمر بن مورك قال : كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس ، فتقدمت إليه فقال لي : ممن أنت ؟ قلت من قريش ، قال من أي قريش ؟ قلت من بني هاشم . قال من أي بني هاشم ؟ قال فسكت فقال من أي بني هاشم ؟ قلت مولى علي . قال من علي : فسكت ، قال : فوضع يده على صدري وقال : وأنا والله مولى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ثم قال : حدثني عدة أنهم سمعوا النبي ﷺ يقول : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ثم قال : يمازحمكم تعطي أمثاله ؟ قال : مائة أو مائتي درهم ، قال أعطه خمسين ديناراً ، وقال ابن أبي داود : ستين ديناراً لولايته علي بن أبي طالب ، ثم قال : الحق ببلدك فسيأتيك مثل ما يأتي نظراءك (١) .

وهذا موقف يذكر لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حيث حفظ حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأكرم وفادة ذلك الرجل وفضله على غيره في العطية لكونه مولى لعلي ، وفي هذا الخبر تصوير للإرهاب الذي بشه بنو أمية في قلوب الناس فيما يتعلق بعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه وذريته ، حيث لم يجراً ذلك المولى على ذكر انتسابه إليه في بادئ الأمر .

(١) حلية الأولياء ٣٦٤/٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوري / ١٢ .

- نماذج من جرأته في الحق وحزمه وحكمته -

إنكاره على الوليد بن عبد الملك في الحكم بالهوى :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : ودخل عمر بن عبدالعزيز على الوليد بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين إن عندي نصيحة فإذا خلا لك عقلك واجتمع فهمك فلسني عنها، قال : ما يمنعك منها الآن ؟ قال : أنت أعلم إذا اجتمع لك ما أقول، فإنك أحق أن تفهم .

قال : فمكث أياما ثم قال : يا غلام من الباب ؟ فقيل له ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز فقال : أدخله ، فدخل عليه فقال : نصيحتك يا أبا حفص فقال عمر : إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وإن عمالك يقتلون ويكتبون : إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا، وأنت المسؤول عنه ، والمأخوذ به . فاكتب إليهم أن لا يقتل أحدا منهم أحدا حتى يكتب إليك بذنبه ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك علي أمر قد وضع لك قال : بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك . علي بكتاب فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم فلم يخرج من ذلك إلا الحجاج ، فإنه أمضه ، وشق عليه وأقلقه . وظن أنه لم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن ذلك فقال : من أين ذهينا ؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهذا، فأخبر أن عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك فقال : هيهات إن كان عمر فلا نقض لأمره .

قال : ثم إن الحجاج أرسل إلى أعرابي حروري جاف من بكر بن وائل، ثم قال له الحجاج : ماتقول في معاوية ؟ فقال منه . قال له :

ماتقول في يزيد ؟ فسبه . قال : فما تقول في عبد الملك ، فظلمه
قال : فما تقول في الوليد ؟ فقال : أجورهم حين ولأك وهو يعلم
عداءك وظلمك .

قال : فسكت عنه الحجاج وافترضها منه ثم بعث به إلى الوليد
وكتب إليه : أنا أحوط لديني ، وأرعى لما استرعتني وأحفظ له من
أن أقتل أحداً لم يستوجب ذلك ، وقد بعثت إليك ببعض من كنت
أقتل على هذا الرأي فشأنك وإياه . فدخل الحروري على الوليد وعنده
أشراف أهل الشام وعمر فيهم ، فقال له الوليد : ماتقول في ؟ قال :
ظالم جائر جبار . قال : ماتقول في عبد الملك ؟ قال جبار عات قال :
فما تقول في معاوية ؟ قال : ظالم . قال الوليد لابن الريان : اضرب
عنقه فضرب عنقه .

قال : ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده فقال : يا غلام
اردد علي عمر ، فردده عليه فقال : يا أبا حفص ماتقول بهذا ؟ أصبنا فيه
أم أخطأنا ؟ فقال عمر ما أصبت بقتله ، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب ،
كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل أو تدركه منيته ، فقال الوليد :
شتمني وشتم عبد الملك وهو حروري أفستحل ذلك ؟ قال : لعمرى ما
استحلّه ، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه ، فقام الوليد مغضباً ،
فقال ابن الريان لعمر : يغفر الله لك يا أبا حفص ، لقد راددت أمير
المؤمنين حتى ظننت أن سيأمرني بضرب عنقك . فقال عمر : ولو أمرك
كنت تفعل ؟ قال : إي لعمرى قال عمر : اذهب إليك^(١) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٤ - ١٣٦ ، وانظر تاريخ دمشق ١٥٢/٤٥ .

فهذا موقف جليل من عمر بن عبد العزيز في الصدد بالحق أمام الوليد بن عبد الملك الذي كان شديد البطش وفي حال من الغضب الشديد، ولكنه كان بين أمرين : أن يتعرض لسخط الوليد وعذابه إن جهر بالحق، أو أن يتعرض لسخط الله جل وعلا وعذابه إن جهر بالباطل، فأثر طلب رضوان الله سبحانه واجتناب سخطه وعذابه فكفاه شر عباده .

مشورته على سليمان بن عبد الملك في الحكم :

قال أبو محمد ابن عبد الحكم : وشاور سليمان بن عبد الملك عمر بن العزيز في رجل سب سليمان فقال : ماترى فيه؟ فقال من حوله : اكتب بضرب عنقه - وعمر بن عبد العزيز ساكت - فقال : مالك لا تتكلم يا عمر ١٩ فقال : أما إذا سألتني فلا أعلم سببة أحلت دم مسلم إلا سببة نبي ، قال : فقاموا وقام فقال سليمان : لله بلادك يا عمر لو قرشي طبخت في مرقته لأنضجتها (١) .

ولقد حدث في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن رجلا من الخوارج شتمه ، كما ذكر ذلك ابن عبد الحكم قال : وحكم رجل في مسجد رسول الله ﷺ (٢) - وأبو بكر بن محمد في صلاته - فقطع عليهم الصلاة وشهر السيف . فكتب أبو بكر إلى عمر . فأتي بكتاب عمر فقرأ عليه فشتهم عمر والكتاب ومن جاء به . فهم أبو

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣١-١٣٢ ، والمقصود بالمرقة اللحم ، والمراد وصفه بالقوة والحزم .

(٢) يعني قال : لاحكم إلا الله .

بكر بضرب عنقه ثم راجع عمر وأخبره أنه شتمه وأنه همّ بقتله .
فكتب إليه عمر : لو قتلته لقتلتك به ، فإنه لا يُقتل أحدٌ بشتم أحدٍ إلا
أن يشتم النبي ﷺ ، فإذا أتاك كتابي هذا فاحبس عن المسلمين شره ،
وأدعه إلى التوبة في كل هلال ، فإذا تاب فخلّ سبيله . فلم يزل في
الحبس حتى هلك عمر فضرب يزيد بن عبد الملك عنقه .

وهكذا كان علم عمر بن عبد العزيز وورعه عاصمين له من
الظلم ، فالورع وحده لا يكفي في العصمة بدون العلم بالشرع لأن
المسلم بدون العلم قد يقع في المخالفات عن جهل ، والعلم وحده
لا يكفي لأن المسلم قد يعلم الحكم ولكنه لا يطبقه اتباعا للهوى ، وقد
تميز عمر بن عبد العزيز في معاملة الخوارج بالعدل والحكمة .

إنكاره على سليمان بن عبد الملك في الإنفاق :

قال أبو محمد ابن عبد الحكم : وقدم سليمان بن عبد الملك المدينة
فأعطى بها مالا عظيما ، فقال لعمر بن عبد العزيز : كيف رأيت
ما فعلنا يا أبا حفص ؟ قال : رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل
الفقر بفقرهم (١) .

فهذا تقويم جيد من عمر بن عبد العزيز لعمل سليمان بن
عبد الملك ، فقد كان سليمان - لجهله بدقائق أحكام الشريعة في مجال
الإنفاق - يظن أنه يأنفاقه ذلك المال الكثير على الرعية قد عمل
صالحا ، فأفاده عمر بن عبد العزيز بأنه قد أخطأ حينما صرف ذلك
المال لغير مستحقه وحرم منه أهله .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣١ .

إنكاره على سليمان بن عبد الملك في تحكيمه كتاب أبيه :

ذكر ابن عبد الحكم رحمه الله في روايته عن شيوخته قال : وكَلَّمَ
عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات
عبد العزيز من بني عبد الملك ، فقال له سليمان بن عبد الملك : إن
عبد الملك كتب في ذلك كتابا منعهن ذلك ، فتركه يسيرا ثم راجعه ،
فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأي عبد الملك في ذلك الأمر
فقال سليمان لغلّامه : إئتني بكتاب عبد الملك ، فقال له عمر :
أبالمصحف دعوت يا أمير المؤمنين ؟ فقال أيوب بن سليمان : ليوشكن
أحدكم أن يتكلم الكلام تضرب فيه عنقه ، فقال له عمر : إذا أفضى
الأمر إليك فالذي دخل على المسلمين أعظم مما تذكر ، فزجر سليمان
أيوب ، فقال عمر : إن كان جهل فما حلّمنا عنه ؟ (١)

فهذا موقف من مواقف الجرأة في قول الحق التي يُحمد لعمر
حيث اعتبر سليمان بن عبد الملك كتابة أبيه شرعاً لا يمكن تغييره ، فنَبّه
عمر إلى أن الكتاب الذي لا يُنقض ولا يُغيّر هو كتاب الله تعالى
وحده .

وهكذا يصل الطغيان بضحاياه إلى تعظيم شأن الآباء والأجداد
الذين ورثوا ذلك المجد الزائل لأبنائهم إلى الحد الذي يعتبرون فيه
قضاءهم شرعاً نافذاً من غير نظر في موافقته لحكم الإسلام أو
مخالفته .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ٣١ وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن
الجوري / ٢٩ .

وموقف يذكر لسليمان حيث وُيِّخ ولده الذي هدد عمر أن قال كلمة الحق ، وهذا يدل على ما يتصف به سليمان من سرعة الرجوع إلى الحق إذا تبين له ، كما أن من فضائله جعل عمر بن عبد العزيز مستشاراً له ومن خاصته الأقربين ، ثم عقد الخلافة له من بعده .

عزله ولاة السوء :

إن من أهم المواقف الجريئة التي قام بها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله إقدامه على عزل ولاة السوء الذين اشتهروا بالظلم ، وكان أول عمل قام به عزل أسامة بن زيد التنوخي ويزيد بن أبي مسلم ، قال ابن عبد الحكم في ذلك : وكتب بعزل أسامة بن زيد التنوخي ، وكان على خراج مصر ، وأمر به أن يحبس في كل جند سنة ، ويقيد ويحل عن القيد عند كل صلاة ، ثم يرد إلى القيد ، وكان غاشماً ظلوماً معتدياً في العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل يقطع الأيدي في خلاف ما يؤمر به ، ويشق أجواف الدواب فيدخل فيها القطائع (١) ويطرحهم للتماسيح ، فحُبس بمصر سنة ، ثم نقل إلى أرض فلسطين فحبس بها سنة ، ثم مات عمر رحمه الله وولي يزيد ابن عبد الملك فردَّ أسامة على مصر .

قال : وكتب بعزل يزيد بن أبي مسلم عن أفريقية وكان عاملاً سوء ، يُظهر التآله والنفاذ لكل ما أمر به السلطان مما جلَّ أو صغر من السيرة بالجور والمخالفة للحق ، وكان في هذا يكثر الذكر والتسبيح ، ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذبون وهو يقول : سبحان الله

(١) لعل المراد الأيدي المقطوعة .

والحمد لله ، شدَّ يا غلام موضع كذا وكذا لبعض مواضع العذاب ، وهو يقول : لا إله إلا الله والله أكبر شدَّ يا غلام موضع كذا وكذا ، فكانت حالته تلك شر الحالات (١) .

وهكذا كان أول عمل قام به عمر هو عزل هذين الواليين الظالمين ، كما جاء في رواية ابن عبد الحكم أنه كتب كتابيَّ عزلهما بعد دفن سليمان بن عبد الملك وقبل رجوع عمر إلى بيته ، مما يدل على شدة اهتمامه بإقرار العدل ورفع الظلم .

فهذان الواليان قد نسيا عبوديتهما لله تعالى ، فلم يصاحبهما الشعور بأنهما ومن فوقهما في المسئولية منفذون لشريعة الله تعالى ، مستسلمون لأوامره ، بل كان الشعور الذي يسيطر عليهما هو محاولة إرضاء طموحهما نحو الطغيان والتجبر على الرعية ، وإرضاء من فوقهما من المسئولين لاعتقادهما بأن إذلال الناس يقربهما من المسئولين .

وهذا الشعور الضاغط الذي يلارم الطغاة ويهيمن على تفكيرهم ينسيهم أي تفكير نحو إصلاح الرعية والإحسان إليهم لأن همهم منصرف إلى مدى البراعة في إتقان مجال النفاق والمداينة لمن هم فوقهم ، وتحصيل رضاهم بأي ثمن ، وإن كان يترتب على ذلك سخط الله تعالى عليهم ، وكراهية الناس لهم .

وفي الخبر الأخير مثل من التضليل بالتظاهر بالتدين حيث يكثر ذلك الوالي من التسبيح والتهليل والتكبير ، في الوقت الذي يتسلَّى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٧ - ٣٨ .

فيه برؤية المعذبين ، ويُصدر أوامره بالتشديد في تعذيبهم ، وهذا جهل منه وضلال ، ففي الوقت الذي يقول فيه لا إله إلا الله ، ينطق عمله الظالم بتعظيم غير الله تعالى ، لأن الله جل وعلا لا يرضى بالظلم ، وإنما ينطوي فكر هذا الوالي الظالم على إرضاء شهوة الجبروت والطغيان في نفسه أو نفوس من يعمل لكسب رضاهم .

وإذا كان يقول: الله أكبر، فكيف لم يجعل الله تعالى نُصْبَ عينيه وهو يعذب الناس ؟ فهل كان الله عز وجل أكبر في فكره حقاً، أم كان الأكبر هُم من يعظمهم من دون الله تعالى ؟

وهذا الاتجاه له نتائج خطيرة على عقيدة المسلمين وسلوكهم ، ولهذا كان غضب الإمام العادل عمر بن عبد العزيز، فإنه لم يكن بمعزل عن واقع الأمة قبل الخلافة ، فلما تولى أمر المسلمين سارع إلى عزل الولاة الظلمة الذين يعرقلون سير المجتمع نحو الصلاح .

قوته في الرجوع إلى الحق :

ذكر الحافظ ابن عساكر من خبر يحيى بن سعيد وربيعه بن أبي عبد الرحمن قالاً : كان عمر بن عبد العزيز يقول : ما من طينة أهون علي فكاً ، ولا من كتاب أيسر علي رداً من كتاب قضيت به ثم أبصرت أن الحق في غيره فنسخته (١) .

فهذا يدل على تغليب نداء العقل السليم على نداء العواطف ، وذلك مبعثه قوة ملاحظة الهدف الإسلامي الأعلى وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة ، فإذا كان الإيمان بهذا الهدف قويا فإنه يتكون

(١) تاريخ دمشق ١٩٤/٤٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوري / ٦١ .

لدى صاحبه عزوف عن اتباع هوى النفس وقوة في الشخصية تبعث على عدم المبالاة بانتقادات الناس ولا فيما قد يتعرض له الجاه من اهتزاز لدى بعض الناس .

ومن ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر حسن بن القاسم الأرقبي : أنه كان عند عمر بن عبد العزيز ونفر من قريش يختصمون إليه فقضى بينهم ، فقال المقضي عليه : أصلحك الله إن لي بينة غائبة ، فقال عمر : إني لا أؤخر القضاء بعد أن رأيت الحق لصاحبه ، ولكن انطلق أنت فإن أتيتني بينة وحق هو أحق من حقهم فأنا أول من رد قضاءه على نفسه (١) .

تلذذه بتنفيذ الحق :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي بكر بن عمرو بن حزم قال قال لي عمر بن عبد العزيز : ما وجدت في إمارتي هذه شيئا ألد من حق وافق هواي (٢) .

وهكذا يعلن العظماء عن مواقع ملذاتهم . . إنهم لا يتلذذون بمتاع الدنيا الزائل مهما لمع بريقه وقويت جاذبيته ، ولكنهم يعشقون المعاني السامية والمثل العالية التي من أبررها تنفيذ الحق مع انشراح النفس له . . إنها متعة روحية عالية لا يتذوقها إلا من صفا فكره وسمت مطالبه .

(١) طبقات ابن سعد ٣٨٦/٥ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٠٧ .

بيانه مهمة الحاكم :

من مواقفه رحمه الله في بيان مهمة الحاكم قوله في إحدى خطبه : أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل إليكم كتاب ، فما أحل الله تعالى على لسان نبيه ﷺ فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرم الله على لسان نبيه ﷺ فهو حرام إلى يوم القيامة ألا إنني لست بقاض ، وإنما أنا منقذ لله ، ولست بمبتدع ولكني متبع ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل ، لست بخير منكم ، ألا وإنني أثقلكم حملا ، يا أيها الناس إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم ، أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم (١) .

فقد بين رحمه الله أن مهمة الحاكم أنه منفذ لشريعة الله تعالى في الأرض ، وذلك في أمور سياسة الأمة الداخلية والخارجية وأمور الجهاد لحماية الأمة وتبليغ الإسلام ، ثم في تنفيذ أحكام الإسلام التي يحكم بها القضاة كإقامة الحدود ورد المظالم ، ثم في الإشراف والرقابة على سائر أمور الأمة .

وفي تحديد مهمة أمير المؤمنين بكونه منفذا لشريعة الله تعالى بيان للخط السياسي الذي يجب أن يسير عليه ، فهو ليس مشرعا مع الله جل وعلا ، ولا يجوز له أن يتأخر في تنفيذ شريعة الله تعالى .
ثم بين أنه - من ناحية المصدر الذي يتلقى منه - متبع للكتاب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤١ - ٤٢ ، وانظر تاريخ دمشق ١٧١/٤٥ .

والسنة ومنهج الخلفاء الراشدين وليس بمبتدع شيئاً لم يُسبق إليه ، فإذا استنكر بعض الناس وجوه الإصلاح التي يقوم بها فليس ذلك لأنها أمور مبتدعة وإنما ذلك لكون بعض السنن أُمِّيتَتْ ، وأُحيى الناس بدلاً منها البدع ، فصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً عند بعض الناس .

ثم بين أن طاعة السلطان ليست مطلقة وإنما هي مقيدة بطاعة الله سبحانه ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فإذا أمر الحاكم بأمر يتعارض مع شريعة الإسلام فلا يجوز تنفيذ أمره بل يجب تنبيهه ليرجع إلى الحق ، فينقذ نفسه وينقذ أُمته من مخالفة أمر الله تعالى .

ثم بين أنه لا تلازم بين المسئولية والخيرية ، فليس كون الإنسان مسئولاً يُخَوِّلُه أن يكون خيراً ممن هم تحت مسئوليته ، وإنما كلما عظمت المسئولية كانت التكاليف أشق وأثقل ، فمن كان مسئولاً عن أسرته فقط ليس كمن هو مسئول عن إدارة أو إمارة ، وصاحب الولاية العظمى هو أثقل المسلمين حملاً ، لأن كل مسئول يأتي يوم القيامة فيناقش الحساب عن رعيته التي استرعاه الله إياها ، كما قال النبي ﷺ « مامن وال على عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه ، فكَّه عدله أو أوبقه جوره » أخرجه الإمام أحمد (١) .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز بهذا الكلام دقيق الفهم لحقيقة الولاية حيث فهم أنها مَغْرَم وليست بمَغْنَم ، وأنها لا تزيد صاحبها شرفاً ولا رفعة ، وإنما هي ابتلاء بعمل ثَقِيل متواصل ، إن أداه صاحبه على ما يُرضي الله تعالى كان عملاً صالحاً وأصبح نعمة على صاحبه ،

(١) الفتح الرباني ١٤/٢٣ - ورجاله رجال الصحيح .

ودخل في زمرة من قال عنهم رسول الله ﷺ « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . . وذكر منهم الإمام العادل » (١) ، وإن عمل فيه بما يسخط الله تعالى كان عملاً سيئاً وكان نقمة على صاحبه ودخل في زمرة من قال فيهم رسول الله ﷺ « اللهم من وكي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه » (٢) .

ثم ختم خطبته ببيان أن أفضل العبادة فعل الواجبات واجتناب المحرمات ، وذلك مقتبس من قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه » (٣) وذلك يشمل فعل الواجبات واجتناب المحرمات .

وهذه الجملة تدل على عمق فهم عمر لشمول العبادة حيث جعل منها ترك المحرمات ، وعلى فقهه حيث قدم ذلك على فعل النوافل .

(١) صحيح البخاري رقم ١٤٢٣ الزكاة (٣/٢٩٢) ، صحيح مسلم ، زكاة رقم ١٠٣١ (ص ٧١٥) .

(٢) صحيح مسلم رقم ١٨٢٨ ، الإمارة (ص ١٤٥٨) .

(٣) صحيح البخاري ، الرقاق ، رقم ٦٥٠٢ (١١ / ٣٤٠) .

من أخباره في العدل والاهتمام بالمسئولية

رغبته في التأسّي بجدّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من خبر جعفر بن برقان قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر (١) : أما بعد فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من هذا الأمر عن غير مشورة ولا طلب له ولكن كان ما قدر الله عز وجل فأسال الله الذي ابتلاني بما ابتلاني أن يعينني عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث إلي بكتب عمر ابن الخطاب وقضائه وسيرته في أهل العهد وأهل الذمة فإني متبع أثره وسائر بسيرته إن أعانني الله على ذلك والسلام، فكتب إليه سالم : جاءني كتابك تذكر أن الله عز وجل ابتلاك بما ابتلاك به من هذا الأمر من غير طلب ولا مشورة كان منك ولكن ما كان قدر الله أن يبتليك، فأسال الله الذي ابتلاك بما ابتلاك به أن يعينك عليه فإنك لست في زمان عمر وليس عندك رجال عمر فإن نويت الحق وأردته أعانك الله عليه وأتاح لك عمالا وأتاك بهم من حيث لا تحتسب فإن عون الله على قدر النية فمن تمت نيته في الخير تم عون الله له ومن قصرت نيته قصر من العون بقدر ما قصر منه والسلام (٢) .

فهذا طموح من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما أراد التأسّي بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أحكام أهل الذمة،

(١) جاء في كتاب الزهد « سالم بن عمر وصوابه ما أثبت لأن سالما هو ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

(٢) الزهد / ٣٠١ - ٣٠٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٢٢ .

حيث إنه في عهد قد تقرر هذه الأحكام فيه .

وما جاء في جواب سالم بن عبد الله بن عمر لا يعتبر تئيسا لعمر ابن عبد العزيز ، وإنما هو تذكير له بما يتطلبه ذلك التأسى من التكامل ، حيث إن تطبيق الأحكام الشرعية لا يؤدي مقاصده إلا إذا كان الولاة الذين سيتولون التنفيذ على مستوى هذه الأحكام فهما وقناعة ومقدرة على التنفيذ ، وقد أشار سالم إلى ما يحو هذا التئيس ويفتح باب الأمل ، وذلك بصلاح نية المسئول الأعلى وتوجهه الصادق نحو الإصلاح ، فإن صلاح النية في ذلك يترتب عليه عون الله تعالى وتوفيقه إلى اختيار هؤلاء الولاة المتقين الذين يكونون عوناً لأمير المؤمنين على معرفة الحق وتنفيذه .

تذكيره بالحساب الأخروي :

نقل الحافظ ابن كثير عن الشعبي قال : حج سليمان بن عبد الملك ، فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز : ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلا الله ، ولا يسع رزقهم غيره!! فقال : يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيته اليوم وهم خصماؤك عند الله ، فبكى سليمان بكاء شديداً ، ثم قال : بالله أستعين (١) .

فهذا التذكر السريع من عمر بن عبد العزيز لمشاهد يوم القيامة يدل على عمق يقينه ، حيث قارن سريعاً بين مارآه من المشهد الدنيوي وما ينتظر من الحساب الأخروي ، فذكر أمير المؤمنين سليمان بمسؤوليته عن جميع المسلمين .

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٨٧ .

وعظه سليمان بن عبد الملك في رد المظالم :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر مكّي بن إبراهيم قال : كنا عند عبد العزيز بن أبي رواد في المسجد فارتفعت سحابة فجاءت برعد وبرق وصواعق ، ففزع القوم فتفرقنا ، فلما سكنت عدنا ، فقال عبد العزيز : خرج سليمان بن عبد الملك يوما إلى بعض البوادي فأصابهم نحو من هذا ففزع سليمان ونادى يا عمر يا عمر وكانوا - يعني بني أمية - إذا أصابتهم شدة فزعوا إلى عمر بن عبد العزيز ، فإذا عمر ينادي ها أنا ذا . قال : ألا ترى ؟ قال : يا أمير المؤمنين إنما هذا صوت نعمة فكيف لو سمعت صوت عذاب ؟ فقال : نخذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها ، فقال عمر : أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين ، قال وما هو ؟ قال قوم صحبوك في مظالم لهم لم يصلوا إليك ، قال فجلس سليمان فرد المظالم (١) .

وهكذا كان سلوك عمر بن عبد العزيز في التذكر والاعتبار عبرة لمن حوله ، فقد كان لتذكيره سليمان بن عبد الملك بعذاب الله تعالى أثر في خشيته وإنابته ، وقد كان من أثر ذلك أن وصل عمر إلى تذكيره بالعدل ورد الحقوق إلى أصحابها .

إتخاذه رقبا على نفسه ليستقيم على الحق :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عمرو بن مهاجر قال قال عمر بن عبد العزيز : إذا رأيته قد ملت عن الحق فضع يدك في تسبّابي ثم هزني ، ثم قل : يا عمر مات صنع (٢) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٣ .

(٢) حلية الأولياء ٢٩٢/٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٤٦ .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي حازم قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز قال: انظروا رجلين من أفضل من تجدون، فجيء برجلين، فكان إذا جلس مجلس الإمارة ألقى لهما وسادة قُبَالَه فقال لهما: إنه مجلس شرة وفتنة فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلي، فإذا رأيتهما مني شيئاً لا يوافق الحق فخوفاني وذكراني بالله عز وجل (١).

فهذا مثل من تصميمه على الحكم بالحق، وهو لكونه يعرف ضعف بني آدم، وأن الإنسان يسير في هذه الحياة بين أعداء لدودين: نفسه الأمارة بالسوء التي تزين له اتباع الهوى، والشيطان الرجيم الذي يوسوس له ويخادعه ويقلل في عينه مسالك الانحراف، ويضخم في عينه مهابة الناس، وشياطين الإنس الذين مايزالون يفتلون في الذروة والغارب ليسقطوا على مواقع الضعف فيه فينفذوا منها إلى السيطرة عليه وتسخيره لباطلهم، فهو لكونه يعرف ذلك كله لم يعتمد على ما يرى من قوة إيمانه وعزمه الأكيد على تنفيذ الحق ودحر الباطل، بل جعل على نفسه رقباء من أهل التقوى بعيدا عن ساحة المعركة التي يخوضها هو ليدرك ما قد يفوته أو يغلب عليه من مناحي الانحراف عن الطريق المستقيم.

وفي تعبيره عن الطريقة التي أرشد إليها ذلك الأخ في الرواية الأولى في تنبيهه إلى الحق مثل من تواضعه الكبير، وتجرده من حظ النفس، واعتباره تنفيذ الحق أعلى من مراعاة الجاه والمنزلة الاجتماعية.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦ - ١٤٧ .

ماقام به من رد المظالم :

قال ابن عبد الحكم - في بيان مقام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة - : واحتجب عن الناس ثلاثا لا يدخل عليه أحد ، ووجوه بني مروان وبني أمية وأشراف الجنود والعرب والقواد ببابه ينظرون ما يخرج به عليهم منه ، فجلس للناس بعد ثلاث وحملهم على شريعة من الحق فعرفوها ، فرد المظالم وأحيا الكتاب والسنة وسار بالعدل ، ورفض الدنيا وزهد فيها ، وتجرد لإحياء أمر الله عز وجل ، فلم يزل على ذلك حتى قبضه الله عز وجل ، فرحمه الله (١) .

وهكذا رسم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز سياسته التي سيسير عليها ، حيث أحصى المظالم فردّها إلى أصحابها ، وكان قويا في فرض الحق ، فلم يخش المعارضين مع كثرتهم وتحزبهم ، ولم يخش أحداً من الظلمة ، لأنه كان يخش الله تعالى وحده ، حيث أصبح قلبه مملوءاً بالإيمان بالله جل وعلا وحبه وخشيته ، ولم يكن لمراكز القوى المحيطة به أي أثر في صده عن تنفيذ الحق ، لأن قلبه قد تجرد للإيمان بالله تعالى وحده فلم يستطع الشيطان أن يغريه بالدنيا ولا أن يخيفه بأصحاب النفوذ ولا من وراءهم من طلاب الدنيا .

بدؤه بنفسه وأهل بيته :

ومن عدالته أنه بدأ بنفسه وأهل بيته ، وفي ذلك يقول أبو بكر بن أبي سبرة : لمارد عمر بن عبد العزيز المظالم قال : إنه لينبغي أن لا أبدأ

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٠ .

بأول من نفسي ، فنظر إلى مافي يديه من أرض أو متاع فخرج منه ،
حتى نظر إلى فص خاتم فقال : هذا مما كان الوليد بن عبد الملك
أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب ، فخرج منه (١) .

ومن ذلك ماجاء في قول عبد المجيد بن سهيل : رأيت عمر بن
عبد العزيز بدأ بأهل بيته فرد ماكان بأيديهم من المظالم ثم فعل بالناس
بعد (٢) .

ولقد سهل على الناس وصول حقوقهم إليهم ، وفي ذلك يقول
أبو الزناد : وكان عمر يرد المظالم على أهلها بغير البيعة القاطعة ، كان
يكتفي بأيسر من ذلك ، إذا عرف وجها من مظلمة الرجل ردها عليه
ولم يكلفه تحقيق البيعة لما كان يعرف من غشم الولاة (٣) .

من كتاباته في رد المظالم :

ومن كتاباته إلى الولاة في رد المظالم مارواه عبد الرحمن بن أبي
الزناد عن أبيه قال : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق في رد
المظالم إلى أهلها ، فرددناها حتى أنفدنا ما في بيت مال العراق ، وحتى
حمل إلينا عمر المال من الشام (٤) .

وكذلك ماجاء في خبر أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم :
والي المدينة قال : كتب إلي عمر بن عبد العزيز : أن استبرئ

(١) طبقات ابن سعد ٣٤١/٥ .

(٢) المرجع السابق ٣٤١/٥ .

(٣) المرجع السابق ٣٤٢/٥ .

(٤) طبقات ابن سعد ٣٤٢/٥ .

الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فرده عليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم .

وجاء في هذا الكتاب - كما ذكر موسى بن عبيدة - وإياك والجلوس في بيتك ، اخرج للناس فأس بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد من الناس أثر عندك من أحد، ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين ، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء ، بل أنا أخرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم ، وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إلي فيه (١).

وهذا من كمال عدله ومساواته بين المسلمين ، وذلك يدل على قوة إيمانه ورجاحة عقله .

ولقد كان رد المظالم عملاً كبيراً استغرق خلافة عمر بن عبدالعزيز كلها كما جاء في خبر سليمان بن موسى قال: ما زال عمر بن عبدالعزيز يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات (٢) .

حرصه على الإسراع في رد المظالم :

ولقد كان حرصاً على الإسراع برد المظالم إبراء للذمة وخوفاً من حلول الأجل قبل إكمال ذلك ، ومن أخباره في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أيوب بن موسى قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة عامله على اليمن : أما بعد فإني أكتب إليك أمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعني ولا تعرف بُعد مسافة ما بيني وبينك ،

(١) طبقات ابن سعد ٣٤٢/٥ - ٣٤٣ .

(٢) المرجع السابق ٣٤١/٥ .

ولاتعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة لكتبت : أرددها عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولاتراجعني (١) .

وهكذا يبين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لواليه على اليمن عروة بن محمد بن عطية السعدي أهمية الإسراع في رد المظالم وأن لا يضيع الوقت بالكتابات الاستفسارية عن أمور واضحة، وفي هذا لفت نظر إلى أن من أسباب نجاح الوالي أن يتصرف باجتهاده في الأمور التي لاغموض فيها ولا لبس، من باب كسب الوقت والسرعة في الإصلاح .

مثل من صرامته ومالقي من عشيرته :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إسماعيل بن أبي حكيم قال: أتى عمر بن عبد العزيز كتاب من بعض بني مروان فأغضبه ثم قال : إن لله في بني مروان ذبحا، وإيم الله لئن كان الذبح على يدي .. فلما بلغهم ذلك كفوا، وكانوا يعلمون صرامته وأنه إن وقع في أمر مضى فيه (٢) .

وقوله « إن لله في بني مروان ذبحا » لعله أخذه من سنة الله تعالى الجارية في الانتقام من الظالمين، وأن الله سبحانه يهملهم بعض الوقت ولا يهملهم، فإذا أراد الانتقام منهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

(١) طبقات ابن سعد ٣٨١/٥ .

(٢) حلية الأولياء ٢٨١/٥ .

مساواته بين عشيرته وسائر المسلمين :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الإمام الأوزاعي قال: لما قطع عمر بن عبد العزيز على أهل بيته ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصة وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم تكلم في ذلك عنبسة بن سعيد فقال : يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة ، قال : لن يتسع مالي لكم ، وأما هذا المال فحقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد ، فلا يمنعه من أخذه حقه إلا بُعد مكانه ، والله إنني لأرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله (١) .

وهذا مثل من كمال عدله حيث تنزه عن محاباة عشيرته ، وفي إخباره عن نزوله عذاب الله تعالى تصوير لسنة من سنن الله جل وعلا ، وذلك أنه كلما تمحضت الأرض للشرك كانت مهددة بنزول عذاب من عند الله تعالى ، ولكنه سبحانه يدرأ عنها العذاب استجابة لدعاء الصالحين ، ولذلك فإن المؤمن الحق يستأنس بكثرة الصالحين ، ويستوحش من كثرة الفاسقين والمفسدين في الأرض .

وذكر الحافظ أبو نعيم من خبر عمر بن مقدم قال : قال ابن سليمان بن عبد الملك لمزاحم : إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر ، قال فاستأذنت له فقال : أدخله ، فأدخلته على عمر فقال ابن سليمان : يا أمير المؤمنين علام ترد قطيعتي ؟ قال : معاذ الله أن أرد قطيعة صحت في الإسلام . قال فهذا كتابي وأخرج كتابا من كفه ، فقرأه عمر فقال :

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٩٥ .

لمن كانت هذه الأرض ؟ قال للفاسق ابن الحجاج . قال عمر : فهو أولى بماله ، قال : فإنها من بيت مال المسلمين ، قال فالمسلمون أولى بها قال : ياأمير المؤمنين رد علي كتابي ، قال : لو لم تأتني به لم أسألكه ، فأما إذ جئتني به فلا ندعك تطلب بباطل ، قال : فبكى ابن سليمان ، قال مزاحم : فقلت : ياأمير المؤمنين ابن سليمان اللائط الحب (١) اللارق بالقلب تصنع به هذا ؟ قال : ويحك يامزاحم إنها نفسي أحاول عنها ، وإنني لأجد له من اللوط ماأجد لولدي (٢) .

وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في تجاذب نفسي بين مقام العدل بعدم تخصيص أفراد عشيرته بشيء دون أفراد الأمة وبين مقام الرحمة بمن يحبهم من أفراد عشيرته ممن يشعرون بأنهم قد تضرروا بحكمه ، ولكن ليس هناك مجال للموازنة بين الأمرين لوضوح وجوب العدل وعدم الالتفات إلى عاطفة النفس لأن عاقبة ترك الواجب خضوعا للعاطفة هي الهلاك في الآخرة ، ولا يمكن عقد مقارنة بين الدنيا والآخرة .

خبر روح بن الوليد وخصمائه :

قال أبو محمد ابن عبد الحكم : وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح وكان نشأ في البادية فكأنه أعرابي ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز يخاصمون روحاً في حوائت بحمص - وكانت لهم أقطعه إياها أبوه الوليد بن عبد الملك - فقال له

(١) أي الشديد الحب من لاط يلو طوطا .

(٢) حلية الأولياء ٥ / ٢٨١ - ٢٨٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوري / ٩٨ .

عمر: اردد عليهم حوانيتهم . قال له رَوْحٌ : هذا معي بسجل الوليد .
قال : وما يغني عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم
البينة عليها ؟ خَلَّ لهم حوانيتهم . فقام رَوْحٌ والحمصي منصرفين فتوعد
روح الحمصي فرجع الحمصي إلى عمر فقال : هو والله متوعدني
ياأمير المؤمنين فقال عمر لكعب بن حامد-وهو على حرسه- : اخرج
إلى روح ياكعب فإن سلّم إليه حوانيته فذلك وإن لم يفعل فائتني
برأسه . فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد ،
فذكر له الذي أمر عمر فخلع فؤاده ، وخرج إليه كعب وقد سلّ من
السيف شبراً فقال له : قم فخلّ له حوانيته قال : نعم نعم فخلّ له
حوانيته (١) .

إصافه الرجل الحمصي من العباس بن الوليد :

ذكر الحافظ ابن الجوري من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد
العزيز قال : لما دفن عمر سليمان صعد إلى المنبر فقال « إني قد
خلعت مافي أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم ، فصاح الناس
صيحة واحدة : قد اخترناك » فنزل فدخل فأمر بالسور فهتكت ،
والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخالها - أو
قال إدخال ثمنها - بيت المال ، ثم ذهب يتبواً مقيلاً ، فقال ابنه عبد
الملك ثقيل ولا ترد المظالم ؟ قال أي بني قد سهرت البارحة في أمر
عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم ، قال من لك أن
تعيش إلى الظهر ؟ فخرج ولم يَقُلْ ، فأمر مناديه أن ينادي : ألا من
كانت له مظلمة فليرفعها ، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص أبيض

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٦٠ - ٦١ .

الرأس واللحية ، فقال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال وماذا؟ قال :العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي-والعباس جالس- فقال له :ياعباس ماتقول ؟ قال أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجلا ، فقال ماتقول ياذهبي ؟ قال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر كتاب أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، اردد عليه ياعباس ضيعته ، فرد عليه ، فجعل لايدع شيئا مما كان في يده وفي يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة (١) .

فهذان مثلان من صرامة عمر بن عبد العزيز وحزمه في تطبيق الأحكام الشرعية ، فهو لين رحيم فيما يتعلق بنفسه ولكنه قوي شديد فيما يتعلق بأحكام الله تعالى .

وفي هذين الخبرين مثل من انقلاب المفاهيم عند أهل الدنيا ، فالحق عند هذين الرجلين المعتدين هو ماقرره أبوهما الوليد وإن كان ظالما معتديا من غير نظر فيما ينجيها من المسؤولية أمام الله تعالى يوم القيامة ، وما أعظم خسارة هؤلاء الذين يعتدون على أموال الناس ولايردعهم من ذلك إلا قوة السلطان !! فإنهم قد خسروا دنياهم لانتراعها منهم بالقوة وخسروا آخرتهم لأنهم ليس لهم نية في إنصاف المظلومين ورد حقوقهم إليهم .

نزع إقطاع أحد الرجال :

أخرج الحافظ . أبو نعيم الأصبهاني من خبر إبراهيم بن هشام بن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٨٦ .

يحيى الغساني : حدثني أبي عن جدي قال : كنت عند هشام بن عبد الملك جالسا ، فأتاه رجل فقال يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرأها الوليد وسليمان حتى إذا استخلف عمر رحمه الله نزعها ، فقال له هشام أعد مقالتي فقال : يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرأها الوليد وسليمان ، حتى إذا استخلف عمر رحمه الله نزعها ، فقال والله إن فيك لعجبا ، إنك تذكر من أقطع جدك قطيعة ومن أقرأها فلا تترحم عليهم وتذكر من نزعها فتترحم عليه ، وأنا قد أمضينا ما صنع عمر رحمه الله (١).

في هذا الخبر موقفان أحدهما لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حيث رد ذلك الإقطاع الذي أعطيه ذلك الرجل بغير حق إلى بيت مال المسلمين .

والثاني موقف لأمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله تعالى ، حيث حكم بالحق ولم تأخذه العصبية لأبيه عبد الملك وأخويه الوليد وسليمان فأقرحكم عمر بن عبد العزيز ، وقد تعجب من ذلك الرجل المتظلم حيث ترحم على عمر بن عبد العزيز الذي نزع منه القطيعة ولم يترحم على عبد الملك الذي أقطع جده تلك القطيعة ولا على الوليد وسليمان اللذين أقرأها ، وهذا يعني أن هناك إحساسا لدى أفراد الأمة بعدالة عمر بن عبد العزيز وصلاحه حتى بالنسبة لمن تضرروا منه في دنياهم .

(١) حلية الأولياء ٢٤٥/٥ .

مثل من حكمته وموقف لابنه عبد الملك :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر جويرية بن أسماء . قال : قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر : ما يمنعك أن تنفذ لرأيك في هذا الأمر ؟ فوالله ما كنت أبالي أن تغلي بي وبك القدور في إنفاذ هذا الأمر ، فقال عمر : إني أروض الناس رياضة الصعب ، فإن أبقاني الله مضيت لرأيي ، وإن عجلت علي منية فقد علم الله نيتي ، إني أخاف إن بادعت الناس بالتي تقول أن يلجئونني إلى السيف ، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف (١) .

وأخرج الحافظ أبو نعيم من طريقين : أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على عمر فقال : يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فأخطني - وعنده مسلمة بن عبد الملك - فقال له عمر : أسر دون عمك ؟ فقال نعم ، فقام مسلمة وخرج ، وجلس بين يديه فقال له : يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك فقال رأيت بدعة فلم تمتها ، أو سنة لم تحيها ؟ فقال : له يا بني أشيء حملتكم الرعية إلي ، أم رأي رأيته من قبل نفسك ؟ قال : لا والله ولكن رأي رأيته من قبل نفسي ، وعرفت أنك مسئول فما أنت قائل ؟ فقال له أبوه : رحمك الله وجزاك من ولد خيرا ، فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير يا بني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة وعروة عروة ، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع مافي أيديهم لم آمن أن يفتقوا علي فتقا تكثر فيه الدماء والله لزوال الدنيا أهون علي من أن

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١ .

يهراق في سببي محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين (١).

وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حكيما يوازن بين المصالح والمفاسد ، فلا يتجه إلى تغيير منكر يترتب عليه منكر أكبر منه، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فبقاء الناس على ما هم فيه من بعض الظلم أولى من سفك دماء المسلمين إذا كان رد المظالم بسرعة سيترتب عليه ذلك، ولكن الحكمة تقتضي التمهّل في ذلك وسياسة الناس بالتدرج حتى ترجع الحقوق إلى أصحابها ويرتدع الظالمون دون حدوث فتنة دموية .

ولقد كان ابنه عبد الملك شديد التحمس لرد المظالم دفعة واحدة فهو شاب قوي الإيمان ، لكنه لم يكن في مستوى أبيه من الحكمة والفقّه في تطبيق الأحكام الشرعية .

حواره مع هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر بشر بن عبد الله بن عمر عن بعض آل عمر أن هشام بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين إني رسول قومك إليك، وإن في أنفسهم ما أكلمك به ، إنهم يقولون استأنف العمل برأيك فيما تحت يديك، وخلّ بين من سبقك وبين ما ولوا تمنّ كانوا يلون أمره بما عليهم ولهم فقال له عمر : أرأيت لو أُتيتُ بسجلّين أحدهما من معاوية والآخر

(١) حلية الأولياء ٢٨١/٥ - ٢٨٣ .

من عبد الملك بأمر واحد فبأي السجلين كنت آخذ؟ قال بالأقدم ولا أعدل به شيئاً ، قال عمر : فإني وجدت كتاب الله الأقدم فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي في مالي وفيما سبقني .

فقال له سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان : ياأمير المؤمنين امض لرأيك فيما وليت بالحق والعدل ، وخل عمن سبقك وعما ولي خيره وشره ، فإنك مكتف بذلك . فقال له عمر : أنشدك الله الذي إليه تعود أرأيت لو أن رجلاً هلك وترك بنين صغاراً وكباراً فعز الأكاير الأصاغر بقوتهم فأكلوا أموالهم ، فأدرك الأصاغر فجاءوك بهم وبما صنعوا في أموالهم ماكنت صانعاً ؟ قال : كنت أرد عليهم حقوقهم حتى يستوفوها . قال : فإني قد وجدت كثيراً ممن قبلي من الولاة عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم . وعزهم بها أتباعهم . فلما وليت أتوني بذلك ، فلم يسعني إلا الرد على الضعيف من القوي ، وعلى المستضعف من الشريف . فقال : وفقك الله ياأمير المؤمنين (١) .

فهذان جوابان جليان من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز استطاع بهما أن يسكت هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان اللذين حاوراه فيما قام به من رد المظالم ، فقد سكت هشام ووافق سعيد بن خالد ودعا لعمر بن عبد العزيز ، وهذا دليل على أن أولئك القوم الذين ورثوا الظلم يدركون أن ماتقدم به الولاة السابقون كان ظلماً ، ويريدون من عمر بن عبد العزيز أن يترك الناس على مظالمهم فإنه ليس مسئولاً عن ظلم من سبقه وأن يهتم فقط بتنزيه نفسه

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٨٢ .

عن مباشرة الظلم ، ولكنه أفهمهم بأنه لو أقر ظلم من سبقوه يكون شريكا لهم في ظلمهم .

خطبته أمام الغرباء :

من مواقفه في العدل قوله في خطبة خاطب بها الغرباء فقال :
ياأيها الناس الحقوا ببلادكم فإنني أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم ،
وإني قد استعملت عليكم رجالا لا أقول هم خياركم ، ولكنهم خير
ممن هم شر منهم ، ألا فمن ظلمه إمامه مظلمة فلا إذن له عليّ ،
ومن لا فلا أريته ، ألا وإني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال ، فإن
ضننت به عنكم إني إذا لضنين ، والله لولا أن أنعش سنة أو أسير
بحق ما أحببت أن أعيش فيكم فواقا (١) .

وقول عمر بن عبد العزيز للغرباء : « فإنني أنساكم عندي
وأذكركم ببلادكم » دليل على ضبطه لأمر رعيته ، وذلك بتولية
الولاة الأكفاء الذين يتفقدون أحوال الرعية ويرفعون حوائجهم لأمر
المؤمنين مع متابعتهم لهم .

وقد بقي الغرباء في عاصمة الدولة ظناً منهم أن الولاة سينسونهم
كما نسيهم الولاة السابقون ، وقد بين لهم عمر أنه لم يأل جهدا في
اختيار الولاة الأكفاء الذين على يدهم يتم صلاح الرعية .

ثم ذكر أن بابه مفتوح لسماع شكوى المظلومين الذين لم يستطع
الولاة أن يرفعوا عنهم الظلم ، أو وقع الظلم عليهم من الولاة أنفسهم .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٢ ، والفواق قدر حلب الناقة ، وانظر
سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوري / ٤٤ ، ٥٨ ، وتاريخ دمشق / ٤٥ / ٢٠٠ .

أما من ليس له مظلمة وليس لديه مشورة أو إصلاح يهّم الأمة فليس من المصلحة أن يتردد على المسئول ، لأن في ذلك إضاعة وقت عليه و على المسئول ، وذلك يترتب عليه إضاعة مصلحة المسلمين العامة ، إضافة إلى أن المسلم مسئول عن كل دقيقة تمر عليه بغير فائدة، ومن ذلك مراجعة المراجعين في قضايا يعلمون سلفاً أنهم لن يحصلوا فيها على شيء فإن ذلك لأفائدة فيه بل فيه ضرر إضاعة الوقت عليهم وعلى المسئولين .

ثم يتحدث عن المال الذي هو عصب الحياة، والذي من أجله يقتتل المتنافسون على الدنيا ، فيطمئن الرعية إلى أنه ليس من المعقول أن يحرم منه نفسه وعشيرته ثم يحبسها عن الأمة .

إن الذي كان يحرم بعض الأمة من مال الدولة قبل عهد عمر كون المسئولين على مختلف مستوياتهم ومن حولهم من المستفيدين منهم قد تمتعوا بنصيب كبير من ذلك المال إلى حد الإسراف والتبذير، فحينما جعل أمير المؤمنين عمر نفسه وعشيرته كأبي فرد من أفراد الرعية فإن بقية المسئولين سيسيروا على سنته ، وبالتالي سيتوفر مال كثير يعود على المحتاجين من الأمة ، وقد حصل ذلك فعلاً حيث كان الأغنياء يدورون بصدقاتهم في عهد عمر يبحثون عن الفقراء فلا يجدونهم، قد أغنى عمر الناس ، كما جاءت الرواية بذلك .

ثم بين أنه ليس حريصاً على البقاء في الحكم إلا لهدفين: إحياء السنن بعدما أُميتت ، والحكم بالحق بعدما عم الباطل كثيراً من أرجاء الأرض ، وهكذا يفهم عمر الولاية على أنها عمل صالح يتقرب به

إلى الله عز وجل ، وَمَنْ فهم هذا الفهم فإنه بعيد منه أن يظلم أو أن ينحرف عن طريق الحق ، لأنه لو فعل ذلك لحصل له نقيض قصده ، حيث سيكسب بالولاية أعمالا سيئة ، فيخسر في الوقت الذي يكون هدفه أن يربح ويفلح .

رده منحة عنبسة بن سعيد :

من مواقفه الجريئة رحمه الله عدله في توزيع مال المسلمين ورفضه تخصيص أفراد عشيرته بشيء من ذلك ، ومن أخبار ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم في أخباره عن شيوخه قال : ولما ولي عمر بن عبد العزيز رد المظالم والقطائع ، وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار فدارت في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قبضها فتوفي سليمان قبل أن يقبضها وكان عنبسة صديقا لعمر بن عبد العزيز ، فغدا عنبسة يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان ، فوجد بني أمية حضورا بساب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه في أمورهم ، فلما رأوا عنبسة قالوا : ننظر ما يصنع به قبل أن نكلمه . فقالوا له : أعلم أمير المؤمنين مكاننا ، وأعلمنا ما يصنع بك في أمورك ، فدخل عنبسة على عمر فقال له : يا أمير المؤمنين إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لي بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ، ولم يبق إلا قبضها ، فتوفي على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندي ، وما بيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان ، قال له عمر : كم ذلك ؟ قال : عشرون ألف دينار ، قال عمر : عشرون ألف دينار تُغني أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها إلى رجل واحد ا والله مالي إلى ذلك

من سبيل ، قال : فرميت بالكتاب الذي فيه الصك ، فقال لي عمر : لا عليك أن يكون معك فلعله أن يأتيك من هو أجراً على هذا المال مني فيأمر لك بها .

قال : عنيسة : فأخذته تبركا برأيه ، وقلت له : ياأمير المؤمنين فما بال جبل الورس ؟ وكان جبل الورس قطيعة لعمر بن عبد العزيز ، فقال عمر : ذكّرني الطعن وكنت ناسيا ، ياغلام هلم ذلك القفص فأُتي بقفص من جريد فيه قطائع بني عبد العزيز فقال : ياغلام اقرأ علي ، فكلما قرأ قطيعة قال : شقّها ، حتى لم يبق في القفص شيء إلا شقه ، قال عنيسة : فخرجت إلى بني أمية وهم وقوف بالباب فأعلمتهم ماكان من ذلك فقالوا : ليس بعد هذا شيء ، ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان ، فرجعت إليه فقلت : ياأمير المؤمنين إن قومك بالباب يسألونك أن تجري عليهم ماكان من قبلك يُجرى عليهم ، فقال عمر : والله ما هذا المال لي ومالي إلى ذلك من سبيل ، قلت : يا أمير المؤمنين : فيسألونك أن تأذن لهم يضربون في البلدان ، قال : ماشاؤوا ذلك لهم ، وقد أذنت لهم ، قال قلت : وأنا أيضاً ، قال : وأنت أيضاً قد أذنت لك ، ولكن أرى لك أن تقيم فإنك رجل كثير النقد وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشتري منها ما يكون لك في ربحه عوض مما فاتك ، قال : فأقمت تبركا برأيه فابتعت من تركة سليمان بمائة ألف فخرجت بها إلى العراق فبعتها بمئتي ألف ، وحبست الصك فلما توفي عمر وولي يزيد ابن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان فانفذ لي ماكان فيه (١) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٥٨ .

في هذا الخبر بيان جرأة الولاة قبل عمر بن عبد العزيز وبعده على أموال المسلمين ، فكان الولاة يختصون عشائريهم وكبار أهل الدنيا الذين يخشون منهم بكثير من هذا المال ، ومن ذلك ما أمر به سليمان لعنبة بن سعيد ولكن عمر رد تلك المنحة وبين أنها تكفي لأربعة آلاف بيت من المسلمين ، فكيف يعطيها لرجل واحد ؟

إن إعطاء القلة من ذوي النفوذ تلك العطايا الكبيرة على حساب بقاء أفراد الأمة في حاجة ومسغبة يعتبر ظلما وإجحافا كبيرا ، وهذا هو أهم الأمور التي نذر عمر نفسه للقضاء عليها .

لقد كان يدور في الأوساط السياسية آنذاك بأنه لا يصلح لسياسة الأمة إلا من كان نهابا وهابا ، حيث يقوم بنهب أموال الأمة العامة ليستميل بها بعض الأكابر الذين يقومون بحماية الدولة وفرض سيطرتها ولكن عمر بن عبد العزيز نجح في سياسته الإسلامية نجاحا كبيرا ، وقد كان عفيفا وهابا ، كان عفيفا عن أموال الأمة العامة ، وهابا للمال للمحتاجين من الأمة ومن يقومون بأمرها بالقصد والاعتدال ، ومع أنه قد منع الأقوياء وأصحاب النفوذ من الخصوصيات التي كانت تمنح لهم فإنهم لم يستطيعوا أن يصنعوا شيئا ضد دولته مع حرصهم على ذلك ، لأن دولته أصبحت محمية من جميع أفراد الأمة الذين رجعت لهم حقوقهم ، وتحسنت أحوالهم المعيشية .

وحينما ذكره عنبة بن سعيد بجبل الورد وهو أحد الإقطاعات التي آلت إليه من ولاة العهد السابق تمثل بالمثل المشهور : « ذكرّتنني الطعن وكنت ناسيا » فدعا من فوره بأوراق الإقطاعات التي تخص بني عبد العزيز بن مروان فشقها جميعها .

وهو بهذا يبين للمستفيدين من الوضع السابق أنه أول من يطبق السياسة الإسلامية على نفسه وأسرته .

ولهذا يش بنو قومه من عودتهم إلى ماكانوا عليه من خصوصيات مالية ، واستأذنوه في السفر ليعملوا في التجارة كما يعمل غيرهم من أبناء الأمة .

إنصافه أحد الرعية من عامله عروة :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : واستعمل عمر بن عبد العزيز عروة بن عياض بن عدي على مكة ، فخرج عمر من مكة ، وخرج معه من خرج يشيعه حتى نزل بمَرَّ (١) ومعه عروة ، فجاء رجل فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، ظلمت ولا أستطيع أن أتكلم ، فقال عمر : ويحه أخذت عليه يمين ثم قال : إن كنت صادقاً فتكلم فقال : أصلحك الله ، هذا - وأشار إلى عروة - سامني بمال لي وأعطاني به ستة آلاف درهم ، فأبيت أن أبيعته فاستعداه علي غريم لي فحبسني فلم يخرجني حتى بعته مالي بثلاثة آلاف درهم ، واستحلفني بالطلاق إن خاصمته أبداً ، فنظر عمر إلى عروة ثم نكت بالخيزران بين عينيه في سجدته وقال هذه غرتني منك ثم قال للرجل : اذهب فقد رددت عليك مالك ولاحت عليك (٢) .

وهكذا ابتلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ببعض الولاة الذين انخدع بمظهرهم الديني ، فكانت سرائرهم تختلف عن علانيتهم ، فهذا

(١) يعني مَرَّ الظهران وهو مكان قرب مكة .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٤ .

الوالي الذي ولاه عمر على مكة كان يظن أنه من العابدين ، ومن كانوا كذلك فلا يتوقع منهم أن يرتكبوا شيئا من ظلم العباد ، ولكنه وقع في الظلم المذكور في الخبر وأحاط ظلمه بما يكفل له عدم وصول خبره إلى أمير المؤمنين ، ولكن ذلك المظلوم وصل إليه وقدم له شكواه فأنصفه ، ولم يكن أمير المؤمنين بحاجة إلي استفتاء العلماء في موضوع الطلاق المذكور لأنه كان من أبرر علماء عصره ، فلذلك أفتاه في الحال بعدم وقوع الطلاق عليه لأنه مكره ، ولا يقع الطلاق مع الإكراه .

إنصافه أهل سمرقند :

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من خبر طفيل بن مرداس قال : كتب عمر إلى سليمان بن أبي السري : أن اعمل خانات في بلادك فمن مريبك من المسلمين فاقروهم يوما وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فاقروهم يومين وليلتين ، فإن كان منقطعا به فقروه بما يصل به إلى بلده .

فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سمرقند لسليمان : إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليقد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا ، فإن كان لنا حق أعطيناه ، فإن بنا إلى ذلك حاجة ، فأذن لهم ، فوجهوا منهم قوما فقدموا على عمر ، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السري : إن أهل سمرقند قد شكوا إلي ظمما أصابهم ، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم ، فإن

قضى لهم فأخرجهم (١) إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة .

قال : فأجلس لهم سليمان جُمَيْعَ بن حاضِر القاضي الناجي ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء ، فيكون صلحا جديدا أو ظفراً عنوة ، فقال أهل السُغْد (٢) : بل نرضى بما كان ولا نجدد حربا ، وتراضوا بذلك ، فقال أهل الرأي : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم ، وأمنونا وأمنّاهم ، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندرى لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا كنا اجتلبنا عداوة في المنازعة ، فتركوا الأمر على ماكان ورضوا ولم ينارعوا (٣) .

فهذا مثل من عدل عمر بن عبد العزيز واهتمامه بأمور الأمة ، وإننا لنلاحظ في هذا الخبر عدة أمور :

أولها : أن الناس يُقبلون على التظلم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكام عادلين ، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجد وسيُنظر فيها بعدل ، فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ما هم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان ، فلما رأوا عدل عمر ابن عبد العزيز رفعوا قضيتهم .

ثانيها : أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم وإنما أحالها إلى القضاء الشرعي ، وهذا مثل من الخضوع للإسلام

(١) يعني المسلمين الغزاة .

(٢) السغد قوم يسكنون بعض بلاد ماوراء النهر .

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٥٦٧ - ٥٦٨ .

والتجرد من هوى النفس ، وكان باستطاعته أن يعمل كما يعمل كثير من المسئولين ، من إرسال خطابات الوعيد والتهديد ، والبحث عن رؤوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم ، ولكنه قد نذر نفسه لرفع المظالم وإقرار العدالة ، وذلك لا يكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه .

ثالثها : أن أولئك القوم قد أسقط في أيديهم لما اطلعوا على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ورأى أهل الرأي منهم أنهم خاسرون في كلا الحالين ، سواء حكم لهم أو عليهم ، وأن مصلحتهم في بقائهم على ما هم عليه ، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامي .

كتابه إلى عمر بن الوليد :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى : وقال سليمان بن داود الخولاني : إن عمر بن عبد العزيز كان يقول : ياليتني قد عملت فيكم بكتاب الله ، وعملت به ، فكلما عملت فيكم بسنة وقع مني عضو ، حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسي .

ولما أقبل عمر على ردّ المظالم وقطع عن بني أمية جوائزهم وأوراق أحراسهم ، ورد ضياعهم إلى الخراج ، وأبطل قطائعهم فأفقرهم ضجّوا من ذلك فاجتمعوا إليه فقالوا : إنك قد أخليت بيت مال المسلمين ، وأفقرت بني أبيك فيما تردّ من هذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك ، فدعهم وما كان منهم ، واشتغل أنت وشأنك واعمل بما رأيت . قال لهم : هذا رأيكم ؟ قالوا : نعم . قال : ولكن لا أرى ذلك ، والله لو ددت أن لا تبقى في الأرض مظلمة إلا رددتها ،

على أن لا أرد مظلمة إلا سقط لها عضوٌ من أعضائي أجد الله ، ثم يعود كما كان حيًّا ، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سألت نفسي عندها . قال : فخرجوا من عنده فدخلوا على بعض ولد الوليد - وكان كبيرهم وشيخهم (١) - فسألوه أن يكتب إلى عمر يوبّخه لعلّه أن يردّه عن مساءتهم فكتب إليه .

أما بعد فإنك أُرريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت بغير سيرتهم وسميتها المظالم تنقصاً لهم ، وعيباً لأعمالهم ، وشنائاً لمن كان بعدهم من أولادهم . ولم يكن ذلك لك ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، وعملت بغير الحق في قرابتك ، وعمدت إلى أموال قریش ومواريتهم وحقوقهم ، فأدخلتها بيت مالك ظلماً وجوراً وعدواناً فاتق الله يابن عبد العزيز وراقبه فإنك قد شططت ، لم تطمئن على منبرك ، حتى خصصت ذوي قرابتك بالقطيعة والظلم ، فوالله الذي خصّ محمداً ﷺ بما خصه به من الكرامة ، لقد ازددت من الله بعداً في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاءٌ عليك وهي كذلك . فاقصد في بعض ميلك وتحاملك . اللهم فاسأل سليمان بن عبد الملك عما صنع بأمة محمد ﷺ حين استخلفك عليهم .

قال فكتب عمر بن عبد العزيز إليه ، من عمر أمير المؤمنين إلى فلان بن الوليد . سلامٌ على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأما بعد فإن أول أمرك يا فلان أن أمك بنانة أمة السكوني كانت تدخل دور حمص وتطوف حوائيتها والله

(١) هو عمر بن الوليد بن عبد الملك كما جاء في رواية ابن الجوري .

أعلم بها فاشتراها دينار بن دينار من فيء المسلمين فأهداها إلى أبيك
فحملت بك فبئس المحمول وبئس الجنين ثم نشأت فكنت جباراً شقيّاً
كتبت إليّ تُظلمني وزعمت أن حرمتك وأهل بيتك في مال المسلمين
الذي فيه حق القرابة والضعيف والمساكين وابن السبيل ، وإنما أنت
كأحد منهم لك مالهم وعليك ماعليهم ، وإن أظلم مني وأترك لعهد
الله الذي استعملك صبيّاً سفيهاً تحكم في دماء المسلمين وأموالهم
برأيك لم تحضره نية ، ولم يكن يحمله عليه إلا حب الولد ولم يكن
ذلك له ، ولاحق له فيه ، فويلك وويل أبيك ما أكثر طلابكما
وخصماءكما يوم القيامة ! وكيف النجاة لمن كثر خصماؤه ؟ وإن أظلم
مني وأترك لعهد الله من جعل لفلانة البربرية سهماً في فيء المسلمين
وصدقاتهم . أهاجرت ثكلتك أمك أم بايعت بيعة الرضوان فتستوجب
سهام المقاتلين ؟ وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرّة بن
شريك أعرابياً جلفاً جافياً على مصر ، وأذن له في المعارف والبرابط
والخمر ، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من وليّ يزيد بن أبي مسلم
على جميع المغرب يجبي المال الحرام ويسفك الدم الحرام . رويدك فإنه
لو قد التقت علينا حلقتا البطان ، وطالت بي حياة ، ورد الله الحق إلى
أهله تفرغت لك ولأهل بيتك ، فأقمتمكم على المحجة البيضاء فطال
ما أخذتم بنيات الطريق ، وتركتم الحق وراءكم ، ومما وراء هذا ما أرجو
أن يكون خير رأي أبته بيع رقبتك فإن لكل مسلم فيك سهماً في كتاب
الله ، والسلام على من اتبع الهدى ، ولا ينال سلام الله الظالمين (١) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٤٧ - ١٥١ ، وانظر سيرة عمر بن

عبد العزيز لابن الجوري / ٩٣ .

في هذا الخبر مثل من قوة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في تنفيذ الحق، وأنه لا يخشى في الله لومة لائم .

وفيه مقارنة واضحة بين أعماله التي أنجزها في العدل وإنصاف عامة المسلمين من كبرائهم ، وبين أعمال بعض من سبقه من الولاة في ظلم العامة ومداهنة الكبراء .

وفيه مثل من تدني مستوى الفهم وعمى البصيرة عند من استمر الجبروت والطغيان ، حيث قلب ابن الوليد الحقائق، فجعل العدل ظلماً واعتبر الظلم عدلاً ، لأن العدل في نظره أن يأخذ هو وأمثاله حريتهم الكاملة في التصرف بأموال العامة ، واعتبر تطبيق العدالة عليهم نوعاً من قطيعة الرحم ، ولو أدرك وعقل لعرف أن أعظم صلة الرحم أن يمنع الإنسان أقاربه من المعاصي ، وأن يدلهم على طاعة الله تعالى .

وهذا الخلط في المفاهيم والموازن ناتج من غلبة النظر إلى الدنيا على النظر إلى الآخرة ، وحينما تكون الآخرة حاکمة على الدنيا يصفو الفكر ويستقيم السلوك .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز شديداً في رده على هذا الرجل لأنه في نظر عمر قد بلغ من الجفاء والتجبر حداً لا يجدي معه خطاب العقل ونداء الحس الإيماني .

جوابه لعنسة حينما سأله :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : قال عمر بن عبد العزيز لعنسة بن سعيد - وسأله حاجة - يا عنسة إن كان مالك الذي أصبح

عندك حلالاً فهو كافيك ، وإن كان حراماً فلا تزيدنَّ إليه حراماً ، ألا تخبرني أمحتاج أنت ؟ قال : لا ، قال : أفعليك دين ؟ قال : لا ، قال : أتأمرني أن أعمدَ إلى مال الله فأعطيكَهُ من غير حاجة بك إليه وأدعَ فقراء المسلمين ؟ لو كنت غارماً أديت غُرمك ، أو محتاجاً أمرت لك بما يصلحك ، فعليك بمالك الذي عندك فكله واثق الله ، وانظر أولاً من أين جمعته ، وانظر لنفسك قبل أن ينظر إليك من ليس لك عنده هَواةٌ ولا مراجعة (١) .

في هذا الحوار الذي جرى بين أمير المؤمنين عمر بن العزيز وعنبسة بن سعيد يتبين لنا دقة عمر في التحري في اكتساب المال ، بحيث لا يكون من طريق حرام أو مشتبهِ فيه .

كما يظهر لنا مثل من عدالته في توزيع المال العام ، حيث بين أن عنبسة ليس بأحق بهذا المال من فقراء المسلمين .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة وضح فيها عمر حرمة مال المسلمين العام ، وأن الأخذ منه بغير حق كالأخذ من أموال الناس الخاصة ، وقد كان كثير من الناس يعتقدون بأن ولاية الأمر لهم حرية التصرف بأموال المسلمين كما يؤدي إليه نظرهم ، وأن ذلك المال يصير حلالاً لمن أعطي له بمجرد صرفه من ولي الأمر ، فبين لهم عمر بأقوال وأفعال كثيرة أن هذا المال لايجوز صرفه إلا لمستحقه ، وأنه إذا صُرف في غير وجهه فإنه يجب على من صُرف له أن يردّه لبيت مال المسلمين .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٤ - ١٥٥ .

مثالان من حكيمته وحزمه :

لما ولي الخلافة قال له ابنه عبد الملك : إني لأراك يابئناه قد أخرت أموراً كثيرة كنت أحسبك لو وليت ساعة من النهار عجلتها ، ولوددت أنك قد فعلت ذلك ولو فارت بي وبك القدور ، قال له عمر : أي بني إنك على حُسْنِ قَسْمِ الله لك ، وفيك بعض رأي أهل الحداثة ، والله ما استطيع أن أخرج لهم شيئاً من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا ، أستلين به قلوبهم ، خوفاً أن ينخرق عليّ منهم مالا طاقة لي به (١) .

وهكذا لم يأخذ عمر برأي ابنه عبد الملك الذي لا يزال حديث السن لا يقدر عواقب الأمور ، بالرغم من كون رأيه حق ، ولكن ليس كل حق ينفذ حال معرفة أنه حق من غير نظر في عواقب التغيير ، فربما أدى ذلك في بعض الصور إلى منكر أكبر من المنكر الذي يروم إزالته المصلحون ، ولكن يبقى في ذهن المصلح وفي عزمه إزالة جميع المنكرات ، وإنما يسلك في سبيل ذلك طريق الحكمة ، ولذلك كان عمر يستلين قلوب أهل الدنيا بشيء من المال ليتوصل بذلك إلى ما يريده من الإصلاح حتى لا ينخرق عليه من أمورهم ما لا يستطيع مقاومته إلا بالقوة ، وهو لا يريد إراقة الدماء ، لأن شأن الأموال أهون بكثير من شأن الدماء .

ولكن حينما يكون لا بد من القوة فإن من الحزم استعمالها ، ومن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوري / ٤٣ ، ٨٧ .

أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم قال : وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له « رُوح » وكان نشأ في البادية فكأنه أعرابي ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز يخاصمون رُوحًا في حوانيت بحمص وكانت لهم أقطعة إياها أبوه الوليد بن عبد الملك ، فقال له عمر : اردد عليهم حوانيتهم ، قال له روح : هذا معي بسجل الوليد ، قال : وما يغني عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البينة عليها ؟ خلّ لهم حوانيتهم ، فقام روح والحمصي منصرفين ، فتوعد روح الحمصي ، فرجع الحمصي إلى عمر فقال : هو والله متوعدني يا أمير المؤمنين ، فقال عمر لكعب بن حامد - وهو على حرسه - : اخرج إلى روح ياكعب فإن سلّم إليه حوانيته فذلك ، وإن لم يفعل فأت برأسه ، فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذي أمر عمر فخلع فؤاده ، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرًا فقال له : قم فخلّ له حوانيته ، قال نعم نعم ، فخلّي له حوانيته (١) .

وهكذا ظهر حزم عمر حينما استهان روح بن الوليد بحكم الشرع وأمر السلطان ، فكان لابد من تهديده بالقوة ليدعن لحكم الحق ، وهذا المثل يدلنا على أن استسلام الجبابرة لأوامره وسكوتهم على سياسته لم يكن عن قناعة ، وإنما كان خوفا من سلطانه .

إنصافه رجلا من عدي بن أرطاة :

رُوي عن ابن عنياش قال : خرج عمر ذات يوم من منزله على

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٠ .

بغلة له شهباء ، وعليه قميص له وملاءة ممشقه ، إذ جاء رجل على راحلة له فأناخها ، فسأل عن عمر ، فقيل له : خرج علينا وهو راجع الآن ، قال : فأقبل عمر ومعه رجل يسايره ، فقيل للرجل : هذا عمر أمير المؤمنين ، فقام إليه فشكى إليه عدي بن أرطاة في أرض له (١) ، فقال عمر : أما والله ماغرنا منه إلا بعمامته السوداء ، أما إني قد كتبت إليه - فضل عن وصيتي - : إنه من أتاك ببينة على حق هو له فسلّمه إليه ، ثم قد عنّاك إلي ، فأمر عمر برد أرضه إليه ، ثم قال له : كم أنفقت في مجيئك إلي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت علي أرضي وهي خير من مائة ألف ! قال عمر : إنما رددت عليك حقك ، فأخبرني كم أنفقت ؟ قال : ما أدري ، قال : احزره ، قال ستين درهما ، فأمر له بها من بيت المال ، فلما ولّى صاح به عمر ، فرجع فقال له : خذ هذه خمسة دراهم من مالي فكل بها لحما حتى ترجع إلى أهلك إن شاء الله (٢) .

فهذا مثل على اهتمام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز برد الحقوق إلى أهلها ، وهو من أمثلة كثيرة ، مر علينا بعضها ، ولكن الذي يلفت النظر في هذا الخبر هو ما قام به عمر من تعويض ذلك الرجل عما أنفقه في سفره ، حيث إنه كان من حقه أن يُقضى له في بلده من غير سفر .

وفي هذا لفت نظر إلى أمر مهم وهو أن من حق كل إنسان أن

(١) وكان عاملا لعمر على الكوفة .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٤٦

يأخذ حقه دون أن يكلف بالإنفاق من ماله في سبيل ذلك .

وهذا التعويض من فقه عمر حيث رأى أن إلقاء ذلك الرجل إلى السفر من أجل رفع قضيته يعتبر من تقصير المسئول في بلده ، وليس من تقصير ذلك الرجل ، ولذلك فإنه ليس من العدل أن يُحمّل تلك التكاليف .

خبره مع فرتونة مولاة ذي أصبح :

ومن الأمثلة الجيدة على شعور أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بالمسئولية واهتمامه بأمور الأمة دقيقتها وجليلها ما جاء في سياق الروايات التي رواها ابن عبد الحكم عن شيوخه قال : وكان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحد من الناس إذا خرج كتابا إلا حملة ، فخرج بريد من مصر فدفعته إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابا تذكر فيه أن لها حائطا قصيرا ، وأنه يُقتحم عليها فيُسرَق دجاجها فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح ، بلغني كتابك وما ذكرت من قصر حائطك وأنه يُدخل عليك فيه فيُسرَق دجاجك ، فقد كتبت كتابا إلى أيوب بن شرحبيل - وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها - أمره أن يني لك ذلك حتى يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله ، والسلام .

وكتب إلى أيوب بن شرحبيل « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل ، أما بعد : فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قصر حائطها ، وأنه يُسرَق منه دجاجها ، وتسال تحصينه لها ، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها .

فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها ، وإذا هي سوداء مسكينة ، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصنه لها (١) .

فهذا الكتاب الذي رُفِع من تلك المرأة المسكينة المغمورة ، إنما هو أثر من آثار العدل الذي شمل البلاد الإسلامية في عهد عمر بن عبدالعزيز ، فما كانت هذه المرأة المسكينة لترفع حاجتها إلى أمير المؤمنين لو كانت تتوقع أن كتابها سيكون طي الإهمال والنسيان ، ولكن لما استقر في ضميرها أن أمير المؤمنين يهتم بكل أمر من أمور الرعية كبيرها وصغيرها ، وأن كبار الأمور لا تشغله عن صغارها وجدت من نفسها نشاطا وهمة في الكتابة إليه بأمرها .

وما أن وصل كتابها حتى كتب أمير المؤمنين في جواب ذلك كتابا إليها يخبرها بما أمر به الوالي في مصر من قضاء حاجتها ، وكتاباً إلى ذلك الوالي ليذهب بنفسه لقضاء حاجتها .

إنه لم يكتف بكتابه للوالي لخوفه من أن يتأخر في ذلك أو يعتريه النسيان ، بل كتب كتاباً آخر لصاحبة الحاجة لتراجع الوالي فيما إذا لم يسارع إلى قضاء حاجتها .

إن هذا الاهتمام من أمير المؤمنين يعتبر مثلاً عالياً في الشعور بالمسئولية ، ويعتبر مصداقاً للرؤيا التي رآها فيه جده أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، من أنه يسير بسيرته ، فإن من صفات عمر بن الخطاب أنه كان في منتهى العدل والشعور بالمسئولية ، وأنه لم تكن كبار الأمور تشغله عن صغارها .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٦ .

إنصافه رجلا اشتكى من أحد أقاربه :

قال ابن عبد الحكم رحمه الله تعالى : وأتاه رجل فقال : يا أمير المؤمنين مَظْلَمَةٌ دخلتُ عليَّ ، قال عمر : ومن يك ؟ قال : فلا والله ما استطاع أن يقول : فلان ، لبعض أهله ، مرتين أو ثلاثا ، فقال : فلان بن فلان عمد إلى مال لي بكذا وكذا فأخذه فقال : يا غلام ائمني بدواة وقرطاس فكتب إلى عامله : إن فلانا ذكر لي كذا وكذا فإن كان الذي ذكر لي على ما ذكر فلا تراجعني فيه وارده عليه ، ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال : إن هذا لهو البلاء المبين (١) .

فهذا مثل من حزمه رحمه الله في تطبيق العدالة حتى مع أقاربه حيث أمر عامله بأن يرد الحق على صاحبه وإن كان المدعى عليه من أقاربه .

وفي هذا الخبر مثل من الذل الذي تتربى عليه النفوس في حال تسلط الجبروت والطغيان ، حيث تلعثم صاحب الحق في رفع قضيته مع أنه أمام حاكم عادل ، ولكن الخلفيات السابقة لحكم الظلم والتسلط جعلته يتردد ويتتعتع ، ولو لم يكن على رأس الحكم حاكم عادل لما فكر أساساً في رفع قضيته لأنه - والحال هذه - يخشى أن يناله أذى فيما إذا رفع قضيته ضد أحد أقارب الحاكم .

تسويته بين الناس في مجلس الحكم :

ذكر الحافظ ابن الجوري من خبر الحكم بن عمر الرعيني قال : شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٣ .

عبد العزيز بالناعورة ، فقال عمر لمسلمة : لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي ، ولكن وكل بخصومتك من شئت وإلا فجات القوم بين يدي ، فوكل مولى له بخصومته فقضى عليه بالناعورة (١) .

فهذا موقف جليل من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في إقرار قواعد العدل في مجالس الحكم ، وقد كان أحد الخصمين ابن عمه القائد الكبير مسلمة بن عبد الملك ، ومع رفعة منزلته وكونه ممن يحبهم عمر بن عبد العزيز ويقدرهم كثيرا فإنه لم يحابه في الحكم ، بل ألزمه بأن يسوي نفسه مع خصومه ثم حكم عليه لصالح خصومه .

أمره بوضع الضرائب :

ومن أمثلة عدله ما جاء في كتابه الذي بعثه إلى عروة بن محمد عامله على اليمن وجاء فيه : أما بعد فقد جاء كتابك تذكر أن من كان قبلك من العمال قد وضعوا على أهل اليمن صدقاتهم وظائف ، إن افتقروا لم يُنقصوا ، وإن استغنوا زيدَ عليهم ، وتؤامرنني في ذلك ، ولعمري إن هذا للَجور حق الجور ، فإذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم من الحق ، ثم اقسم ذلك على فقرائهم ، وأقعد على طريق الحاج قوما ترضاهم ، وترضى دينهم وأماناتهم يقوون الضعيف ، ويغنون الفقير ، فوالله لو لم يأتني من قبلك إلا كف لرأيته من الله قسما عظيما والسلام (٢) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥٩ ، والناعورة موضع بين حلب وبالس فيه

قصر لمسلمة بن عبد الملك ، بينه وبين حلب ثمانية أميال .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٥ .

ففي هذا الكتاب دلالة على أن بعض الولاة السابقين قد حولوا الزكاة إلى ضريبة تؤخذ من المسلمين بقدر محدد، يثبت على حاله عند فقرهم ، ويزيد عند غناهم ، وفي هذا مخالفة واضحة لشرعية الإسلام ، حيث إن الزكاة لها مقادير وأحكام حُدِّثت في الشريعة، ورُوعي فيها حال دافعها من الفقر والغنى ، كما روعي فيها أنها ليست ضريبة تُجبى لتدخل في مال المسلمين العام ، وإنما تؤخذ من أغنياء كل بلد لتُدفع إلى فقرائهم ، كما جاء في حديث معاذ لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، وفيه « فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةَ فِي أَمْوَالِهِمْ تَأْخُذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ » (١) .

ولهذه المخالفات التي ذكرها والي اليمن نجد أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يغضب من ذلك الوضع ، ويصفه بأنه الجور حق الجور، ثم يوجه ذلك العامل إلى أن يأخذ من الناس الحق الشرعي في زكاة أموالهم ، وأن يردّها على فقرائهم .

كما يأمره فوق ذلك بأن يجعل على طريق الحجاج رجالاً أمناء يقومون بخدمة الحجاج ، وتموينهم بما يكفي ضعفاءهم ومحتاجيهم .

وبهذا صار عطاء دولته لأمته أكثر من جبايته، فسعدت الأمة به، وزال الفقر عن فقرائها في مدة وجيزة ، وفاض المال عند الولاة حتى أصبحوا يستشيرون أمير المؤمنين في صرف هذا المال الفائض .

ومن أمثلة ذلك ماكتب به عمر بن عبد العزيز إلى زيد بن عبدالرحمن بن عمر بن الخطاب - وكان على الكوفة - يقول: كتبت

(١) صحيح البخاري ، الزكاة ، رقم ١٣٩٥ (٣/ ٢٦١) .

تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند ، فأعط منهم من كان عليه دين في غير فساد ، أو تزوج فلم يقدر على نقد . والسلام .
ثم كتب إليه زيد : إنه قد بقي عندنا بعد ذلك ، فكتب إليه عمر : أن قوَّ أهل الذمة ، فإننا لانريدهم لسنة ولالستين (١) .

وفي هذا الخبر نظرة رحمة ومواساة لصنفين من الناس في غاية الحاجة والاضطرار ، وهما المدينون ، فما أشد احتياجهم ، وما أبلغ همهم ! والذين عزموا على الزواج وليس لديهم مايكفي لتكاليفه ، فما أعظم فرحتهم ، وما أبلغ سعادتهم حينما يُقدَّم لهم مايسد حاجتهم !
وأخيراً لفئة مهمة من أمير المؤمنين عمر حينما أوصى عامله بالاهتمام بتقوية أهل الذمة وإصلاح بلادهم ، فإنهم يعتبرون مصدراً مهماً من مصادر بيت مال المسلمين ، فوصيته هذه نظرة مستقبلية جيدة لتقوية هذا المصدر .

فلله در أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ماأسمى تفكيره ، وما أبعد نظره !!

مكافأته من رفع إليه مظلمة :

نجد من كمال عدل عمر رحمه الله أنه لم يكتف بردِّ المظالم التي يعلمها بل تقدم إلى المسلمين وأعلن لهم في المواسم ليرفعوا إليه ما علموا من ذلك وأعطى الجوائز لمن تقدم بشيء من ذلك كما جاء في رواية لابن عبد الحكم قال : وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المواسم : أما بعد فأما رجل قدم علينا في رد مظلمة أو أمر يصلح الله

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٨ .

به خاصا أو عاما من أمر الدين فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار،
بقدر ما يرى من الحسبة وبعد الشقة ، رحم الله امرءاً لم يتكأدّه بُعدُ
سفر ، لعل الله يُحيى به حقاً ، أو يميت به باطلاً ، أو يفتح به من
ورائه خيراً ، ولولا أن أطيل عليكم وأطنب فيشغلکم ذلك عن
مناسککم لسمتُ أموراً من الحق أظهرها الله ، وأموراً من الباطل أماتها
الله ، وكان الله هو المتوحد لكم في ذلك ، لاتجدون غيره ، فإنه لو
وكلني إلى نفسي لكنت كغيري . والسلام (١) .

فهذا مثل على شدة اهتمام عمر رحمه الله بإقامة العدل ورد
المظالم ، وهذا القرار الذي أصدره عمر قلّ أن يوجد له نظير في
التاريخ ، فقد توقع أنه لاتزال توجد بعض المظالم ، وأن العارفين بها
يشق عليهم إبلاغها لما يترتب على ذلك من تكاليف مالية فأعطى
مكافأة لكل من يسعى في رد مظلمة أو نصح للأمة .

ثم لفتة إلى التوحيد في نهاية هذا الكتاب ، حيث ذكّر عمر
المسلمين بأن ما حصل من الإصلاح على يديه ، والنعمة التي سعدت
بها الأمة إنما هي من الله تعالى ، ومن فضله وكرمه ، وأنه لو وكله إلى
نفسه لم يستطع القيام بذلك .

اهتمامه بفداء الأسرى والقضاء عن الغارمين :

من ذلك أنه كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية : أما بعد : فإنكم
تعدّون أنفسكم أسارى ، معاذ الله بل أنتم الحبساء في سبيل الله ،
واعلموا أنني لست أقسم شيئاً بين رعتي إلا خصصت أهليكم بأوفر

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٣٧ .

نصيب وأطيه ، وإنني قد بعثت إليكم خمسة دنانير خمسة دنانير ،
ولولا أنني خشيت إن ردتكم أن يجسه طاغية الروم عنكم لزدتكم ،
وقد بعثت إليكم فلان ابن فلان يفادي صغيركم وكبيركم ، ذكركم
وأثناكم ، حرّكم ومملوككم بما سئل به ، فأبشروا ثم أبشروا . والسلام
عليكم .

وكتب أيضاً إلى عماله : أن اقضوا عن الغارمين ، فكتب إليه :
إننا نجد الرجل له المسكن والخادم ، وله الفرس ، وله الأثاث في بيته ،
فكتب عمر : لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي رأسه ، وخادم
يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ، ومع ذلك
فهو غارم فاقضوا عنه ما عليه من الدين (١) .

ففي الكتاب الأول يواسي عمر بن عبد العزيز أسرى المسلمين
لدى الروم ، حيث شبههم بالمرابطين الذين حبسوا أنفسهم في سبيل
الله تعالى ، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين .

وإلى جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذي
أمدهم به ، وبما أخبرهم به من كفالة أسرهم في حال غيبتهم ، كما أنه
وعدهم جميعاً بمفاداتهم لفك أسرهم .

وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم
لحماية الإسلام ونصره .

وفي الخبر الثاني يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن
الغارمين وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس ، وهو

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٣ - ١٦٤ .

مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة ، والاهتمام بشئون الرعية .
وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بأموال الأمة ، حيث يُغنون به
فقيرها ، ويجبرون به كسيرها ، ويفكُّون به أسيرها ، ويقضون به عن
معسرها ، ويسدُّون به خلَّة معوزها .

خبره مع الأسير الأعمى :

ومن الأمثلة الرائعة لرحمة عمر بن عبد العزيز رحمه الله
ما أخرجه ابن عبد الحكم قال : وأرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب
الروم رسولا ، فأتاه وخرج من عنده يدور ، فمر بموضع فسمع فيه
رجلا يقرأ القرآن ويطحن ، فأتاه فسلم عليه فلم يرد عليه السلام -
مرتين أو ثلاثا - ثم سلم عليه ، فقال له : وأنتى بالسلام في هذا
البلد ! فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم ، فقال له :
ما شأنك ؟ فقال : إني أسرت من موضع كذا وكذا ، فأُتي بي إلى
صاحب الروم ، فعرض عليَّ النصرانية فأبيت ، فقال لي : إن لم
تفعل سمكتُ عينيك ، فاخترت ديني على بصري ، فسمكتُ عيني
وصيرني إلى هذا الموضع ، يرسل إلي كل يوم بحنطة أطحنها ويخبزة
أكلها .

فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل قال :
فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بَلَّتْ ما بين يديه .

ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم : أما بعد فقد بلغني خبر فلان
ابن فلان فوصف له صفته ، وأنا أقسم بالله لئن لم ترسله إلي لأبعثن
إليك من الجنود جنودا يكون أولها عندك وآخرها عندي .

فلما رجع إليه الرسول قال : ماأسرع مارجعت ! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز ، فلما قرأه قال : ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا ، بل نبعث إليه به .

قال : فأقمت انتظر متى يخرج به ، فأتيته ذات يوم فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف في وجهه الكآبة ، فقال : تدري لما فعلت هذا؟ فقلت : لا - وقد أنكرت مارأيت - فقال : إنه قد أتانى من بعض أطرافى أن الرجل الصالح قد مات ، فلذلك فعلت ما فعلت ، ثم قال : إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء لم يترك بينهم إلا قليلا حتى يخرج من بين أظهرهم .

فقلت له : أأذن لي أن أنصرف - وأيست من بعثه الرجل معي - فقال : ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته ، فأرسل معه الرجل (١) .

هذا وإن في هذا الخبر ثلاثة أمور مهمة :

أ - موقف هذا الرجل المسلم الذي فضّل البقاء على دينه ، وتحمل سمل عينيه بالحديد المحمي بالنار حتى فقد بصره ، وهنا يقف المتأمل مندهشا من هذا المشهد المثير ، الذي يدل على قوة الإيمان بالإسلام والقناعة به ، حيث فضل هذا الرجل دينه على صحته وحياته ، لأنه يعتبر هذا الدين هو حياته الحقيقية ، ويعتبر أن مفارقة الإسلام موت لايدانيه موت .

ولاشك أنه كان لهذا الموقف العالي وأمثاله الأثر البالغ في الدعوة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٨ .

إلى الإسلام، لأن العقل السليم يدل على أن المبدأ الذي يفضلُه صاحبه على حياته لا يمكن أن يكون عاديا كمبادئ البشر المعروفة، لأن المبادئ تُستخدم عادة لرفع قيمة الإنسان في هذه الحياة، فلا يمكن أن يضحي الإنسان بحياته من أجلها، وهو إنما يستخدمها للحياة، فلا بد أن المبدأ الذي يبذل صاحبه حياته من أجله وراءه دافع أقوى من مستقبل هذه الحياة، ولا يمكن أن يوجد ذلك إلا في الإسلام الذي كرم الله تعالى فيه الشهداء والذين أودوا في سبيل هذا الدين، ورفعهم درجات عليا في الجنة .

هذا الرجل المسلم المغمور الذي لم يذكر اسمه مثل هذا الموقف الكبير! فكم في هذه الأمة الإسلامية من المغمورين الذين يزن إيمانهم الجبال الراسيات !

وإذا كان هذا في المغمورين فكيف الحال بالمشاهير الذين لمعت أسماؤهم في مجال التضحية والفداء ١٩

ب - وفي هذا الخبر مثل من رحمة عمر بن عبد العزيز البالغة وإشفاقه على المسلمين حيث بكى ذلك البكاء الشديد من خبر ذلك الأسير .

ومثل من اهتمامه العظيم بأمور المسلمين حيث كتب إلى ملك الروم يهدده ذلك التهديد القوي إن لم يُفرج عن ذلك الأسير .

ج - كما أن في هذا الخبر بياناً لأثر العدل في الحكم حتى على الأعداء المحاربين، فحينما جاء كتاب عمر الذي بلغ حداً عالياً في التهديد لملك الروم ما كان من هذا الملك إلا أن قال : ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا .

وحينما بلغه موت عمر تأثر بذلك وظهرت الكآبة على وجهه، وذلك لأنه حتى الأعداء ينعمون بعدل الأمراء من أعدائهم، لأنهم يأمنون خيانتهم وظلمهم لهم ولأتباع دينهم الذين يعيشون في بلاد هؤلاء الأمراء .

وقد بلغ بملك الروم التأثر بعدل عمر إلى حد أنه وفى بما وعد به حتى بعد موته وقال : ما كنا لننجيه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته .

اهتمامه بأمور الرعية :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : وخرج عمر بن عبد العزيز يوماً في ولايته الخلافة بالشام فركب هو ومزاحم - وكان كثيراً ما يركب فيلقى الركبان يتجسس الأخبار عن القرى - فلقىهما راكباً من أهل المدينة ، وسألاه عن الناس وماوراءه وهو الأمر الذي خرجا من أجله . فقال لهما : إن شئتما جمعت لكما خبري، وإن شئتما بعضته تبعيضاً . فقالا : بل اجمعه فقال : إني تركت المدينة و الظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور، والغني موفور ، والعائل مجبور . فسرى بذلك عمر وقال ، والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس (١) .

مثل من اختياره الولاية :

قال الإمام أبو جعفر الطبري : ثم إن عمر لما أراد استعمال عاملٍ على خراسان . قال فيما ذكر عليّ بن محمد بن خارجة بن مصعب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣١ .

الضبيّ وعبد الله بن المبارك وغيرهما: ابغوني رجلاً صدوقاً أسأله عن خراسان، فقل له : أبو مجلز لاحق بن حميد . فكتب فيه ، فقدم عليه - وكان رجلاً لاتأخذه العين^(١) فدخل أبو مجلز على عمر في جفة الناس ^(٢) ، فلم يُثبتهُ ^(٣) عمر ، وخرج مع الناس فسأل عنه فقل : دخل مع الناس ثم خرج ، فدعا به عمر فقال : ياأبا مجلز ، لم أعرفك ، قال : فهلا أنكرتني إذ لم تعرفني ! قال : أخبرني عن عبد الرحمن بن عبد الله ، قال : يكافئ الأكفاء ، ويعادي الأعداء ، وهو أمير يفعل مايشاء ، ويُقدم إن وجد من يساعده . قال : عبد الرحمن بن نعيم ، قال : ضعيف لئِنْ يحب العافية ، وتأتي له ، قال : الذي يحب العافية وتأتي له أحب إلي ، فولاه الصلّاة والحرب ، وولّى عبد الرحمن القشيري ، ثم أحد بني الأعور بن قشير الخراج ، وكتب إلى أهل خراسان : إني استعملتُ عبد الرحمن على حربكم وعبد الرحمن بن عبد الله على خراجكم عن غير معرفة مني بهما ولا اختيار ، إلا ماأخبرتُ عنهما ، فإن كانا على ماتحبون فاحمدوا الله ، وإن كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال عليّ : وحدثنا أبو السريّ الأرديّ ، عن إبراهيم الصائغ ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم :
أما بعدُ ، فكن عبدًا ناصحًا لله في عباده ، ولا يأخذك في الله

(١) يعني أن جسمه لايلفت النظر .

(٢) جفة الناس : جماعتهم .

(٣) لم يُثبتهُ : لم يعرفه حق المعرفة .

لومة لائم، فإنّ الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، فلا تولّين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استُرعي، وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحق، فإن الله لا تخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهباً، فإنه لاملجأ من الله إلا إليه (١) .

مثل من احتياطه في اختيار الولاية :

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر الملاء : أن بلال بن أبي بردة دخل على عمر بن عبد العزيز وعليه قميص قد شمره فوق كعبيه وعليه عمامة له حزقانية قد سدّكها بين كتفيه وقد أثر السجود في وجهه . قال : فاستنطقه عمر فوجده رجلاً سديد العقل . فقال له : قم يا بلال ارجع إلى منزلك . ثم دعا عمر بن عبد العزيز مزاحماً فقال : يا مزاحم ! اختبر لي هذا الرجل - يعني بلالاً - فليس لي غناء عنه إن كان له ورع . فلما خرج مزاحم أرسل إلى بلال فجاء فقال له مزاحم : يا بلال . قال : ماتشاء أصلحك الله . فقال مزاحم : أنا والله أحب الخير لنفسى فماذا لي إن رميت بك على أحد العراقيين؟ فقال : إذا كان ذلك فلك علي ثلاثون ألفاً ، والله أنقذك إياها الساعة، وأربعون ألفاً إذا قدمت البلد . ثم قال : الأمر أمرك لا يخالف ولا يعصى . فقال مزاحم : ارجع إلى منزلك . قال : وخرج مزاحم حتى دخل على أمير المؤمنين عمر وقال له : عدو الله لص . وأخبره الخبر . فقال عمر : والله إن كاد ليغرني بسجدة وعمامته . والله

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٦١ - ٥٦٢ .

لايمسين في عسكري . انخسوا به . ثم كتب : من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة سلام عليك . أما بعد ، فأياك وبلا لا بلال السوء ، وعيينة بن أسماء ، وحوشب بن يزيد ، فإنهم من بقايا السوء فلا تستعين بهم على شيء من عملك والسلام عليك (١) .

ففي هذا الخبر ظهر لنا تطبيق أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لعلمه ، حيث كان يعلم أن الشرطين الأساسيين للولاية هما اتصاف الوالي بالكفاءة والأمانة ، وقد عرف اتصاف هذا الرجل بالكفاءة من منطقته ومجالسته إياه ، ثم كلف مولاه مزاحما باختباره لمعرفة أمانته ، لكنه لم ينجح في الاختبار فكان ماكان من استبعاده والتحذير منه .

وهذا الاهتمام الشديد من عمر بن عبد العزيز يدل على حرصه الكبير في التحري في اختيار الولاة ، لأن ذلك يضمن له بنسبة كبيرة أن تسير الأمور في البلاد الإسلامية على مايريد من العدل والإصلاح .
حرصه على تولية الأكفاء :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الإمام الأوزاعي قال : أراد عمر بن عبد العزيز أن يستعمل رجلا على عمل فأبى ، فقال له عمر : عزمت عليك لتفعلن ، فقال الرجل وأنا أعزم على نفسي أن لا أفعل ، فقال عمر أتعصيني ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٤٦ ، وأخرجه ابن سعد مختصرا / ٣٩٥ .

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿﴾
[الأحزاب: ٧٢] . أفعصية كان ذلك منهن ؟ فأعفاه عمر (١) .

مثل من نباهة عمر وفطنته :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : وولى عمر بن عبدالعزيز الوليد بن هشام المعيطي على جند قنسرين - والفُراتُ بن مسلم على خراجها - فتباغيا ، حتى بلغ الأمر بالوليد أن هياً أربعة نفر من كهول قنسرين يشهدون على فرات أنه يدع الصلاة ، ويُفطر شهر رمضان مقيماً صحيحاً ، ولا يغتسل من الجنابة ، ويأتي أهله وهي طامث . فقدموا على عمر بن عبد العزيز فشهدوا بهذه الشهادة ، وهم مختضبون بالحناء ، فقال عمر هذا رمقتموه في صلاته فلم يُصلِّها ، إما تركها متعمداً وإما ساهياً ، ورأيتموه يفطر في ظهر رمضان ولا ترون به سقماً ، ما علمكم أنه لا يغتسل من الجنابة وغشيانه أهله ؟ والله ما هذا مما يشتم به ولا سيما فرات في مثل عفافه وأمانته ، يا غلام انطلق بهؤلاء المشيخة السوء إلى صاحب الشرط ، فمره فليضرب كل واحد منهم عشرين سوطاً على مفرق رأسه ، وليرفق في ضربه لمكان أسنانهم ، وبحسبهم من الفضيحة ما هم صائرون إليه ، إن لم يتغمد الله ما كان منهم بعفوه ، ثم استوثق منهم بالكفلاء حتى يكون فرات هو الآخذ بحقه منهم ، أو العافي عنهم ، والعفو أقرب للتقوى وأقرب إلى الله عز وجل . ثم أصلح بين الوليد وفرات .

قال : ولما قدم قابل ، وقدم الوليد و معه رؤوس أنباط قنسرين

(١) حلية الاولياء ٣١٢/٥ .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الفرات أن اقدم فقدم، وإنه لقاعد خلف
سرير عمر إذ دخل الأنباط، فقال لهم عمر : ماذا أعددتُم لأمرِكُم في
نزله لمسيره إليَّ قالوا: وهل قدم ياأمير المؤمنين ؟ قال : ما علمتُم به؟
قالوا : لا والله ياأمير المؤمنين ، فأقبل عمر بوجهه على الوليد فقال :
ياوليد إن رجلاً ملك قنَّسرين وأرضها خرج يسير في سلطانه وأرضه ،
حتى انتهى إليَّ لا يعلم به أحد، ولا ينفر أحداً ولا يروعه ، لخليق أن
يكون متواضعاً عفيفاً ، قال الوليد: أجل والله ياأمير المؤمنين إنه
لعفيف وإني له لظالم ، وأستغفر الله وأتوب إليه . فقال عمر :
ما أحسن الاعتراف ، وأبين فضله على الإصرار، وردَّهما عمر على
عملهما فكتب إليه الوليد - وكان مرثياً - خديعة منه لعمر، وتزييناً بما
هو ليس عليه : إني قدَّرت نفقتي لشهر فوجدتها كذا وكذا درهماً،
ورزقي يزيد على ما احتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحطَّ فضل
ذلك ، فقال عمر : أراد الوليد أن يتزيَّن عندنا بما لاأظنه عليه، ولو
كنت عازلاً أحداً على ظنِّ لعزلته، ثم أمر بحطِّ رزقه إلى الذي سأله،
ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولي عهده، إن الوليد بن
هشام كتب إليَّ كتاباً أكثر ظني أنه تزيين بما ليس هو عليه، ولو
أمضيت شيئاً على ظني ما عمل لي أبداً ، ولكني آخذ بالظاهر وعند
الله علم الغيوب، فأنا أقسم عليك إن حدث بي حادث وأفضى هذا
الأمر إليك، فسألك أن تردَّ إليه رزقه، وذكر أنني نقصته فلا يظفر منك
بهذا أبداً فإنما خادع به الله والله خادعه ، فلما مات عمر، واستُخلف
يزيد كتب إليه الوليد : إن عمر نقصني وظلمني، فغضب يزيد وبعث

إليه فعزله وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها، فلم يل له عملاً حتى هلك (١).

في هذا الخبر مثل من الحسد المذموم وما يترتب عليه من الكيد للزملاء في العمل ، وهذا ينتج عادة من تضخم شرف الدنيا في النفس وتضاؤل شرف الآخرة فيها، فيعمل الحاسد على تقويض مركز من ينافسونه على شرف الدنيا، ويرتكب من أجل ذلك موبقات منها الكذب والتزوير ، ولو أن هذا الحاسد استعمل عقله السليم فأعطى الدنيا حجمها الملائم لها لتواضع بدلاً من أن يتكبر، ولأراح عقله من التفكير الطويل في ملاحقة شرف الدنيا والكيد للمنافسين ، ولعَفَّ لسانه عن قول الكذب والزور، ولعاش قرير العين سعيد النفس بما قسم الله له من مال الدنيا وشرفها، ولَطَلَب بفكره وعمله شرف الآخرة الذي لا يترتب عليه حسد مذموم ولا كبر وبطر ولا إشغال للفكر بتدبير المكائد والمؤمرات .

ولما كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز خبيراً بأدواء النفوس وتجاوزاتها فإنه قد أدرك على الفور أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن مجيء أولئك الشيوخ وتصريحهم بما أدلوا به من قدح مشين بأمرهم فرات بن مسلم ما هو إلا حلقة من حلقات مؤامرة مدبرة لإيغار صدره عليه وعزله عن منصبه، فهداه الله تعالى إلى استعمال فكره السليم في نقض تلك الدعاوي، ووضع أصحابها في قفص الاتهام حتى تتضح الرؤية ويتبين الحق، ولقد كان واثقاً من كذب تلك الدعاوى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٥١ - ١٥٣ .

حيث أمر بإجراء العقوبة على أصحابها ، ثم لم يكن بحاجة إلى إكمال التحقيق في القضية لأن الأمر من الوضوح بحيث حمل صاحب المؤامرة على الاعتراف بخطئه والحكم على نفسه بالظلم لزميله في العمل والثناء عليه بما يستحقه من صفات الكمال، ثم لما كان هذا الاعتراف بالخطأ بررت أخلاق عمر بن عبد العزيز المتمثلة بالعفو والرحمة وتقدير المواقف الإيمانية .

وحينما طلب منه الوليد بن هشام المعيطي أن ينقص من راتبه أدرك خداعه في اختلاف سريرته مع علانيته، حيث أظهر العفة والزهد ليصل إلى كسب الثقة وعلو المنزلة عند عمر بن عبد العزيز الذي يعظم هذا الاتجاه، ولكن أمير المؤمنين أدرك ذلك فحقق له مطلبه، وفي الوقت نفسه فوت عليه الفرصة في نيل مقاصده، ولقد كان أمير المؤمنين عظيم الورع حينما لم يحكم عليه بمجرد ظنه، وإنما قاده هذا الظن إلى عمل الاحتياطات اللازمة لتفادي ماقد يكون من ذلك الوالي من جنوح في المستقبل .

فما أعظم عمر بن عبد العزيز في فطنته وفراسته وحزمه !!

وما أعظمه في رحمته وعفوه وورعه !!

موقفه في رفع الظلم عن زيد بن حسن :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : وكتب الوليد بن عبد الملك إلى زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب، يسأله أن يبايع لعبد العزيز بن الوليد، ويخلع سليمان بن عبد الملك ، ففرق زيد من الوليد فأجابته، فلما استخلف سليمان وجد كتاب زيد إلى الوليد بذلك

فكتب إلى أبي بكر بن حزم - وهو أمير المدينة - ادع زيد بن حسن فأقرئه هذا الكتاب فإن عرفه فاكتب إلي بذلك ، وإن نكل فقدّمه فأظهر يمينه على منبر رسول الله ﷺ : ماكتب هذا الكتاب ولا أمر ، فأرسل إليه أبو بكر بن حزم فأقرأه الكتاب ، فقال : أنظرني ما بيني وبين العشاء أستخير الله . قال : فأرسل زيد بن حسن إلى القاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله يستشيرهما . قال : فأقاما معهما ربيعة فذكر لهما ذلك ، وقال : إني لم أكن آمن الوليد على دمي لو لم أجبه ، فقد كتبت هذا الكتاب ، أفتررون أن أحلف ؟ فقالوا : لا تحلف ولا تبارز الله عز وجل عند منبر رسول الله ﷺ ، فإننا نرجو أن يُنجيك الله بالصدق ، فأقرّ بالكتاب ولم يحلف . فكتب بذلك أبو بكر بن حزم إلى سليمان ، فكتب سليمان إلى أبي بكر أن يضربه مائة سوط ، ويُدرعه عباءة ، ويُمشيه حافياً ، فتشكى سليمان . فقال عمر بن عبد العزيز للرسول : لاتخرج حتى نكلم أمير المؤمنين فيما كتب إلى زيد بن حسن ، لعلني أستطيع نفسه فيترك هذا الكتاب . قال : فحبس الرسول والكتاب ، ومرض سليمان فقال عمر : لاتخرج فإن أمير المؤمنين مريض ، إلى أن رُمي في جنازة سليمان ، وأفضى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز فدعا بالكتاب فخرقه (١) .

وهكذا نجى الله تعالى زيد بن حسن من بأس سليمان بن عبد الملك وبطشه بذلك السلوك الحكيم من عمر بن عبد العزيز ، وإنه لعجيب من أولئك الأمراء أن يخرجوا كبراء الأمة وفضلاءها بإدخالهم في تجاوزاتهم السياسية وجعلهم معرضين لنقمة الحاكم الحالي إن لم

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١١٩ - ١٢٠ .

يوافقوا على تحقيق مراده أو نقمة الحاكم القادم إن وافقوا على ذلك ، فكان زيد بن حسن قد فضل درء الشر الحاضر على أمل أن لا يكون الشر المستقبل ، ولكنه وقع وكاد أن يتعرض للتعذيب المذكور لولا أن انقذه الله تعالى بما فعله عمر بن عبد العزيز .

شكوى عمته باسم بني أمية :

أخرج محمد بن سعد من خبر عبيد الله بن محمد التيمي قال : سمعتُ أبي وغيره يحدث أن عمر بن عبد العزيز لما ولي منع قرابته ما كان يجري عليهم وأخذ منهم القطائع التي كانت في أيديهم ، قال فشكوه إلى عمته أم عمر ، قال فدخلتُ عليه فقالت : إنَّ قرابتك يشكونك ويزعمون ويزعمون أنك أخذت منهم خير غيرك ، قال : مامنعتُهم حقًا أو شيئًا كان لهم ولاأخذت منهم حقًا أو شيئًا كان لهم . فقالت : إني رأيتهم يتكلمون وإني أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيبًا . فقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره . قال فدعا بدينار وجنب ومجمر فألقى ذلك الدينار في النار وجعل ينفخ على الدينار حتى إذا احمر تناوله بشيء فألقاه على الجنب فنشَّ وقتَّر فقال : أيُّ عمة أما تأوين لابن أخيك من مثل هذا ؟ قال فقامت فخرجت على قرابته فقالت : تزوجون إلى عمر فإذا نزعوا الشبه جزعتم ، اصبروا له (١) .

ففي هذا الخبر بيان زهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بهذه الحياة الدنيا وعدم مبالاته بما يجري عليه فيها من مصائب ، فإن الشيء

(١) طبقات ابن سعد ٣٧٣/٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٩٦ .

الوحيد الذي يهتم له هو ماسيكون عليه مآله بعد الموت، فكل تهديد يوجه إليه في هذه الحياة الدنيا فإنه لا يثير خوفه ولا يحسب له حساباً، وهذا فيه تئيس لمن سيعملون ضده لأنه لا يجذبه طمع ولا يخيفه فزع، ومن أجل أن يكون تصور أهوال الآخرة أبلغ فإنه قام بتمثيل مصغر لعذاب النار أمام عمته لتتأثر بذلك الموقف ولتنقل الصورة إلى بني أمية لعلهم يتذكرون ويعتبرون .

تأديبه لمن سخر أهل الذمة :

أخرج محمد بن سعد من خبر سهل بن شعيب أن ربيعة الشعوزي حدثهم قال : ركبْتُ البريدُ إلى عمر بن عبد العزيز فانقطع في بعض أرض الشام فركبتُ السُّخْرَةَ (١) حتى أتيتُه وهو بخناصرة فقال : ما فعل جناح المسلمين ؟ قال قلت : وما جناح المسلمين يا أمير المؤمنين ؟ قال : البريد . قال قلت : انقطع في أرض أو مكان كذا وكذا . قال : فعلى أي شيء أتيتنا ؟ قال قلت : على السخرة تسخرتُ دوابَّ النبط . قال : تسخرون في سلطاني ؟ قال فأمر بي فضربتُ أربعين سوطاً ، رحمه الله (٢) .

فهذا من أبلغ أمثلة العدل، حيث يأمر أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بضرب أحد عماله لكونه سخر أهل الذمة لحمله على دوابهم، فهو يرى أن ذلك ظلم لهم ، فما أسمى أحكام الإسلام التي يصل بها أهل الذمة من الكفار إلى حقوقهم الكاملة ويتمتعون بها

(١) يعني سخر من مر بهم من أهل الذمة ليحملوه على دوابهم .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٧٤/٥ .

بالعدل والأمن !! ولكن هذه الأحكام تحتاج إلى حكام عادلين لتمثل
في واقع الحياة فيشاهدها الناس أجمعون ، ويكون لها الأثر الكبير في
تعظيم الإسلام والانجذاب إليه .
مثل من بركة الحكم بالعدل :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر إبراهيم بن هشام بن يحيى
الغساني حدثني أبي عن جدي . قال : لما ولاني عمر بن عبد العزيز
الموصل ، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقا ونقبا ، فكتبت إلى عمر
أعلمه حال البلد وأسأله : آخذ من الناس بالمظنة وأضربهم على التهمة
أو آخذهم بالبينة وماجرت عليه عادة الناس ؟ فكتب إلي أن آخذ
الناس بالبينة وماجرت عليه السنة ، فإن لم يصلحهم الحق فلا
أصلحهم الله . قال يحيى : ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل
حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقا ونقبا (١) .

فهذا مثال على أن البركة والسعادة والأمن تتوفر في تطبيق شريعة
الإسلام ، فإن عصاة المسلمين وإن جرت منهم جنوحات إجرامية
فإنهم مؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر ، فإذا شعروا بأنهم يُحكمون
بالدين وأن الحاكم صادق ومخلص في تطبيق الإسلام فإنهم يرتدعون
بأقل الروادع ، ويصبح من يلومهم على إجرامهم يتكلم باسم الدين
فيرعوي من في قلبه بقية من جذوة الإيمان ويقظة الضمير ، ولا يصر
على الإجرام إلا من قست قلوبهم وغلظت طباعهم ، وهؤلاء
لا يرتدعون إلا بتطبيق الحدود الشرعية ، ولكن عددهم في المجتمع

(١) حلية الأولياء ٥ / ٢٧١ .

الإسلامي محدود ، فالقضاء على الجرائم - والحال هذه - متيسر للحاكم العادل الذي يطبق الحق على كل المسلمين، ومن هذا المنطلق نجح هذا الحاكم في إقرار الأمن والقضاء على الجرائم .

أما إذا كان الحاكم يأخذ الناس بالظن ولا يتقيد بأحكام الشريعة فإن من عندهم ميل للجرائم يغالبون الحاكم بالتحدي، ولا ينشط المتقون للإنكار على المجرمين لأن القضية تكون بينهم وبين سلطان متجبر، فيكون موقف المتقين ضعيفا حينما يقاومون أصحاب الجرائم لأن موقفهم قد اقترن بموقف الحاكم المتسلط .

إنصافه الأعراب من بعض بني أمية :

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد من خبر سليمان بن موسى أنه بلغه أن قوما من الأعراب خاصموا إلى عمر بن عبد العزيز قوما من بني مروان في أرض كانت الأعراب أحيوها، فأخذها الوليد بن عبد الملك فأعطاه بعض أهله ، فقال عمر بن عبد العزيز : قال رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله من أحيى أرضا ميتة فهي له » ، فردها على الأعراب (١) .

فهذا مثل من عدل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، حيث أنصف الأباعد عنه من المقربين إليه، وفي الخبر دلالة على أهمية العلم الشرعي للحاكم وأثر ذلك في سلوك الطريق المستقيم والسلامة من الزلل .

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل / ٢٩٠ / ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوري / ٨٥ .

وصيته عماله بالتقوى والعدل :

قال ابن عبد الحكم : وكتب عمر بن عبد العزيز : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العمال^(١) ، أما بعد : فإن هذا الأمر الذي ولاني الله لو كنت إنما أصبحت ورغبتني فيه مطعم أو ملبس أو مركب أو اتخاذ أزواج أو اعتقاد أموال لكنت قد بلغ الله بي من ذلك قبل ما ولاني من أفضل ما بلغ بعباده ، ولكنني أصبحت له خائفاً ، أعلم أنه فيه أمراً عظيماً وحساباً شديداً ومسألة غليظة^(٢) عند مجاهدة الخصوم بين يدي الله إلا ما عافى الله ورحم ودفع ، وإنني آمرُك فيما وليتك من عملي وأفضيت إليك من أمري بتقوى الله ، وأداء الأمانة واتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه ، وقلة الالتفات إلى شيء خالف ذلك ، ليكون الذي آمرُك به في سيرتك والنظر في نفسك وفي عملك وما تفضي به إلى ربك وما تعمل به فيما بينك وبين الرعية قبلك ، وأنت تعلم علماً يقيناً أنه ليس نجاة ولا حرز إلا أن تنزل بذلك المنزل من طاعة الله ، ودع أن ترصد شيئاً ليوم ترجوه أو تخافه سوى ما ترجوه غداً من الله تعالى وتخاف منه ، فإنك قد رأيت عبراً في نفسك وعبراً مأمثلها وعظ مثلاً ، وكفى ومثلها أصابك إلى حظك من الله ، والسلام^(٣) .

(١) في تاريخ الطبري أن هذا الخطاب موجه إلى يزيد بن المهلب .

(٢) في كتاب ابن عبد الحكم «لطيفة» واثبت ما في تاريخ الطبري لأنه أنسب لسياق الكلام .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٩٢ ، تاريخ الطبري ٥٦٦/٦ - ٥٦٧ .

فهذا الخطاب يبين عظمة شعور أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بالمسئولية ، حيث فهم وبين أن الولاية مغرم لامغنم ، فهي جدّ وعمل وهم متواصل ، وإنما يدفع إلى فهم حقيقتها ، والنجاة من مزالقها شعور صاحبها بالوقوف بين يدي الله تعالى للحساب ، وأن يُعدّ لكل قضية جوابا ، فإذا لم يستطع إعداد الجواب في الدنيا فإنه أعجز عنه في الآخرة ، وإنما يكون إعداد الجواب بتنقية السيرة وتطهير السريرة ، وبذل الجهد في الإصلاح ، فإن العامل لا يلام بعد بذل الجهد على ما كان منه من تقصير أو خطأ لا يعلمه ، أما إذا كان هدف العامل اكتساب مجد الدنيا ومتاعها وتجنب خسارتها فإنه قد حكم على نفسه بالهلاك ، وضيع باختياره سبيل النجاة ، فلا يلومنّ إلا نفسه المفرطة ، ولا يتقصنّ إلا فكره المنحرف .

ومن ذلك ما ذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى قال : وكتب عمر بن عبد العزيز : من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمير الأجناد : أما بعد فإنه من بلي بالسلطان تحضره مكاره كثيرة وبلايا عظام ، إن غابت عنه يوما فهي حرية أن تحضره في اليوم الآخر ، وإنه ليس أحد بأشغل عن نفسه ولا أكثر تعرضا لزيغ من ولي السلطان ، إلا ماعافى الله ورحم ، فاتق الله ما استطعت ، واذكر منزلك الذي أنت به والذي حُمِلتَ وقاتل هواك كما تقاتل عدوك ، واصبر نفسك عما كرهت ابتغاء ما عند الله من حسن ثوابه الذي وعد به المتقين فيما بعد الموت ، والذي وعدكم على التقوى والصبر من النجاة في عاجل الأمر وآجله ، فإذا حضرك الخصم الجاهل الحرق بمن قدر الله أن يوليكَ أمره وأن تبلى به فرأيت منه

سوء رِعَة وسوء سيرة في الحق الذي عليه والحظ الذي له فسدّه
 ما استطعت وبصره ، وارفق به وعلمّه ، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت
 نعمة من الله وفضلا ، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة
 اتخذت بها عليه ، فإن رأيت أنه أتى ذنبا استحق فيه عقوبة فلا
 تعاقبه بغضب من نفسك عليه ، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق في
 قدر ذنبه بالغّا ما بلغ ، وإن لم يبلغ ذلك إلا قدر جلدة واحدة تجلده
 إياها ، وإن كان ذنبه فوق ذلك ، ورأيت عليه من العقوبة في ذلك قتلاً
 فما دونه فأرجعه إلى السجن ، ولا يسرعن بك إلى عقوبته حضور من
 يحضرُك ، فإنه لعمرى ربما عاقب الإمام لمحضر جلسائه ، ولتأديب
 أهل بلده ولتغامزهم به ، وما من إمام له جلساء إلا سيكون ذلك فيهم
 وما من قوم يسمعون بقضاء إمام إلا سيختلفون فيه على أهوائهم ، إلا
 من رحم الله ، فإن من رحم الله لا يختلفون في قضاء ، فإنه قال
 ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (١) .

وإذا استجهلت فتشبت ، وإذا نظر إليك من حولك ماأنت فاعل
 بسفيه من رعيّتك إن سفه أو أخطأ خطيئة فاعمد في ذلك للذي ترى
 أنه أبرّ وأتقى وخير لك غداً فيما بعد الموت ، ولا يطربك نظرهم إليك
 ولا حديثهم عنك فإنهم لا يبقى في أنفسهم حديث أحبّوه أو كرهوه إلا
 قليلاً إلا أبدؤهُ . فاغتنم كل يوم أخرجك الله فيه سالماً ، وكل ليلة
 مضت عليك وأنت فيها كذلك وأكثر من دعاء الله بالعافية لنفسك ،
 ولمن ولأك الله أمره ، فإن لك في صلاحهم مالميس لأحد منهم وإن
 عليك في فساد الرجل الواحد فما فوق ذلك مالميس على أحد منهم .

(١) سورة هود الآية ١١٨ - ١١٩ .

ولا تبغ منهم جزاء خير أحسنه إليهم ، ولا بتسديد سدوتهم ،
ولا تطلب بعمل صالح عملته فيهم جزاءً ولا ثواباً ولا مدحاً ولا حظوةً ،
وليكن ذلك لمن لا يعطي الخير ولا يصرف السوء غيره ، ثم تعاهد
صاحب بابك وصاحب حرسك وعاملك المقيم عندك والذين تبعث ،
فلا يعملون في شيء مما تحت يدك بغشهم ولا بظلم ، وأكثر المسألة
عنهم ، فمن كان منهم محسناً نفعه ذلك ، ومن كان مسيئاً استبدلت به
من هو خير منه .

نسأل الله ربنا برحمته وقدرته على خلقه أن يغفر لنا ذنوبنا وأن
يسر لنا أمورنا ، وأن يشرح لنا صدورنا بالبر والتقوى ، والعمل فيما
يحب ويرضى ، وأن يعصمنا من المكاره كلها ، وأن يجعلنا من الذين
لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، ومن المتقين الذين لهم العاقبة ،
والسلام عليكم ورحمة الله (١) .

ففي هذا الكتاب بيان خطورة الولاية وأنها مزية قدم ، ولا يسلم
من زلاتها إلا من رحمه الله تعالى ، فالولاية إما عمل صالح عظيم
الدرجات لمن عفا وعدل واستقام ، وإما عمل سيئ يؤدي إلى الهلاك
لن رتع وجار وانحرف ، ولولا أنها في بعض صورها عمل صالح لما
أقدم عليها من يخشى الله ويتقيه .

وإذا تقلد الإنسان ولاية برز هوى نفسه الأمانة بالسوء لكثرة
المغريات ، فإذا لم يتصور الإنسان نفسه التي بين جنبيه عدواً له في
بعض الأحيان فإنه سالك سبيل الهلاك ، لأنه لن يعمل على كبح

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٨١ - ٨٣ .

جماح النفس وتقويمها ، وقد تكره النفس الاستقامة على منهج الإسلام الكامل فلا بد من إكراهها على سلوك هذا السبيل ، وسيتحول الأمر بعد شيء من المعاناة - تقصر أو تطول - إلى منهل عذب وسبيل رحب ، تهواه النفس المطمئنة وتنافس عليه .

والمسئول يتلى بمعاملة الناس على مختلف أذواقهم ومشاربهم ، وقد تتحول هذه المعاملة إلى معاناة ومكابدة ، فلا يغتر المسئول بكونه أقدر على أفراد رعيته منهم عليه فيعاملهم بشيء من العنف والقسوة وإن ساءت معه أخلاقهم وغلظت معه طباعهم ، بل عليه أن يبذل جهده في تعليم الجاهل الأدب وحسن المعاملة ، فإن التعليم من الأعلى له دوره المؤثر ، حيث إنه يملك هبة المسئولية ، فإذا تحول عما ينتظر منه عادة من محاولة فرض السيطرة إلى محاولة تعليم الناس وتهذيب أخلاقهم فإن النفوس تُكبر ذلك فيه وتقبل على توجيهه .

وإذا أخطأ أحد أفراد الرعية خطأ يستحق عليه العقوبة فمن واجب الوالي أن يتأنى في إجراء العقوبة ، وأن لا يحكم عليه وهو غضبان ، فإن مع الغضب شيطاناً ، والقوة الغضبية أميل إلى الجور والعسف ، ولذلك أمر النبي ﷺ من غضب بالوضوء أو بالقيء إن كان قائماً ليزول غضبه قبل أن يتصرف ، وليندحر شيطانه .

وإن من فضائل بعض الأنظمة الإدارية المعاصرة أن المسئول لا يجري العقوبة وحده ، وإنما يحيل الأمر إلى لجنة مختصة بدراسة القضايا وتحديد العقوبات المناسبة ، فإن هذا النظام يبعد حالة التصرف مع الغضب تماماً ، ويتيح الفرصة لدراسة الأمور بتؤدة وروية ومشورة

بين عدد من الأفراد ، فهو أدنى إلى التثبيت والعدالة ، وأبعد من المجازفة والجور .

وإن مما يحمل المسئول أحياناً على القسوة والحيث محاولة الإبقاء على هيئة السلطة والظهور أمام جلسائه ومن تحت إدارته بمظهر القوة ، وقد يداهنه من حوله بتحريضه على المخالف لظنهم بأن ذلك يكسبهم رضاه ، فيسهمون بذلك في حمله على الظلم .

وقد يحصل ما هو ضد ذلك إذا كان لبعض الجلساء أو الإداريين غرض في التخفيف عن المخالف فيحاولون أن يؤثروا على المسئول ليغفو عن المخالف ، وقد يترتب على ذلك تضييع بعض الحقوق أو الجراءة على المخالفة .

ولذلك فإن من أقوى العواصم من الانحراف في الحكم أن تحال القضايا إلى لجان متخصصة لدراستها وتقدير العقوبة المناسبة مع حسن اختيار أعضائها ومراقبتهم .

وإن مما أوصى به عمر بن عبد العزيز في هذا الخطاب أن لا يستجلب المسئول بما يقدمه من خير وإصلاح ثناء الناس ولا جزاءهم ، وإنما يطلب من الله تعالى الأجر والثواب على عمله ليكون خالصاً ، وإذا كان كذلك فإنه أدعى للنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة .

خبره مع المرأة التي فرض لبناتها من بيت المال :

أخرج ابن عبد الحكم رحمه الله ، قال : وقدمت امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيز ، فلما صارت إلى بابه قالت : هل على أمير المؤمنين حاجب ؟ فقالوا : لا فلجي إن أحببت ، فدخلت

المرأة على فاطمة وهي جالسة في بيتها ، وفي يدها قطن تعالجه ،
فسلمت فردت عليها السلام وقالت لها : ادخلي ، فلما جلست المرأة
رفعت بصرها فلم تر في البيت شيئاً له بال ، فقالت : إنما جئت
لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب ، فقالت لها فاطمة : إنما خرب هذا
البيت عمارة بيوت أمثالك .

قال : فأقبل عمر حتى دخل الدار ، فمال إلى بثر في ناحية الدار
فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت - وهو يكثر
النظر إلى فاطمة - فقالت لها المرأة : استتري من هذا الطيان
فإنني أراه يديم النظر إليك ، فقالت : ليس هو بطيان ، هو أمير
المؤمنين .

قال : ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته ، فمال إلى مصلى كان له
في البيت يصلي فيه ، فسأل فاطمة عن المرأة ، فقالت : هي هذه ،
فأخذ مكتلاً له فيه شيء من عنب فجعل يتخير لها خيرة يناولها إياه ،
ثم أقبل عليها فقال : ما حاجتك ؟ فقالت : امرأة من أهل العراق لي
خمس بنات كُسلٌ كُسد ، فجئتك أبتغي حسن نظرك لهن ، فجعل
يقول : كسل كسد ، ويبيكي ، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والي
العراق ، فقال سمّي كبراهن ، فسمتها ففرض لها ، فقالت المرأة :
الحمد لله ، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة ، والمرأة تحمد الله
ففرض لها ، فلما فرض للأربع استفزها الفرح فدعت له فجزته خيراً ،
فرفع يده وقال : كنا نفرض لهن حيث كنت تؤلين الحمد أهله ، فمُرِّي
هؤلاء الأربع يُفَضَّنَ على هذه الخامسة .

فخرجت بالكتاب حتى أتت به العراق ، فدفعته إلى والي

العراق ، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاءه ، وقال : رحم الله صاحب هذا الكتاب ، فقالت : أمات ؟ قال : نعم ، فصاحت وولولت ، فقال : لا بأس عليك ، ما كنت لأرد كتابه في شيء ، فقضى حاجتها وفرض لبناتها (١) .

في هذا الخبر عدة مواقف :

الأول : شهادة تلك المرأة على زهد عمر بن عبد العزيز ، حيث لم تجد في بيته شيئاً يُذكر من الأثاث ، فيئست من الحصول على ما يصلح شأنها من صاحب ذلك البيت الخرب ، ولكن زوجة عمر فاطمة بنت عبد الملك طمأنتها ، حيث بينت لها أن خراب بيت أمير المؤمنين ، إنما هو بسبب عمارته بيوت الرعية ، حيث اقتصد في الإنفاق على أسرته وأقاربه ، ووسع في الإنفاق على الرعية .

الموقف الثاني : في تواضع عمر بن عبد العزيز البالغ ، وقد ظهر ذلك في قيامه بإصلاح ما خرب من بيته بنفسه ، حيث صار يخلط الطين ويصلح به ماتهدهم من بيته ، حتى ظنَّته تلك المرأة طيَّاناً ، وحيث قام بعد ذلك بانتقاء جيد الفاكهة ومناولته تلك المرأة المسكينة .

ولاشك أن تواضع الكبار وقيامهم بمثل هذا العمل المدهش ، يعتبر من أهم أسباب تقوية المحبة وتثبيت الولاء كما أنه من أبلغ الوسائل لتربية الأمة على التواضع ، لأن من في قلبه ميل إلى الكبر سيجد في نفسه صدوداً عن ذلك ، وقناعةً بالاعتدال في السلوك ، تأسيّاً بأولئك الأكابر .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٩ .

والموقف الثالث : في اهتمامه بأمر تلك المرأة المسكينة حيث فرض لها ولبناتها ما يكفيهم من بيت مال المسلمين ، بينما لنجدته قويا متصليا في معاملة الأكابر ، الذين يريدون أن يأخذوا من مال المسلمين ما لا يحل لهم ، فهو لين متواضع لطلاب الحق ، شديد قوي على طلاب الباطل .

الموقف الرابع : في جواب عمر لتلك المرأة حينما شكرته لما فرض لبنتها الرابعة بعد أن كانت تشكر الله تعالى ، حيث أوقف فرض العطاء لبنتها الخامسة وأمرها بأن تُفيض عليها من عطاء أخواتها ، وهذا الموقف يبين عظمة فهم عمر لتوحيد الله تعالى ، ومبلغ تذكركه لعظمته ، وحمده لنعمته ، وقد قام بما قام به من هذا التصرف ليعطي تلك المرأة وغيرها درساً عملياً في التوحيد هو أبلغ من الدروس النظرية .

وليس معنى هذا أن شكر المحسنين والدعاء لهم يتنافى مع التوحيد فإن النبي ﷺ يقول « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » (١) ، ويقول « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه » (٢) ، وعمر بن عبد العزيز من أعلم المسلمين بالسنة ولكن لما بدأت تلك المرأة بحمد الله تعالى ثم قطعت ذلك وتحولت إلى شكره وهو الدعاء له أحسن بأن ذلك مخل بالتوحيد لأن فيه إشعاراً بتقديم شكر المخلوق على شكر الخالق جل وعلا .

(١) مسند أحمد ٢/ ٢٥٨ .

(٢) سنن أبي داود ، رقم ١٦٧٢ ، الزكاة ١/ ٣١٠ ، مسند أحمد ٢/ ٦٨ .

إنصافه الذميين من أهل نجران :

أخرج المؤرخ أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري من خبر الحسن البصري قال : جاء راهبا نجران إلى النبي ﷺ فعرض عليهما الإسلام فقالا : إنا قد أسلمنا قبلك ، فقال ، كذبتما يمنكما من الإسلام ثلاث ، أكلكما الخنزير ، وعبادتكما الصليب ، وقولكما لله ولد . قال ، فمن أبو عيسى قال الحسن : وكان ﷺ لا يعجل حتى يأمره ربه فأنزل الله تعالى ﴿ ذَلِكْ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

فقرأها رسول الله ﷺ عليهما ثم دعاهما إلى المباهلة (٢) وأخذ بيد فاطمة والحسن والحسين فقال أحدهما لصاحبه : اصعد الجبل ولا تباهله فلأنك إن باهلتَهُ بُؤِتَ باللعنة ، قال : فما ترى قال : أرى أن نعطيه الخراج ولا نباهله .

ثم ذكر كتاب النبي ﷺ إليهم وفيه أنه وضع عليهم ألفي حلة في كل عام .

ثم ذكر أن أبا بكر رضي الله عنه أمضى ذلك عليهم .

ثم ذكر رواية من خبر سالم بن أبي الجعد قال : كان أهل نجران قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم فأتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا : أجلبنا ، وكان عمر قد خافهم على المسلمين فاغتنمها

(١) سورة آل عمران / ٥٨ - ٥٩ .

(٢) المباهلة الملاعة وهي أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منا .

فأجلاهم ، فندموا بعد ذلك وأتوه فقالوا : أَقْلُنَا ، فأبى ذلك ، فلما قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتوه فقالوا: ننشدك خطك بيمينك (١) وشفاعتك لنا عند نبيك إلا أَقْلَتْنَا ، فقال : إن عمر كان رشيد الأمر وأنا أكره خلافه .

وذكر أن بعضهم جلا إلى الشام وبعضهم إلى الكوفة ونزلوا في ناحية سُمِّيَت النجرانية باسمهم .

وذكر أنهم أتوا إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وأنه كتب إلى عامله على الكوفة الوليد بن عقبة بأن يضع من جزيتهم مائتي حلة لوجه الله تعالى وعُقْبَى لهم من أرضهم وقال : وإنني أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة .

وذكر أنهم لما ولي معاوية رضي الله عنه أو يزيد بن معاوية شكوا إليه تفرقهم وموت من مات منهم وإسلام من أسلم منهم وأنهم أحضروا كتاب عثمان بن عفان رضي الله عنه بما حطَّ عنهم من الحلل ، وقالوا : إنما ارددنا نقصانا وضعفا فوضع عنهم مائتي حلة تنمة أربعمئة حلة .

قال : فلما ولي الحجاج بن يوسف العراق وخرج ابن الأشعث عليه اتهم الدهاقين بموالاته واتهمهم معهم فردهم إلى ألف وثمانمئة حلة ، وألزمهم بنوع جيد منها .

قال : فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكوا إليه فناءهم ونقصانهم وإلحاح الأعراب بالغارة عليهم وتحميلهم إياهم المؤن المجحفة بهم

(١) يعني أنه هو الذي كتب لهم الكتاب في عهد رسول الله ﷺ .

وظلم الحجاج إياهم ، فأمر فأحصوا فوجدوا على العشر من عدّتهم الأولى ، فقال : أرى هذا الصلح جزية على رؤوسهم وليس هو بصلح على أرضيهم ، وجزية الميت والمسلم ساقطة فالزمهم مائتي حلة قيمتها ثمانية آلاف درهم (١) .

فهذا الخبر يبين لنا شيئاً من علم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وعدله ورحمته ، فهو قد أدرك بأن جزية الذميين من أهل نجران على رؤوسهم وليست على أراضيهم ، والأفراد ليس عددهم ثابتاً بل يزدون وينقصون ، ولما كان عددهم قد أصبح على العشر من عددهم أيام رسول الله ﷺ فإن جزيتهم ينبغي أن تنقص إلى العشر ، وهذا من الفقه في معرفة السنة النبوية ، وقد كلّ فهمه هذا بالعدل والرحمة ، حيث أنقص جزيتهم إلى العشر ، وهو بهذا يكون قد طبق سنة النبي ﷺ في تقدير جزيتهم .

إنصافه الذميين من أهل قبرص :

أخرج البلاذري من طريق محمد بن سعد عن الواقدي بإسناده قال : لم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار ، فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبدالعزیز فحطها عنهم ، ثم لما ولي هشام بن عبد الملك ردها ، فجرى ذلك إلى خلافة أبي جعفر المنصور فقال : نحن أحق من أنصفهم ولم نتكثّر بظلمهم فردهم إلى صلح معاوية (٢) .

(١) فتوح البلدان / ٨٦ - ٩١ .

(٢) فتوح البلدان / ٢١٠ - ٢١١ .

فهذا أيضا مثل من إنصاف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في معاملة الذميين من أهل قبرص حيث وضع عنهم الزيادة التي رآها ظلما لهم، وقد تأسى به أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور في هذه العدالة رحمهما الله تعالى .

إنصافه أحد المظلومين من اليمن :

ذكر أبو الحسن علي بن محمد الماوردي أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله خرج ذات يوم إلى الصلاة فصادفه رجل ورد من اليمن متظلما فقال :

تدعون حيران مظلوما ببابكم فقد أتاك بعيد الدار مظلوم فقال ما ظلامتك ؟ فقال غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي، فقال : يامزاحم اتني بدفتر الصوافي فوجد فيه : أصفى عبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان، فقال أخرجها من الدفتر وليكتب برد ضيعته إليه ويطلق له ضعف نفقته (١).

وهكذا طمع في عدل أمير المؤمنين أبناء البلاد البعيدة ، فجاء هذا الرجل من اليمن يطلب حقه الذي اغتصب منه، فأعاد إليه عمر أرضه وأعطاه ضعف نفقته التي صرفها في سفره، ليكون ذلك تعويضا عما صرفه في قدومه وماسيصره في عودته، لأن من حقه أن تعود إليه أرضه المغتصبة وهو في بلده من غير أن يخسر شيئا .

سؤال عطاء عن أحوال عمر بن عبد العزيز :

أرسل عطاء بن رباح إلى فاطمة بنت عبد الملك يسألها عن أحوال

(١) الأحكام السلطانية / ١٠٣ .

عمر بعد موته فقالت : أفعلُ ، إن عمر رحمة الله عليه كان قد فرغ للمسلمين نفسه ، ولأموارهم ذهنه ، فكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليته ، إلى أن أمسى مساءً وقد فرغ من حوائج يومه ، فدعا بسراجَه الذي كان من ماله ، فصلى ركعتين ثم أقعى واضعاً رأسه على يديه ، تسيل دموعه على خديه ، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها ، وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائماً ، فدنوت منه فقلت : ياأمير المؤمنين أليس كان منك ماكان ؟ قال : أجل فعليك بشأنك وخلّيني وشأني ، قالت : فقلت : إني أرجو أن أتّعظ ، قال : إذا أخبرك ، إني نظرت فوجدتني قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والأسير المقهور ، وذا المال القليل والعيال الكثير ، وأشبه ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله سائلي عنهم ، وأن رسول الله ﷺ حجيجي فيهم ، فخفت أن لايقبل الله تعالى مني معذرة فيهم ، ولا تقوم لي مع رسول الله ﷺ حجة ، فرحمت والله يافاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني ، ووجع لها قلبي ، فأنا كلما ازددت لها ذكراً ازددت منها خوفاً ، فاتّعظي إن شئت أو ذري (١) .

وهذا تقدير بالغ من عمر رحمه الله للمسئولية التي تحملها ، حيث تذكر ضعفاء المسلمين وأصحاب الحاجات ، بالرغم مما يبذله من جهد متواصل في التعرف على أحوال الأمة ، ولكن لما كان هذا الأمر غير محصور خشى أن يكون قد بقي من المسلمين من لم تُرفع إليه

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٧٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٦٠ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٩٧/٤٥ .

حاجته ، فيكون مسئولاً عنه .

وفي تذكُّره للحساب والجنة والنار دليل على عمق إيمانه بالغيب حتى أصبح أمامه كالمشاهد ، فأصبح ذلك دافعاً له إلى العدل والرحمة ، والمبالغة في تفقد أحوال الأمة .

وفي بكائه الشديد دلالة على عظمة خوفه من الله عز وجل ، وقد عصمه الله تعالى بهذا الخوف من الزلل ، فارتفع بفكره وسلوكه عن المغريات ، وقوي أمام جميع التحديات ، فكلما عظم عليه خطب مجابهة الناس تذكّر النار والحساب فهان عليه كل خطب عظيم ، وصغر في نظره كل أمر جسيم .

خبره مع الخوارج :

قال المؤرخ أبو الحسن محمد بن الأثير : في هذه السنة - يعني سنة مائة - خرج شوذب - واسمه بسطام - من بني يشكر في جوفي ، وكان في ثمانين رجلاً ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد عامله بالكوفة : أن لا يحركهم حتى يفسكوا دماً ويفسدوا في الأرض ، فإن فعلوا وجه إليهم رجلاً صليبا حازماً في جند ، فبعث عبد الحميد محمد بن جرير البجلي في ألفين ، وأمره بما كتب به عمر .

وكتب عمر إلى بسطام يسأله عن مخرجه ، فقدم كتاب عمر عليه وقد قدم عليه محمد بن جرير ، فقام بإرائه لا يتحرك ، فكان في كتاب عمر : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ولست أولى بذلك مني فهلم إلي أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك .

فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك وينظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيان حبشيًا اسمه عاصم ورجلا من بني يشكر ، فقدا على عمر بخصاصة فدخلا إليه فقال لهما : ما الذي أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم ؟ فقال عاصم : مانقمتنا سيرتك إنك لتتحري العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضى من الناس ومشورة أم ابتزرتهم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها ، وعهد إلي رجل كان قبلي فقامت ولم ينكره علي أحد ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون الرضى بكل من عدل وأنصف من كان من الناس ، فأتروني ذلك الرجل فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم .

فقالا : بيننا وبينك أمر واحد قال : ماهو ؟ قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فإن كنت على هدى وهم على الضلالة فالعنهم وابرأ منهم ، فقال عمر . قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فاخطأتم طريقها إن الله عز وجل لم يبعث رسوله ﷺ لعانا ، وقال إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنِّهٖنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِیْ فَإِنَّهٗ مِنِّیْ وَمَنْ عَصَانِیْ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِیْمٌ ﴾ (١) وقال الله عز وجل : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّٰهُ فَبِہٖدَاهُمۡ اَقْتَدِهٖ قُلۡ لَا اَسْأَلُکُمۡ عَلَیْہِ اَجْرًا اِنْ هُوَ اِلَّا ذِکْرٌ لِّلْعَالَمِیْنَ ﴾ (٢) وقد سمیت أعمالہم ظلماً وكفی بذلك ذمًا ونقصا ، وليس لعن الذنوب فريضة لا بد منها فإن قلت : إنها فريضة فأخبرني متى لعنت

(١) إبراهيم / ٣٦ .

(٢) الأنعام / ٩٠ .

فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته قال : أفيسعدك أن لاتلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولايسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ؟

قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحد ، فقال الخارجي : إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده ، قال عمر : فليس أحد منهم يقول : لاأعمل بسنة رسول الله ﷺ ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء .

قال عاصم : فابراً مما خالف عملك ورد أحكامهم قال عمر : أخبرني عن أبي بكر ، وعمر أليسا على حق ؟ قال : بلى قال : أتعلمان أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذراري وأخذ الأموال ؟ قال : بلى قال : أتعلمون أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائرتهم بفدية ؟ قال : نعم قال : فهل برئ عمر من أبي بكر؟ قال : لا ، قال : أف تبرؤون أنتم من واحد منهما ؟ قال : لا .

قال : فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلمان أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دما ولم يأخذوا مالا . وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجاريته وهي حامل؟ قال : نعم قال : فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض؟ قال : لا ، قال : أف تبرؤون أنتم من أحد من الطائفتين ؟ قال : لا ، قال : أفيسعدكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد

علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد؟ فاتقوا الله فإنكم جهال تقبلون من الناس ماردٌ عليهم رسول الله ﷺ وتردُّون عليهم ما قبل ، ويأمن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من آمن عنده، فإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمناً وحقن دمه وماله وأنتم تقتلون ، ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم .

فقال الإشكري : أرأيت رجلاً ولي قوما وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أترأه أدى الحق الذي يلزمه لله عز وجل أو تراه قد سلم ؟ قال عمر : لا قال : أفُتُسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاء غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي ، قال : أفترى ذلك من صنع من ولاء حقاً ؟ فبكى عمر وقال : أنظراني ثلاثاً .

فخرجوا من عنده ثم عادوا إليه فقال عاصم : أشهد أنك على حق فقال عمر للإشكري : ماتقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ولكني لا أفئات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم ، فأما عاصم فأقام عند عمر فأمر له عمر بالعطاء فتوفي بعد خمسة عشر يوماً، فكان عمر بن عبد العزيز يقول : أهلكني أمر يزيد وخصمت فيه فاستغفر الله (١) .

في هذا الخبر تبين لنا برور أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبدالحكم / ١٢٧ - ١٣١ ، وتاريخ الطبري ٦/ ٥٥٥ .

وتفوقه في مجالات عديدة ، منها :

١ - أنه التزم المنهج الإسلامي في معاملة المخالفين، فحينما خرج أولئك الخوارج في عهده لم يسلك معهم طريقة أكثر الولاة الذين سبقوه ، حيث كانوا يعقدون الألوية لقتالهم من غير أن يدخلوا معهم في حوار علمي ، بل أرسل إلى أميرهم وطلب منه أن يحضر لمناظرته ، وأبدى استعدادا للرجوع عما هو عليه إذا تبين له أن الحق في غيره ، وهذا التنزل مع الخوارج الذين يعتبرون من أعنف المخالفين يدل على تجرده من هوى النفس ، وأن هدفه الأعلى تطبيق الإسلام كما جاء من عند الله تعالى .

٢ - غزارة علمه بالكتاب والسنة والتاريخ ، حيث دخل في حوار مع قوم قد كانوا فرغوا أنفسهم لقضايا علمية محددة خالفوا فيها السواد الأعظم من المسلمين وتعمقوا فيها واستعدوا للجدل والمناظرة حولها ، فأفحمهم وقطع حججهم واستطاع أن يؤثر على الرجلين اللذين أوفدوهما حتى اقتنعا برأيه في أغلب القضايا التي ناظره فيها .

٣ - حينما ناقشه الخارجيان في ولاية يزيد بن عبد الملك وظهر له الحق في ذلك لم يكابر ولم يغير الحقائق ، ولم يدافع عن الواقع الذي هو فيه وإن كان باطلا ، بل ظهر منه ما يدل على اعترافه بأن ذلك الأمر باطل ، وقوله « أهلكني أمر يزيد وخُصِمت فيه فأستغفر الله » يدل على أنه كان يرى أن تصحيح ذلك الأمر سيوقع في فتنة كبيرة يترتب عليها سفك دماء المسلمين ، وهو شديد الورع في ذلك .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الوليد بن مسلم قال ، قال الأوراعي : لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب إليه رجل من

الشرأة^(١) يقال له عمرو بأبيات :

قل للمولّى على الإسلام مؤتلفا وقد يرى أنه رثُ القوى واهي
إذ رابه معشر عدوّه مأكلة بنخوة الملك والإسراف والباه
إنا شرينا بدين الله أنفسنا نبغي بذاك إليه أعظم الجاه
ينهى الولاة بحد السيف عن سرف كفى بذاك لهم من راجر ناهي
وإن قصدت سبيل الحق ياعمرا آخاك في الله أمثالي وأشباهي
وإن لحقت بقوم كنت واعظهم في جور سيرتهم فالحكم لله
قال فأجابه عمر بن عبد العزيز :

ياأيها الرجل المهدي نصيحتة إن المحاسن والتوفيق بالله
إن كان أمر من السلطان تنكره فماعرى الدين والإسلام بالواهي
هذا الكتاب كتاب الله نقرؤه مصدق الوحي فينا أمر ناهي
فقد يَزِلُّ الذي يبغى الهدى رهقا عند الشريعة وهو العالم الداهي
الملك ياعمرو ملك الله خالقنا والحكم ياعمرو مردود إلى الله
قال فأتاه فبايعه ولم يخرج عليه ^(٢).

وهذا الخبر يدل على تفوق أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في
إنشاء الشعر حيث رد بهذه الأبيات الشعرية على البديهة، وهي أبيات
رصينة في مبنائها ومعناها .

(١) يعني من الخوارج .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٩٧ .

٤ - جهوده في الدعوة والإصلاح -

من توجيهاته في آداب الصحبة :

إن من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله القيام بتوجيه أفراد الأمة نحو السلوك القويم، ومن نماذج ذلك ما جاء في رواية لابن عبد الحكم قال : ولما ولي عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه ، فقال : يامعشر المسلمين إن تقوموا نقم وإن تقعدوا نقعد ، فإنما يقوم الناس لرب العالمين ، إن الله فرض فرائض وسنَّ سنناً ، من أخذ بها لحق ، ومن تركها مُحق ، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس ، يوصل إلينا حاجة من لاتصل إلينا حاجته ، ويدلنا من العدل إلى ما لانهتدي إليه ، ويكون عوناً لنا على الحق ، ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس ، ولا يغترب عندنا أحداً ، ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا (١) .

ففي هذا الخبر مثل من تواضع عمر ورغبته الأكيدة في القضاء على العادات الموروثة التي أشبه بها الولاة آنذاك الأكاسرة والقياصرة .. وعزم صارم على العودة بالأمة إلى منهج الخلفاء الراشدين .

وعمر بهذا يحجّم دافعين قوين يدفعانه إلى مجاراة عشيرته في مظاهرهم .. أولهما طموح النفس نحو الظهور وفرض السلطة والهبة في قلوب الناس ، وثانيهما : رغبة عشيرته الملحة في الإبقاء

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤١ وانظر البداية والنهاية ٢٠٦/٩ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥٢ ، وتاريخ دمشق ١٦٩/٤٥ .

على هذه المظاهر ، وتشنيعهم عليه في مخالفة ما كان عليه أسلافه .
ولكنه تغلب على هذين الدافعين بحزم وإيمان قوي ، وكان الدافع
الذي يدفعه إلى التواضع ورفض المظاهر الدنيوية هو خوفه من الله
تعالى ورغبته فيما عنده ، وطموح فكره نحو الآخرة وتجاوز المستقبل
الدنيوي ، وكان هذا الدافع عنده أقوى بكثير من الجواذب الأرضية ،
فنجح في إلجام نفسه عن هواها ، وإسكات أصحاب المظاهر الخادعة ،
وتصحيح مفاهيم المجتمع فيما يجب أن يكون عليه الولاة والعلاقة
بينهم وبين الرعية .

وفي قوله « إن الله فرض فرائض » بيان لأسباب السعادة
والشقاوة الحقيقية في الدنيا والآخرة ، فمن طبقها لحق بركب المتقين
في الدنيا ، وأكرم به من رفقة صالحة ، وسبق يوم القيامة إلى رضوان
الله تعالى والجنة ، وأكرم به من مآل وعاقبة .

ثم رسم منهجه الذي يريده ممن يريد صحبته في مجالسه حيث
حدد لهم الخصال الخمس التي يريدها منهم ، وكأنه يقول لهم إن عهد
النفعيين الذين يصحبون السلطان لتيسير مصالحهم ومصالح عشائريهم
قد انتهى ، فمن كان يريد صحبة الأمير فليصحبه للنظر في حوائج
المسلمين العامة ، والنظر في رفع مستوى الأمة في مجالات الخير ،
وتقريب الصلة بينها وبين ولائها ، وذلك بإيصال حاجة من لا يستطيع
الوصول بنفسه ، وكم في الأمة من أمثال هؤلاء الذين يموت أحدهم
وحاجته تتلجلج في صدره لا يستطيع أن يجاوز بها محيط أسرته ،
والذين يقومون بذلك هم من رواد الإصلاح في المجالين: مجال

المسؤولين : حيث يعينونهم على أداء مسئوليتهم في أمور قد لاتصل إليهم وهم مسئولون عنها ، وفي مجال أولئك المغمورين الذين قد لا يصلون إلى قضاء حوائجهم إلا بمثل هؤلاء المصلحين .

إن الذين يبذلون جاههم لوجه الله تعالى قليل ، وإذا فعلوا ذلك فربما بدؤوا وساطة الخير ثم قد لا يكملونها ، وكأنما أرادوا مجاملة صاحب القضية ورأوا أن ما قاموا به يكفي في ذلك ، ولكنهم في الحقيقة لم يصنعوا له شيئاً إذا لم يساعده على نجاح قضيته ، أما الذين يريدون وجه الله تعالى فإن الذي يهمهم هو النظر في إسعاد إخوانهم المسلمين والسعي في إنهاء قضاياهم ليحصلوا على ثواب الله العظيم الذي بذلوا جاههم من أجله .

وفي الخصلة الثانية يوصي عمر من أراد صحبته أن يدلّه من العدل إلى ما لا يهتدي إليه ، وهي رغبة صادقة من عمر رحمه الله في الوصول إلى كمال العدل ، فبالرغم من اجتهاده في ذلك فإنه يدرك أن الحاكم قد تخفّى عليه بعض جوانب العدل ، فإذا كان أصحابه من المهتمين بهذا الجانب ، وقد أدركوا رغبته في ذلك فإن أفكارهم تتفتّق على جوانب من العدل قد لاتخطر ببال ذلك الوالي وإن كان عظيم الاهتمام بالعدل لأنه لا يملك إلا فكراً واحداً ، لكنه حينما يجنّد من حوله لخدمة هذه القضية التي وقف عليها حياته فإنه سيملك نتاج أفكار كثيرة، تُهدي إليه من درر النصائح ما لا يخطر له على بال .

وهكذا كانت عظمة العظماء من الأمراء والقادة الذين رفعوا في حياتهم قضية كبرى ، ووجهوا كل اهتماماتهم واهتمام من حولهم

نحو هذه القضية ، فإنهم ينجحون في قضيتهم غالبا ، سواء كانت من قضايا الدنيا البحتة أو من قضايا الدنيا والآخرة ، بسبب مشورة الناصحين الذين يجندون عقولهم لخدمة تلك القضية .

وفي الخصلة الثانية يقول « ويكون لنا عوننا على الحق » وعُمر بهذا يفتح المجال واسعا أمام رواد الإصلاح الذين يرون الحق واضحا ويتمنون أن تكون لهم قدرة على تنفيذه ، فقد فُتح الباب أمامهم في عهد عمر من أعلى سلطة في البلاد ، ولاشك أن من لديه أي منهج للإصلاح وتنفيذ الحق سيسارع إلى تلبية هذا النداء ، مستفيدا من ذلك التعاون المتبادل بين الراعي والرعية .

ثم يقول « ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس » ، فإداء الأمانة دليل على قوة الإيمان وطهارة النفس من الأنانية وحب الدنيا ، وعلى طموحها إلى ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الآخروية، وذكر أداء الأمانة إلى الناس لبيان أصالة الأمانة واشتغال صاحبها على الإخلاص، لأن من يؤدي الأمانة لأصحاب السلطة ولا يؤديها لعامة الناس، قد يفعل ذلك خوفا من صاحب السلطة ومראה له، لكن حينما يكون أمينا مع عموم الناس فإن هذا يدل على إخلاصه لله تعالى .

ثم قال « ولا يغترب عندنا أحدا » وهذه الخصلة من الخصال التي أوصى بها العباس ابنه عبد الله رضي الله عنهما في مجالسته لأمر المؤمنين عمر رضي الله عنه حتى تظل ثقته به قائمة .

وذلك أن من تكلم في الآخرين عند المسؤولين فهو رجل وُصُولي، يحاول الوصول إلى كسب ثقة المسئول على حساب تجريحه

لأعراض إخوانه المسلمين ، وهؤلاء الذين يغتابون الناس عند المسئولين هم من النوع الذي يستهويه المجد الدنيوي ويريد الوصول إليه بدون تضحية ولا نصب ، فتلوح لهم أعراض إخوانهم كطريق سهل للوصول ، ويجدون أحياناً آذاناً صاغية ورغبة في الاستزادة فلا يزالون في رمي جثث إخوانهم والتسلق عليها للوصول إلى أهدافهم الدنيوية .

ولقد كان اختيار أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز موفقاً في هذه الشروط التي اشترط توفرها فيمن يريد صحبته ، وختمها بهذا الشرط دليل على فقهه الاجتماعي ، وإدراكه العميق لما للغيبة من آثار سيئة ، خاصة في العلاقة بين الحاكم والمحكومين وهو المجال الذي اهتم به عمر وحدد هذه الشروط من أجله .

من تذكيره بالآخرة:

إن من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله في الدعوة قوله في خطبة له : إني لم أجمعكم لأمر أحدثته ، ولكنني نظرت في أمر معادكم وما أنتم إليه صائرون فوجدت المصدق به أحق ، والمكذب به هالكا ، ثم نزل (١) .

وهذه خطبة بليغة على قصرها ، فإنها تذكّر حياة بمصير الإنسان بعد الموت ، فالذي يؤمن بالبعث بعد الموت وما قبله من عذاب القبر ونعيمه وما بعد ذلك من الحساب والمصير إلى النعيم الدائم أو إلى الشقاء الدائم ، ثم لا يُعدُّ العدة الكافية لذلك اليوم يعتبر حقاً أحق ، حيث لم يستعمل عقله في الإعداد لمستقبله بعد الموت مع إيمانه بما سيكون فيه .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٢ .

أما المكذب به فهو هالك لأن من كذب بالبعث فهو كافر مخلد في النار يوم القيامة .

من جهوده في تصحيح المفاهيم الخاطئة :

إن من مظاهر العظمة في حياة أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه جمع بين السياسة الواعية العادلة والعلم والدعوة فمن مواقفه في الدعوة قوله في إحدى خطبه : أما بعد أيها الناس فلا يطولن عليكم الأمد ، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة ، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته ، لا يستعجب من سيء ولا يزيد في حسن ، ألا لاسلامة لا مريء في خلاف السنة ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله ، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيا ، ألا وأن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإنني أعالج أمرا لا يعين عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وفصح عليه الأعجمي ، وهاجر عليه الأعرابي ، حتى حسبه دينا لا يرون الحق غيره ، ثم قال : إنه لحبيب علي أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ولا قوة إلا بالله (١) .

ففي هذه الخطبة يُذكر عمر بن عبد العزيز المسلمين بقرب يوم القيامة ، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته ، فليُنظر إلى الموت الذي قد يفاجئه في أية لحظة ، وحينها لا يستطيع أن يعتذر من أعماله السيئة التي سود بها صحيفته ، ولا يستطيع أن يستزيد من عمل صالح يبيّض به صحيفته ، ويندم حينما لا ينفع الندم على مافاتاته في حياته يوم أن كان قادرا على التوبة النصوح والتزود بالعمل الصالح .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٣ .

ثم يبين أن السلامة كل السلامة في اتباع سنة رسول الله ﷺ ، وهذا بيان لأحد عنصري العمل الصالح ، وهما الإخلاص لله تعالى ومتابعة السنة ، وهو بهذا يعالج واقعاً لا ينقص العمل فيه الإخلاص وإنما ينقصه اتباع السنة ، حيث فشت البدع بعد انقراض عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وفساد بعض الولاة الذين يحاربون بعض السنن التي لا تتفق مع أهوائهم .

ثم يبين أحد العواصم التي تعصم من انتشار البدع وفساد أمور الأمة حيث يقول « ولا طاعة لمخلوق في معصية الله » فإذا كان بعض الولاة قد تسوّل لهم نفوسهم الأمارة بالسوء أو مجاملة الآخرين بأن يأمرؤا الناس بمعصية الله تعالى ، أو يهدوا السبل لذلك فإنه لا طاعة لهم ، وبهذا ينقطع سبب مهم من أسباب سريان تلك المخالفات وهو ما لولاة الأمر من طاعة على الأمة ، فإذا تحددت هذه الطاعة بطاعة الله تعالى لم يكن لهوى النفوس تأثير على انتشار الفساد في المجتمع وتصبح الكلمة لأهل الإصلاح .

ثم يبين أن ماجرى عليه العرف من اعتبار الهارب من إمامه الظالم عاصياً ليس له اعتبار في النظر الشرعي ، لأن تصرفه هذا هو أحد الأسباب التي يتخذها للإخلاص من الظلم ، وأولى من يوصف بالمعصية من وقع منه الظلم .

وكون عمر يبين هذا وهو في أعلى موقع من المسئولية دليل على تجرده من حظ النفس ومن العصبية للقرابة وإخلاصه لله تعالى .

ثم يصف الواقع الاجتماعي الذي اختلطت فيه العادات بالدين ،

والبدع بالسُنن ، ونشأ عليه أفراد المجتمع ، وتربى على توجيهه من أسلم من العجم ، ومن هاجر من الأعراب حتى حسبوه هو الدين ، وحينما يختلط العرف الاجتماعي فيتسرب إلى العرف الإسلامي بعض الأعراف الجاهلية فإن ذلك يؤثر على تربية أفراد المجتمع ، وتتشرب قلوبهم لأن الأعراف الجاهلية تميل إلى تلبية أهواء النفوس وإن كانت منحرفة جائزة ، فيصعب بعد ذلك على المصلحين أن يخلّصوا العرف الاجتماعي الإسلامي من تلك الأخلاط المتسرّبة المتراكمة على مر الزمن ، لأن كل انحراف له أنصاره ومؤيدوه ، وليس كل أفراد المجتمع يفهمون الأمور على حقيقتها ، وحينما يقوم المصلحون بمحاولة التنقية يقوم دعاة السوء بتشويه إصلاّحهم ودعوة الناس إلى البقاء على الموروثات ، لأن كونها موروثات يعطيها في نظر بعض الناس شيئاً من القداسة ، ولكن حينما ينبع الإصلاح من أعلى قمة في المسؤولية كما هو الحال في عهد عمر بن عبد العزيز فإن نتائج الإصلاح تكون كبيرة وسريعة المفعول ، لأن معه ماخوّل الله تعالى من طاعة الرعية مادام في طاعة الله تعالى إلى جانب قوة السلطان المعهودة .

إنكاره العصبية القبلية :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحّاك بن عبد الرحمن ، وكان مما جاء في كتابه : إن ما هاجني على كتابي هذا أمر ذكر لي عن رجال من أهل البادية ، ورجال أمروا حديثاً ، ظاهر جفاؤهم ، قليل علمهم بأمر الله اغتروا فيه بالله غرة عظيمة ، ونسوا فيه بلاءه نسياناً عظيماً ،

وغيروا فيه نعمة تغييراً لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه، وذكر لي أن رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مُضَر وإلى اليمن، يزعمون أنهم ولاية على من سواهم ، وسبحان الله وبحمده ما بعدهم من شكر نعمة الله ، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصُغُر، قاتلهم الله أية منزلة نزلوا، ومن أي أمان خرجوا، أو بأي أمر لصقوا، ولكن قد عرفت أن الشقي بنيته يشقى ، وأن النار لم تُخلق باطلاً. أو لم يسمعوا إلى قوله الله في كتابه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) وقوله ﴿ الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) وقد ذكر لي مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحلف، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحلف وقال لا حلف في الإسلام قال : وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزد الإسلام إلا شدة فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الآثم الذي فيه معصية الله ومعصية رسوله، وقد ترك الإسلام حين انخلع منه وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصناً، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة، تحذيراً بعد تحذير ، وأذكرهم تذكيراً بعد التذكير وأشهد عليهم الذي هو آخذ بناصية كل دابة ، والذي هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد، وإني لم ألكم بالذي كتبت به إليكم نصحاً ، مع أنني لو أعلم أن أحداً من الناس

(١) سورة الحجرات الآية ١٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ٣ .

يحرّك شيئاً ليؤخذ له به . أو ليدفع عنه ، أحرص - والله المستعان - على مَذلتِه مَنْ كان : رجلاً أو عشيرةً أو قبيلةً أو أكثر من ذلك ، فادعُ إلى نصيحتي وماتقدمت إليكم به ، فإنه هو الرشد ليس له خفاء ، ثم ليكن أهل البر وأهل الإيمان عوناً بألستهم ، وإن كثيراً من الناس لا يعلمون . نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة في ديننا وألفتنا وذات بيننا والسلام (١) .

في هذا الكتاب يعالج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز انحرافاً خطيراً طرأ على المجتمع الإسلامي آنذاك ، وهو أن طائفة من المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ، ولم تعمّر أفكارهم بالعلم الشرعي ، قد اتخذوا لأنفسهم علاقات من روابط الجاهلية التي تقوم على القبائل والعشائر ، فيعطي الواحد منهم ولاءه لقبيلته سواء بالحق أو بالباطل وسواء بالعدل أو بالظلم ، ويجعل من قبيلته قضية يهتم لها ويدافع عنها ويدعو لها ، وقد أغفلوا بذلك الرابطة الإسلامية التي شرف الله تعالى العرب بها ، حتى أصبحوا بها إخوة في الله متحابين بعد أن كانوا أعداء متحاربين ، وسادوا بجماعتهم العالم .

وقد استفحلت هذه القضية حتى أصبح بعض المجاهدين الذين خرجوا من بلاد العرب للجهاد في سبيل الله تعالى يتحاربون بينهم بدعوى قبليّة ، مما سبب تأخراً في تقدم الجهاد ، وجراً أصحاب البلاد المفتوحة على الانتفاض على المسلمين مرة بعد مرة ، ووصلت الحال في بعض البلاد إلى أنه كلما تولى رجل له قبيلة في تلك البلاد قرب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٠٣ - ١٠٦ .

أفراد قبيلته وقواهم وتقوى بهم ، فتحدث الفتنة وتشور القبائل الأخرى ، و ماذاك إلا بسبب طرح رابطة الإسلام التي هي نعمة كبرى على المسلمين ، وإتخاذ الروابط الجاهلية بديلا عنها .
اهتمامه بشكر النعمة :

لقد تفوق عمر بن عبد العزيز بالعلم والاهتمام بالدعوة ، فمن ذلك أن عدي بن أرطاة واليه على البصرة كتب إليه يقول : لقد أصاب الناس من الخير خيراً حتى خشيت أن يبطروا ، قال : فكتب إليه عمر : إن الله تبارك وتعالى حين أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار رضي من أهل الجنة بأن قالوا ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١) فمر من قبلك أن يحمداوا الله (٢) .

وهذا يعتبر إدراكاً عالياً من عمر رحمه الله لشكر نعمة الله تعالى ، وهو مثل من فهمه العالي لتوحيد الله جل وعلا ، فإن النعمة مهما كثرت فإنه لا ضرر منها على توحيد المسلم مادام حامدا لله تعالى ، شاكراً لأنعمه ، بل إن زيادة النعمة تقتضي زيادة الحمد والشكر فيزداد العبد التقي إيماناً وعملاً صالحاً .

واستشهد عمر رحمه الله بقول أهل الجنة ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ وقد وفق في ذلك ، فليكن المسلم في الدنيا على سنن

(١) الزمر / ٧٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٩ .

أهل الجنة في الحمد والشكر ، حيث إن الله تعالى سيوفق أهل الجنة إلى أعلى المقامات .

اهتمامه بتعليم أهل البادية :

اهتم عمر بن عبد العزيز بدعوة أهل البادية إلى الإسلام وتعليمهم ، ومن أمثلة اهتمامه بهذا الجانب إرساله يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية ليعلّموا الناس السنة ، وأجرى عليهما الرزق ، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال : ما كنت لأخذ على علم علّمني الله أجراً فذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال : مانعلم بما صنع يزيد بأساً ، وأكثر الله فينا مثل الحارث (١) .

وهذا دليل على فقه عمر حيث أقر يزيد بن أبي مالك على أخذ المساعدة المادية ، لأنها في مقابل تفرغه لتعليم العلم حتى لا يكون مضطراً إلى العمل في طلب الرزق فيشغله ذلك عن التعليم ، وحيث أثنى على الحارث بن محمد على ورعه وطلبه الكمال في دينه .

وإن موقف الحارث هذا يعتبر مثلاً جيداً من أمثلة الورع وشكر النعمة حيث اعترف بنعمة الله عليه بالعلم وعرف أن من شكر ذلك أن يهب علمه لمن شاء بلا أجر ولا مكافأة من الدولة .

اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام :

إضافة إلى ما تقدم ذكره من أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٦٠ لابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوري / ٦٠ .

قد وضع الجزية عمن أسلم وماكان لذلك من أثر من دخول الكفار في الإسلام فإنه قد كتب إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الإسلام، ومن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة مائة للهجرة حيث قال: وفيها كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين - وقد كانت سيرته بلغتهم - فأسلم جيسيه بن داهر (١).

وما جاء في هذه الرواية من ذكر ملوك السند المقصود بهم من لم يدخلوا في الإسلام قبل ذلك، والمعروف في فتوح السند أن ملوك السند قد دخلوا في الإسلام ماعدا جيسيه بن داهر الذي فر إلى كشمير، فلعل صواب الرواية أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك السند والهند.

وقد جاء في خبر ذكره ابن تَغْرِي بَرْدِي ما يؤيد ذلك حيث قال: قال ابن عساكر: كتب ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز: من ملك الهند والسند ملك الأملاك، الذي هو ابن ألف ملك وتحتة ابنة ألف ملك، والذي في مملكته نهران يُنبَتان العود والكافور والأكرة التي يوجد ريحها من اثني عشر فرسخا، والذي مربوطه ألف فيل وتحت يده ألف ملك إلى ملك العرب:

أما بعد: فإن الله قد هداني إلى الإسلام فابعث إلي رجلا يعنمي، الإسلام والقرآن وشرائع الإسلام، وقد أهديت لك هدية من

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١٦٠، وقد جاء اسم هذا الملك في الكامل جيشبة بن داهر، وهو خطأ والصواب ما أثبتته كما تقدم كثيرا في فتوح السند.

المسك والعنبر والند والكافور فاقبلها ، فإنما أنا أخوك في الإسلام ،
والسلام (١).

ومن أخبار انتشار الإسلام بين الكفار في عهد عمر بن عبد العزيز
بسبب دعوته ماذكره البلاذري في أخبار فتح المغرب والأندلس قال :
ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله ولي المغرب
إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم ، فسار أحسن
سيرة ، ودعا البربر إلى الإسلام ، وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز
كتبا يدعوهم بَعْدُ إلى ذلك ، فقرأها إسماعيل عليهم في النواحي
فغلب الإسلام على المغرب (٢).

وهكذا استثمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الفتوح الإسلامية
التي سبقته للدعوة إلى الإسلام ، فإن دخول الناس في الإسلام هو
الهدف من تلك الفتوحات ، ولقد كان تجبر بعض الولاة السابقين
وظلمهم من أسباب تعويق انتشار الإسلام ، لأن الجهاد ما هو إلا فتح
طرق لنشر الإسلام ، وذلك بإزالة الحكومات الطاغية التي تحول بين
شعوبها والتعرف على الإسلام ، فإذا فتح الطريق وزالت العوائق فإن
الأمم تنجذب إلى الإسلام بقدر ماترى من أخلاق أمة الإسلام وعدالة
حاكميها ، ولقد كان عمر بن عبد العزيز في قمة الأخلاق والعدالة
واختار ولاة اجتهد في انتقائهم ليمثلوا الإسلام ويدعوا الناس إليه
بأقوالهم وأفعالهم ، فكان لذلك نتائج طيبة في إقبال الناس على
الدخول في الإسلام .

(١) النجوم الزاهرة ١ / ٢٤٠ .

(٢) فتوح البلدان / ٣٢٤ .

اهتمامه بإصلاح المجتمع :

لم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز على الدعوة ، بل كان اهتمامه كبيراً بإصلاح المجتمع والأمر بإزالة مايتفشى فيه من المنكرات ، وقد كَتَبَ في ذلك إلى أحد ولاته كتاباً طويلاً بليغاً ، نورد بعض فقراته لأهميته وعظيم فائدته ، وفيه يقول : أما بعد فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده، ولايزال الناس معصومين من العقوبات والنِّقَمَات مَأْمُوعٌ فيهم أهل الباطل ، واستخفي فيهم بالمحارم ، فلا يَظْهَرُ من أحدٍ منهم محرِّمٌ إلا انتقموا ممن فعله ، فإذا ظهرت فيهم المحارم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصي والمداهنين لهم ، ولعل أهل الإدهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم ، فإني لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نَزَلَ من كتابه عند مَثَلَةٍ أهلك بها أحداً نَجَّى أحداً من أولئك ، إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر ، ويسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يُصِبْهُمْ من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده من الخوف والذل والنِّقَم ، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر وبالظالم من الظالم ، ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما إلى النار ، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين ، أو أن يجعلنا مدهنين للظالمين .

وإنه قد بلغني أنه قد كثر الفجور فيكم وأمنَ الفساد في مدائنكم وجأهروا من المحارم بأمر لا يحب الله تعالى مَنْ فعله ، ولايرضى المداهنة فيه ، كان لا يُظْهَرُ مثله علانية قوم يرجون لله وقاراً ،

ويخافون منه غيراً ، وهم الأعززون الأكثرون من أهل الفجور ، وليس بذلك مضى أمر سلفكم ، ولا بذلك تمت نعمة الله تعالى عليهم ، بل كانوا كما قال الله تعالى ﴿ أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١) ﴿ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (٢) ولعمري إن من الجهاد في سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله تعالى بالأيدي والألسن والمجاهدة لهم فيه ، وإن كانوا الآباء والأبناء والعشائر ، وإنما سبيل الله طاعته .

ولقد بلغني أنه بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقاء التلاوم أن يقال : فلان حسن الخلق قليل التكلف ، مقبل على نفسه ، وما يجعل الله أولئك أحاسنكم أخلاقاً ، بل أولئك أسوأكم أخلاقاً ، وما أقبل على نفسه من كان كذلك ، بل أدبر عنها ، ولا سلم من الكلفة لها بل وقع فيها ، إذ رضي لنفسه من الحال غير ما أمر الله أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٣) .

ففي هذا الكتاب المهم يبين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى سنة الله جل وعلا التي لا تتخلف ، وهي أن أي مجتمع يجاهر فيه أهل الفساد بمعاصيهم ، ثم لا ينهاهم أهل الصلاح ولا ينكرون عليهم فلا بد أن يصيبهم الله تعالى بإحدى ثلاث : أن يصيبهم الله بعذاب من عنده ، أو أن يصيبهم بعذاب على أيدي من يشاء من عباده ، وقد يكون هؤلاء من الظلمة الجبارين فينتقم الله بهم من العصاة الفجار ،

(١) سورة الفتح / ١٩ .

(٢) سورة المائدة / ٥٤ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٠ .

أو يصيبهم الله بالخوف والذل وأنواع النقم والمصائب .

ويبين عمر في هذا الكتاب أن السكوت عن أهل المعاصي المجاهرين ليس من عمل الصحابة رضي الله عنهم، بل قد وصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على المخالفين المجاهرين بالمعاصي .

ويذكر أن من الجهاد في سبيل بالله تعالى الغلظة على منتهكي محارم الله والانكار عليهم بالأيدي والألسن وإن كانوا من أقرب الأقارب ، وهذا التوسع في معنى الجهاد له أدلته الشرعية، مثل قول الله جل وعلا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١) وإنما يكون جهاد المنافقين بالإنكار عليهم والشدة في معاملتهم ، ومثل ما جاء في قول رسول الله ﷺ «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألستكم» (٢) .

ويصحح عمر في هذا الكتاب مفهوماً خاطئاً عند بعض الناس، وهو وصفهم القاعد عن إنكار المنكر بأنه حسن الخلق قليل التكلف مقبل على نفسه ، حيث يبين أن هذا سيء الخلق، حيث تعامل مع المخالفين بالسلبية وعدم المبالاة مع أنهم بحاجة إلى الشفقة والرحمة ، وإنما يظهر ذلك بمحاولة إصلاحهم ، ويردُّ على قولهم بأنه قليل التكلف مقبل على نفسه بأنه لم يقبل على نفسه بمحاولة إنقاذها من النار ورفع درجتها في الجنة ، بل أقبل على هلكتها، حيث إن

(١) سورة التحريم / ٩ .

(٢) ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح من رواية أبي داود والنسائي والدارمي، وصححه الألباني - ٣٨٢١ / ٢ - ٣٨٢١ .

السكوت عن الإنكار معصية يحاسب عليها مرتكبها وقد تورده إلى النار ، وإذا كان في مفهوم الناس أن الساكت قليل التكلف فإنه قد تكلف أمراً عظيماً حيث خالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكانت كتب عمر بن عبد العزيز كلها في إصلاح المجتمع كما جاء في خبر إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : ما كان يقدم على أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قَسَم أو تقدير عطاء أو خير ، حتى خرج من الدنيا (١) .

وهذا يبين لنا ضخامة المجهود الإصلاحى الذي قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى .

ويبين رحمه الله شدة اهتمامه بالإصلاح وحماسه له بقوله : فلو كان كل بدعة يميتها الله تعالى على يدي ، وكل سنة ينعشها الله سبحانه على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً (٢) .

إباحته المراعى العامة للأمة :

أخرج ابن سعد من خبر إسماعيل بن أبي حكيم : أن عمر بن عبد العزيز لما استخلف أباح الأحماء كلها إلا النقيع (٣) .

(١) طبقات ابن سعد ٣٤٢/٥ .

(٢) المرجع السابق ٣٤٣/٥ .

(٣) طبقات ابن سعد ٣٤٥/٥ .

وأخرج أيضا من خبر عبد الرحمن بن حسن عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب : فما حُمي من الأرض أن لا يُمنع أحد مواقع القطر، فأبجح الأحماء ثم أبجها (١).

والحمى هو جزء من أرض المراعي يُحمى لشخص أو قبيلة أو أي جهة أخرى، وقد كان الحمى في عهد الخلفاء الراشدين لمصالح الأمة العامة كمواشي الصدقة، ثم توسع الناس بعد ذلك في الحمى فصار بعض الأحماء لمصالح خاصة، فلما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أبطل الأحماء الخاصة ولم يبق إلا ما فيه مصلحة للأمة عامة، وهذا من إصلاحاته الكبيرة حيث أتاح الفرصة لأفراد الأمة للاستفادة من المراعي العامة .

توجيهه إلى الإمساك عما جرى بين الصحابة :

من إصلاحاته الفكرية أنه نهى الناس عن الخوض في الخلاف الذي جرى بين الصحابة رضي الله عنهم، كما أخرج ذلك محمد بن سعد من خبر محمد بن النضر قال : ذكروا اختلاف أصحاب محمد ﷺ عند عمر بن عبد العزيز فقال : أمرٌ أخرج الله أيديكم منه ما تعملون ألسنتكم فيه (٢) ١٢

وهذا الذي وجه إليه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز هو الذي اعتمده أهل السنة والجماعة من عدم الخوض فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم من القتال والكف عن الحديث في ذلك .

(١) المرجع السابق ٣٨١/٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٨٢/٥ .

إبطاله سب عليّ على المنابر :

أخرج ابن سعد من خبر لوط بن يحيى الغامدي قال : كان الولاية من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون عليّا رحمه الله ، فلما ولي عمر أمسك عن ذلك ، فقال كثيرٌ عزة الخزاعي :

وكَيْتَ فلم تشتم عليّاً ولم تُخفَ برياً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلّمتَ بالحق المبين وإنما تَبَيَّنُ آيات الهدى بالتكلّم
فصدّقَ معروف الذي قلت بالذي فعلت فأضحى راضياً كل مسلم (١)

وذكر المؤرخ ابن الأثير أن عمر بن عبد العزيز قال : وكان أبي إذا خطب فنال من عليّ رضي الله عنه تلجلج فقلت : ياأبت إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر علي عرفتك منك تقصيراً ، قال : أوفطنت لذلك ؟ قلت : نعم ، فقال : يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده .

قال : فلما ولي الخلافة لم يكن عنده من الرغبة في الدنيا ما يرتكب هذا الأمر العظيم من أجله فترك ذلك ، وكتب بتركه وقرأ عوضه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ [النحل : ٩٠] فحل هذا الفعل عند الناس محلاً حسناً وأكثروا مدحه بسببه (٢) .

اهتمامه بإلغاء الضرائب والجزية عن أسلم :

ومن أهم إصلاحات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلغاء

(١) طبقات ابن سعد ٥ / ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٢) الكامل ٤ / ١٥٤ .

الضرائب وإلغاء الجزية عمن دخل في الإسلام ، وقد كان الولاة قبله فرضوا ضرائب على المسلمين في أراضيهم وخیولهم وخدمهم ليزيد دخل بيت المال ، كما فرضوا الجزية على من أسلم بحجة أن الناس يدخلون في الإسلام فرارا من دفع الجزية فوضع ذلك كله عمر بن عبد العزيز ، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر محمد بن قيس قال : لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل أرض ، ووضع الجزية عن كل مسلم (١).

وكذلك ما أخرجه من خبر ميمون بن مهران قال : دخل عامل لعمر بن عبد العزيز فقال : كم جمعت من الصدقة ؟ فقال : كذا وكذا ، قال : فكم جمع الذي كان قبلك ؟ قال : كذا وكذا ، فسمى شيئا أكثر من ذلك ، فقال عمر : من أين ذاك ؟ قال : يا أمير المؤمنين إنه كان يُؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدان خمسة دراهم ، وإنك طرحت ذلك كله ، قال : لا والله ما ألقيته ولكن الله ألقاه (٢).

وأخرج محمد بن سعد من خبر يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه أن حيان بن شريح عامل عمر بن عبد العزيز على مصر كتب إليه : إن أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية . فكتب إليه عمر : أما بعد فإن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً ، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل (٣).

(١) طبقات ابن سعد ٣٤٥/٥ .

(٢) المرجع السابق ٣٧٦/٥ .

(٣) المرجع السابق ٣٨٤/٥ .

وأخرج أيضا من خبر عبد الرحمن بن حسن عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب وهو خليفة إلى عامله على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي يأمره أن يدعو أهل الجزية إلى الإسلام فإن أسلموا قبل إسلامهم ووضع الجزية عنهم ، وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فقال له رجل من أشرف أهل خراسان: إنه والله ما يدعوهم إلى الإسلام إلا أن توضع عنهم الجزية، فامتحنهم بالختان. فقال : أنا أردتهم عن الإسلام بالختان ؟ هم لو قد أسلموا فحسن إسلامهم كانوا إلى الطهرة أسرع . فأسلم على يده نحو من أربعة آلاف (١).

وهكذا كانت نتيجة وضع الجزية عمن أسلم حيث دخل في الإسلام أربعة آلاف في قطر واحد .

وفي هذا الخبر موقف يذكر للبطل المجاهد الأمير الجراح بن عبد الله الحكمي حيث رفض مشورة ذلك الرجل الخراساني بامتحان من دخل في الإسلام بالختان لأن ذلك يعتبر تنفيرا لهم عن الإسلام .

ومما يبين كثرة دخول الكفار في الإسلام بعد إلغاء ضريبة الجزية عمن أسلم مذكره الحافظ ابن الجوزي من خبر جابر بن حنظلة الضبي قال: كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن العزيز : أما بعد فإن الناس قد كثروا في الإسلام ، وخفت أن يقل الخراج ، فكتب إليه عمر: فهمت كتابك ، والله لو ددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا (٢).

(١) طبقات ابن سعد ٣٨٦/٥ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٨١ .

وهذا موقف كبير من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الدعوة إلى الإسلام ورفع الظلم عن أهل الذمة .

ومما يبين دقة عمر بن عبد العزيز في تطبيق هذا الأمر ما أخرجه ابن سعد من خبر سويد بن حصين : أن عمر بن عبد العزيز كتب : إن أسلم والجزية في كفة الميزان فلا تؤخذ منه .

وكذلك ما أخرجه من خبر عمرو بن المهاجر عن عمر بن عبد العزيز في الذمي يسلم قبل السنة بيوم قال : لا تؤخذ منه الجزية (١) .

ولم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز في دخول الكفار في الإسلام على وضع الجزية عمن أسلم، بل تجاوز ذلك إلى رفع مبلغ من المال لبعض رعماء الكفار ليتألفهم على الإسلام، ومن ذلك ما ذكره ابن سعد من خبر عيسى بن أبي عطاء رجل من أهل الشام كان على ديوان أهل المدينة عن عمر بن عبد العزيز أنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام .

وكذلك ما أخرجه من خبر ابن أبي سبرة عن رجل أخبره عن عمر ابن عبد العزيز أنه أعطى بطريقاً ألف دينار استألفه على الإسلام (٢) .

إحياؤه لسنة العطاء :

لقد فرض أمير المؤمنين العطاء السنوي لكل مولود في الإسلام كما جاء في أخبار منها ما أخرجه ابن سعد من خبر سعيد بن مسلم بن بانك قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول وهو خليفة : إنه لا يحل

(١) طبقات ابن سعد ٣٥٦/٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٥٠/٥ .

لكم أن تأخذوا لموتاكم فارفعوهم إلينا، واكتبوا لنا كل منفوس (١)
نفرض له (٢).

وأخرج عن محمد بن عمر الواقدي قال: حدثني أبي قال:
ذهبتُ بي حاضنتي إلى أبي بكر بن حزم فوضع في يدي ديناراً وأنا
منفوس ، وولدت سنة مائة ، ثم كان قابل فأعطينا دينارا آخر فكان
دينارين، قال: وبه (٣) سُميت (٤) .

كما أخرج من خبر الهيثم بن واقد قال : ولدت سنة سبع
وتسعين، فاستُخلف عمر وأنا ابن ثلاث سنين فأصببت من قسمه ثلاثة
دنانير (٥).

حتى أهل السجون كان يصل إليهم عطاؤهم، كما أخرج ابن
سعد من خبر أبي بكر بن حزم قال: كنا نُخرج ديوان أهل السجون
فيخرجون إلى أعطياتهم بكتاب عمر بن عبد العزيز ، وكتب إليّ: من
كان غائباً قريب الغيبة فأعط أهل ديوانه، ومن كان منقطع الغيبة
فاعزل عطائه إلى أن يقدم أو يأتي نعيه، أو يوكل عندك بوكالة بيينة
على حياته فادفعه إلى وكيله (٦).

وبهذا أحیی عمر بن عبد العزيز سنة العطاء الإسلامي التي كانت

(١) أي مولود في حال نفاس أمه .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٤٦/٥ .

(٣) أي بعمر بن عبد العزيز .

(٤) طبقات ابن سعد ٣٤٦/٥ .

(٥) المرجع السابق ٣٤٧/٥ .

(٦) طبقات ابن سعد ٣٤٨/٥ .

في عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية رضي الله عنهم، ثم اندثرت بعد ذلك واقتصر العطاء على بعض وجهاء الأمة، وكان بنو أمية يأخذون من ذلك الشيء الكثير على مراتبهم، فلما قسم عمر بن عبد العزيز ذلك على الأمة شمل جميع أفرادهم، وهذا من أبرز مواقفه الإسلامية رحمه الله تعالى .

إغناؤه المحتاجين عن المسألة :

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر الملاء من خبر يحيى ابن سعيد الأنصاري : أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قدم عليه بعض أهل المدينة فجعل يسأله عن أهل المدينة فقال : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا كذا ؟ قال : قد قاموا منه يا أمير المؤمنين . قال : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا ؟ قال : قد قاموا منه وأغناهم الله . قال : وكان من أولئك المساكين من يبيع الحَبَطَ للمسافرين ^(١) ، فالتمس ذلك منهم بعدُ، فقالوا : قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز ^(٢) .

وهذا من نتائج المنهج العادل الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في توزيع أموال المسلمين، حيث حُرِّمَت القلة المتمكنة من الإسراف وأصبح ما يصرف لفرد من هذه الفئة يصرف لعشرات من المسلمين، فوصل المال العام إلى فئات لم يكن يصل إليها من قبل فاستغنوا به عن بعض الأعمال الشاقة التي كانت تُدر عليهم مبالغ زهيدة .

(١) الحَبَط نوع من ورق الشجر تأكله الإبل .

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ١٥١ .

اهتمامه بدفع المهور من بيت المال :

كما اهتم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأداء مهور الزواج من بيت المال لمن لم يستطع توفير ذلك ، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أبي العلاء بيَّاع المشاجب قال : قُرئَ علينا كتاب عمر بن عبد العزيز رحمه الله في مسجد الكوفة وأنا أسمع : من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله ، ومن تزوج امرأة لا يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله (١) .

وهذا قرار مهم في إصلاح المجتمع ، لأن صلاحه يتوقف على تحصين أبنائه بالزواج وظفرهم بالسعادة الزوجية ، وقد يكون المهر عائقا لبعض الفقراء دون الزواج ، خصوصا في حال غلاء المهور ، فإذا كانت الدولة توفر ذلك لمن لا يستطيع ذلك فإنها تسهم في تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد والاضطراب .

جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع :

إضافة إلى ما ذكر في هذا المجال من التسوية بين أفراد الأمة في العطاء فإنه سوى بينهم في أحقية الجلوس في المساجد ، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر يونس بن أبي شبيب قال : شهدت عمر بن عبد العزيز في بعض الأعياد وقد جاء أشرف الناس حتى حفوا بالمنبر وبينهم وبين الناس فرجة ، فلما جاء عمر صعد المنبر وسلم عليهم ، فلما رأى الفرجة أومأ إلى الناس : أن تقدموا ، فتقدموا حتى اختلطوا بهم (٢) .

(١) طبقات ابن سعد ٣٧٤/٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٨٧/٥ .

لقد دأب الولاة من بعد عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه على رفع طبقات من الناس وتمييزهم على غيرهم بالعطاء والمجالس وغير ذلك ، وسرى ذلك في الأمة حتى أصيب بعض أفرادها بالضعف ، وأصبحوا يرون أنهم ليسوا أهلا للجلوس مع أفراد الطبقات المميزة الذين أصبح الناس يطلقون عليهم اسم « الأشراف » وكان أكثر هؤلاء من بني أمية ، ولقد بلغ الضعف بعامة المجتمع إلى عدم التجاسر على الاقتراب من أفراد الطبقة الخاصة حتى في المساجد التي من المفترض فيها أن يتنافس المصلون على القرب من الإمام لما في ذلك من زيادة الثواب ، فلما تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كان من أجل اهتماماته أن يقارب بين فئات المجتمع وذلك بأن يضع من سمعة الطبقات العالية وأن يزيل كبرياءهم ، وأن يرفع من شأن الطبقات المستضعفة وأن يقوي معنوياتهم ويزيل شعورهم بالضعف ، فكان من جهوده في ذلك المساواة بينهم في العطاء ، ولا شك أن المال له أهمية كبرى في الرفع من شأن الناس وخفضهم .

وفي هذا الخبر تبين لنا اهتمامه في هذا المجال بالإشارة إلى عموم الناس ليقربوا من الخاصة ويختلطوا بهم حتى تزول تلك الفجوة التي خلفها ظلم الولاة وسوء إدارتهم .

تجرده من العصبية وإكرامه أهل البيت :

مما خالف فيه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من سبقه من ولاة بني أمية تجرده من العصبية لعشيرته ، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر جويرية بن أسماء قال : سمعت فاطمة بنت

علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ذكرت عمر بن عبد العزيز فأكثر الترحم عليه، وقالت : دخلت عليه وهو أمير المدينة يومئذ فأخرج عني كل خصي وحرسى، حتى لم يبق في البيت غيري وغيره، ثم قال: يا بنت علي والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إلي منكم، ولأنتم أحب إلي من أهل بيتي (١).

وهذا دليل على قوة إيمانه وتجرده من العصبية للعشيرة، حيث فضل قرابة رسول الله ﷺ على قرابته، فإن ذلك يعتبر من إكرام النبي ﷺ في أهل بيته.

وذكر محمد بن سعد في عدة أخبار أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمر والي المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن يقسم بين بني هاشم بالسوية عشرة آلاف دينار، وذلك من حقهم في خمس ما أفاء الله تعالى يوم خيبر، فشكروه في ذلك، وكان فيمن كتب إليه بالشكر على ذلك فاطمة بنت الحسين، رضي الله عنه، وقد ذكر ابن سعد كتابها في ذلك من رواية يحيى بن أبي يعلى قال: لما قدم المال على أبي بكر بن حزم فقسمه أصاب كل إنسان خمسين ديناراً. قال فدعتني فاطمة بنت حسين وقالت: اكتب، فكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من فاطمة بنت حسين، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فأصلح الله أمير المؤمنين وأعانه على ما ولاه وعصم له دينه، فإن أمير المؤمنين كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يقسم فينا مالاً من الكتيبة (٢) ويتحرى

(١) طبقات ابن سعد ٣٨٧/٥ - ٣٨٨.

(٢) الكتيبة جزء من خيبر فيه بساتين.

بذلك ماكان يصنع من كان قبله من الأئمة الراشدين المهديين ، فقد بلغنا ذلك وقسم فينا ، فوصل الله أمير المؤمنين وجزاه من والٍ خير ماجزى أحداً من الولاة ، فقد كانت أصابتنا جفوة واحتجنا إلى أن يُعمل فينا بالحقّ ، فأقسم لك بالله يا أمير المؤمنين لقد اختدم من آل رسول الله ﷺ من كان لاختادم له واكتسى من كان عارياً واستنفق من كان لايجد مايستنفق . وبعثت إليه رسولا ، قال : فأخبرني الرسول ، قال : فقدمتُ عليه فقراً كتابها وإنّه ليحمد الله ويشكره وأمر لي بعشرة دنانير ، وبعث إلى فاطمة بخمسمائة دينار وقال : استعيني بها على ما يَعْرُوك . وكتب إليها بكتاب يذكر فضلها وفضل أهل بيتها ويذكر ماأوجب الله لهم من الحقّ . قال : فقدمت عليها بذلك المال .

قال عبد الملك بن المغيرة : فاجتمع نفر من بني هاشم فكتبوا كتاباً وبعثوا به مع رسول إلى عمر بن عبد العزيز يتشكرون له ما فعله بهم من صلة أرحامهم وأنهم لم يزالوا مجففين منذ كان معاوية . فكتب عمر بن عبد العزيز : قد كان رأيي قبل اليوم هذا ولقد كلمت فيه الوليد بن عبد الملك وسليمان فأبيا عليّ ، فلما وليتُ هذا الأمر تحريتُ به الذي أظنه أوفق إن شاء الله (١) .

اهتمامه بالإصلاح بين الناس :

ومن جهود أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الإصلاح ما ذكره ابن عبد الحكم قال : وجاء رجل من أهل المشرق هو وابن أخ له ،

(١) طبقات ابن سعد ٣٩١/٥ .

فاختصما عند عمر بن عبد العزيز ، قال : بينما الشيخ يريد الصلة والصلح إذ غضب فدعته نفسه إلى القطيعة ، فنظر إليه عمر فقال : مارأيت أحلى منك ولا أمرّ ، ولا أبعد ولا أقرب ، بينما أنت تريد الصلة والصلح دعتك نفسك إلى القطيعة والظلم - وله شاربان قد غطّيا فاه - فقال : يامينا - لحجّام له - : أخرج هذا الشيخ من الصف ثم خذ لي من شاربه ثم اتّني به ، ففعل ، فقال عمر : هذا أطيب وأنظف مع الفطرة ، هلم إلى الصلح أيها الشيخ أنت وابن أخيك ، قالا : نعم ، فأصلح ذات بينهما ، فرفع عمر يديه إلى السماء وقال : الحمد لله (١) .

فهذا مثل من أمثلة نجاح أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الإصلاح بين الناس ، والإصلاح بين الناس باب مهم من أبواب الدعوة وفعل الخير ، وأقدر الناس عليه من خولهم الله تعالى مسئولية على المسلمين ، لما لهم من حق الطاعة ، فإذا تم الإصلاح على أيديهم فهي نعمة عظيمة تستحق الشكر والحمد ، ولذلك حمد عمر الله تعالى لما وفقه من الإصلاح بين الرجلين .

وفي اهتمام عمر بالتخفيف من شارب ذلك الرجل دليل على حرصه على تطبيق السنة رحمه الله تعالى .

نماذج من مواعظه وحكمه :

من ذلك ما ذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٢١ .

تعالى قال : وكتب عمر بن عبد العزيز إلى القرظي (١) : أما بعد فقد بلغني كتابك تعظني ، وتذكر ما هو لي حظ وعليك حق ، وقد أصبت بذلك أفضل الأجر ، إن الموعظة كالصدقة ، بل هي أعظم أجرا وأبقى نفعاً ، وأحسن ذخرا ، وأوجب على المرء المؤمن حقاً ، لكلمة يعظ بها الرجل المؤمن أخاه ليزداد بها في هدىً رغبةً خيرٌ من مال يتصدق به عليه وإن كان به إليه حاجة ، ولما يدرك أخوك بموعظتك من الهدى خير مما ينال بصدقتك من الدنيا ، ولأن ينجو رجل بموعظتك من هلكة خير من أن ينجو بصدقتك من فقر ، فعظ من تعظه لقضاء حق عليك ، واستعمل كذلك نفسك حين تعظ ، وكن كالطبيب المجرب العالم الذي قد علم أنه إذا وضع الدواء حيث لا ينبغي أعنته وأعنت نفسه ، وإذا أمسكه من حيث ينبغي جهل وظلم ، وإذا أراد أن يداوي مجنوناً لم يداوه وهو مرسل حتى يستوثق منه ويوثق له ، خشية أن لا يبلغ منه من الخير ما يتقي منه من الشر ، وكان طبعه وتجربته مفتاح علمه .

واعلم أنه لم يُجعل المفتاح على الباب لكيما يغلق فلا يفتح ، أو ليفتح فلا يغلق ، ولكن ليغلق في حينه ويفتح في حينه (٢) .

في هذا الكتاب توجيه جيد من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز نحو القيمة الكبرى للوعظ والتذكير ، حيث بين أن إهداء الموعظة للأخ المسلم أفضل من إهداء المال إليه ، ذلك لأن دعوة المسلم إلى

(١) هو أبو حمزة محمد بن كعب القرظي ، من علماء التابعين .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٣٢ - ١٣٣ .

الاستقامة على الدين تعني منحه خيري الدنيا والآخرة ، فأما الدنيا فإن الاستقامة تعني صلاح أمور الحياة والحماية من الأضرار التي تنتج عن السير على هدى العقل المجرد ، وأما في الآخرة فإن الاستقامة في الدنيا تعني رفعة الدرجات في الجنة والسلامة من عذاب النار ، فهل هناك هدية تقدم للمسلم من أخيه أعظم من موعظة هادية صادرة من القلب ؟!

كما أن في هذا الكتاب توجيهًا نحو المنهج السديد في الدعوة ، حيث بين عمر بن عبد العزيز أن الواعظ كالطبيب ، والموعظة كالدواء ، فلا بد للطبيب الناجح أن يكون عالماً بفنه حاذقاً بتطبيق ذلك العلم ، وأن يحسن اختيار الدواء وطريقة تناوله وما يحذر منه أثناء ذلك ، فكذلك الواعظ لابد أن يكون متزوداً بالعلم النافع وأن يكون مخلصاً في عمله حكيماً في عرض مواعظه .

اهتمامه بسد الدرائع الموصلة إلى الشرك :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر جعفر بن يرقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن ناساً يلتمسون الدنيا بعمل الآخرة وإن مصيرهم ومرجعهم إلى الله ، وإن ناساً من هؤلاء القصاص يصلون على خلفائهم وأمرائهم ^(١) فمروهم فليدعوا للمؤمنين عامة وليلغوا ماسوى ذلك .

قال ، وعن جعفر بن يرقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمير الجزيرة : أما بعد فإن ناساً من الناس قد التمسوا بعمل الآخرة

(١) يعني يدعون لهم .

الدنيا وإنما مصيرهم ومرجعهم إلى الله بعد الموت، وقد بلغني أن ناساً من القصاص قد أحدثوا الصلاة على أمرائهم عدلاً ما يصلون على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمر القصاص فليجعلوا صلاتهم على النبي ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدعوا ماسوى ذلك. والسلام.

قال جعفر: أحب أن لا يذكروا مع النبي ﷺ (١).

هذا الخبر يصحح خطأ حدث بعد عصر الخلفاء الراشدين، حيث دأب بعض الخطباء على ذكر الأمراء في خطب الجمعة، إما بالثناء عليهم أو بالدعاء لهم، وذلك يتضمن تسوية هؤلاء الأمراء برسول الله ﷺ الذي شرعت الصلاة عليه في الخطب، كما أنه قد يصدر من بعضهم على سبيل التعظيم لأولئك الولاة، مما قد يترتب عليه وقوع في الشرك، إضافة إلى أنه قد يصدر من بعضهم على سبيل النفاق والتقرب للولاة للحصول على شرف الدنيا كما جاء في هذا الخبر، فلذلك أصدر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمره بمنع الخطباء من ذلك حماية لتوحيد الله تعالى وحق النبي ﷺ.

كتابه لبعض عماله:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إسماعيل بن إبراهيم ابن أبي حبيبة. أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى بعض عماله، أما بعد: فإنني أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته، فإن بتقوى الله لنجا أولياء الله من سخطه، وبها تحقق لهم ولايته. وبها رافقوا أنبياءهم، وبها

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٠٣.

نضرت وجوههم ، وبها نظروا إلى خالقهم ، وهي عصمة في الدنيا من الفتن ، والمخرج من كرب يوم القيامة ، ولم يقبل ممن بقي إلا بمثل مارضي عمن مضى ولمن بقي عبرة فيما مضى ، وسنة الله واحدة ، فبادر بنفسك قبل أن تؤخذ بكظمك ، ويخلص إليك كما خلص إلى من كان قبلك ، فقد رأيت الناس كيف يموتون وكيف يتفارقون ، ورأيت الموت كيف يعجل التائب توبته وذا الأمل أمله ، وذا السلطان سلطانه ، وكفى بالموت موعظة بالغة ، وشاغلا عن الدنيا ، ومرغبا في الآخرة ، فنعوذ بالله من شر الموت وما بعده ، ونسأل الله خيره وخير ما بعده . ولا تطلبن شيئا من عرض الدنيا بقول ولا فعل تخاف أن يضر بآخرتك ، فيزرى بدينك ، ويمقتك عليه ربك وأعلم أن القدر سيجري إليك برزقك ويوفيك أملك من دنياك بغير مزيد فيه بحول منك ولا قوة ، ولا منقوصا منه بضعف . إن ابتلاك الله بفقر فتعفف في فقرك وأخبت لقضاء ربك ، واعتبر بما قسم الله لك من الإسلام ما زوى منك من نعمة الدنيا فإن في الإسلام خلفا من الذهب والفضة من الدنيا الفانية ، اعلم أنه لن يضر عبداً صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه في الدنيا من فقر أو بلاء ، وأنه لن ينفع عبداً صار إلى سخط الله وإلى النار ما أصاب من الدنيا من نعمة أو رخاء ، ما يجد أهل الجنة مس مكروه أصابهم في دنياهم ، وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها في دنياهم ، كل شيء من ذلك كأن لم يكن . تشيعون غادياً أو رائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، وتغيبونه في صدع من الأرض ، ثم تدعونه غير مستوسد ولا متمهد ، فارق الأحبة ، وخلع الأسلاب ، وسكن التراب ، وواجه الحساب ، مرتها بعمله ، فقيرا إلى ما قدم غنيا

عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء موافاته، وإيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم عندي، وأستغفر الله وأتوب إليه (١).

وصيته للقضاة :

من وصاياه في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز قال : لا ينبغي للقاضي أن يكون قاضيا حتى تكون فيه خمس خصال : عفيف ، حليم ، عالم بما كان قبله ، يستشير ذوي الرأي ، لا ييالي ملامة الناس (٢).

فالعفة تُحصن القاضي من أخذ الرشوة بأي شكل من أشكالها وتحول بينه وبين النفعيين الذين يريدون أن يُسخرُوا القاضي لمنافعهم الدنيوية .

والحلم يمنع القاضي من التفوه بما لا يليق من الكلام، ويمنحه الفرصة الكافية لاستيعاب ما يقوله الخصوم .

والعلم بما كان قبله يمنحه الخبرة القضائية، حيث يستفيد من دراسة أحكام القضاة الذين سبقوه ، وهذه أبلغ دراسة يستفيد منها القاضي لأنها دراسة ميدانية .

واستشارة ذوي الرأي مهمة جدا في التوصل إلى أحكام مدروسة من عدة عقول ، فالذي يستشير أهل الرأي يملك عقولا كثيرة بينما الذي لا يستشير لا يملك إلا رأيا واحدا .

(١) الحلية ٢٧٨/٥ - ٢٧٩ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٦٩/٥ - ٣٧٠ .

أما عدم المبالاة بملامة الناس فهو الجُنة الحصينة التي تحمي صاحبها من التأثر بأقوال المخذّلين والمعوّقين الذين ينفرون من الإصلاح إذا خالف هواهم وهوى أصحاب النفوذ من وجهاء الناس .

ولم يذكر عمر بن عبد العزيز العلم بالشريعة لأنه أمر معلوم حيث لا يصل القاضي إلى منصب القضاء إلا إذا كان من العلماء .

حثه على التقوى :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر ميسرة الحضرمي : أن عمر بن عبد العزيز كان يقول : ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله ، فمن رزق بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير^(١) .

في هذا الخبر بيان لحقيقة التقوى ، فالتقوى هي اتقاء سخط الله تعالى وعذابه ، وإنما يكون ذلك بفعل جميع الواجبات التي فرضها الله سبحانه ، لأن تركها يترتب عليه العذاب ، واجتناب جميع المحرمات التي حرمها لأن فعلها يترتب عليه العذاب ، أما النوافل فإنها يترتب الثواب على فعلها ولا يترتب العذاب على تركها ، فلو أن إنسانا صام أفضل الصيام وهو صيام يوم بعد يوم وقام أكثر الليل ثم ترك واجبا أو فعل محرما لم يكن من المتقين في الظاهر ، وإن كان قد يغفر الله له السيئات الصغيرة بالحسنات ، لكن أمر المغفرة علمه عند الله تعالى ، وفي هذا الخبر تحذير للذين يهتمون بالنوافل ويتساهلون ببعض الواجبات أو المحرمات .

(١) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢٣٠ .

كتابه إلى أهل الموسم بالبراءة من الظلم :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر جعونة بن الحارث قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الموسم أما بعد: فإني أشهد الله وأبرأ إليه في الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج الأكبر أنني برئ من ظلم من ظلمكم ، وعدوان من اعتدى عليكم، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته، إلا أن يكون وهما مني ، أو أمراً خفي علي لم أتعلمه، وأرجو أن يكون ذلك موضوعاً عني مغفوراً لي إذا عُلِمَ مني الحرص والاجتهاد، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني وأنا مُعوّل كل مظلوم، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم، ألا وإنه لادّولة بين أغنيائكم ، ولا أثره على فقرائكم في شيء من فيئكم، ألا وأيا وارد ورد في أمر يُصلح الله به خاصاً أو عاماً من هذا الدين فله ما بين مائتي دينار إلى ثلاث مائة دينار على قدر مانوى من الحسنة، وتجشم من المشقة، رحم الله امرءاً لم يتعاضمه سفر يحيي الله به حقاً لمن وراءه ، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحيّاها الله لكم، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم ، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري والسلام عليكم (١).

فهذا كتاب عظيم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في محاربة الظلم وإقرار العدل، فهو قد سعى جاهداً في رد المظالم التي

(١) حلية الأولياء ٢٩٢/٥ - ٢٩٣ .

عرف عنها، ولكنه يتوقع أن هناك مظالم لم تصل إليه، فكتب هذا الكتاب وأعلنه في موسم الحج الذي يضم وفوداً من أغلب بلاد المسلمين، لتبرأ ذمته من مظالم خفية لم تبلغه، وأعلن في هذا الكتاب براءته من الولاة الذين يقع منهم شيء من الظلم، وربط طاعتهم بطاعة الله تعالى، فهو بهذا يجعل كل فرد من أفراد الأمة رقيباً على أمير بلده، يسعى في تثبيته إذا استقام وفي تقويمه إذا انحرف.

وإذا كان المتقون في كل بلد مسئولين عن سير الحكم فيه فلن يستطيع أي حاكم - وإن ضعف إيمانه - أن يحكم بهواه ولا أن يحكم بأهواء النفعيين الذين لا يهتمهم إلا مصالحهم الخاصة.

ثم يبين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن المال في عهده لن يكون دولة بين الأغنياء ولا مستأثراً به عن الفقراء لأن الفيء يقسم على عامة المسلمين بالتساوي.

ومن أروع ما جاء في هذا الكتاب تخصيص مبلغ من المال لمن يسعى في إصلاح أمور الأمة، وفي ذلك ضمان النفقة لمن أراد أن يسافر من أجل ذلك حتى لا يقعد به التفكير في تأمين تلك النفقة.

ثم يختتم كتابه بشكر المنعم جلاً وعلاً على ما وفقه إليه من الإصلاح الذي تحقق على يديه، وهذا مثل من الإخلاص القوي لله تعالى، بحيث يتلاشى حظ النفس، ولا يكون إلا لطف الله جل وعلاً وتوفيقه ومعونته.

من خطبه في الزهد :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر الحسين بن محمد الخزازي عن رجل من ولد عثمان أن عمر بن عبد العزيز قال في بعض خطبه : إن لكل سفر راداً لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتقسي قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ، ولا يمسي بعد صباحه ، ولربما كانت بين ذلك خطفات المنيا ، فكم رأيت ورأيت من كان بالدنيا مغترا ، وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يداوي كَلَمًا^(١) إلا أصابه جرح في ناحية أخرى^(٢) أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي ، وتظهر غيلتي ، وتبدو مسكتي ، في يوم يبدو فيه الغنى والفقر ، والموارين منصوبة ، ولقد عنيتم بأمر لو عُنيت به النجوم لانكدرت ، ولو عُنيت به الجبال لذابت ، ولو عُنيت به الأرض لتشققت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرون إلى إحداهما !^(٣)

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد الله بن محمد ابن سعد الأنصاري : أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر واجتمع إليه الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فلإني لم

(١) الكلم بالفتح الجراحة والجمع كلوم .

(٢) يعني فكيف يفرح ؟

(٣) حلية الاولياء / ٢٩١ - ٢٩٢ .

أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحقق والمكذب به هالك ، ثم نزل (١) .

موعظة له في التوكل والعفة :

ذكر الحافظ ابن الجوري من خبر إسماعيل بن إبراهيم بن أبي حبيبة قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ من أخوانه في الله عز وجل ، فكان في كتابه : لاتطلبن شيئا من عرض الدنيا بقول ولا فعل تخاف أن يضر بآخرتك ويزري بدينك ويمقتك عليه ربك ، واعلم أن القدر سيسجري إليك برزقك ويوفيك أكلك من دنياك غير متزيد فيه بحول منك ولا قوة ولا تمتقص منه بضعف ، إن ابتلاك الله عز وجل بفقر فتعفف في فقرك وأخبت لقضاء ربك ، واغتر بما قسم الله لك من الإسلام ماروى عنك من نعمة دنياك ، فإن في الإسلام خلفا من الذهب والفضة والدنيا الفانية ، وأعلم أنه لا يضر عبدا صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه في الدنيا من فقر وبلاء ، وأنه لن ينفع عبدا صار إلى سخط الله وإلى النار ما أصابه من نعمة أو رخاء ، ما يجد أهل الجنة من مكروه أصابهم في دنياهم ، وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها في دنياهم ، كأن شيئا من ذلك لم يكن (٢) .

خطبة له وجيزة بليغة :

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد من خبر ابن العيزار قال : خطبنا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨٢ .

عمر بن عبد العزيز بالشام على منبر من طين فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم تكلم بثلاث كلمات فقال : أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم ، واعلموا لآخرتكم تُكفّوا دنياكم ، واعلموا أن رجلا ليس بينه وبين آدم أب مُعْرِق له في الموت^(١) ، والسلام عليكم^(٢) .

فهذه الخطبة الموجزة تشتمل على ثلاث مواعظ : الأولى صلاح العمل الظاهر ، فالأعمال التي يمارسها الإنسان في حياته هي الشيء الذي يعلنه ويراه الناس ، وما يَكِنُّه قلبه من النيات والمقاصد هو الشيء الذي يُسِرُّه ، فإذا أصلح الإنسان قلبه وطهره من النوايا السيئة صلحت أعماله الظاهرة ، فالجنايات والأعمال العدوانية مثلا هي نتيجة لما يكنه القلب من الغل والحسد والبغضاء ، والتنافس على مظاهر الحياة من لباس وفراش ومراكب ومساكن هو نتيجة لما يكنه القلب من تعظيم الدنيا وتضخيمها ، والاستقامة على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته هما نتيجة لما يكنه القلب من حبه وتعظيمه والخوف منه ، وكذلك كل الأعمال الظاهرة فإنها مبنية على سرائر القلوب .

والثانية : العمل للآخرة على أنها هي المطلب الأعلى والمقصد الأسمى ، فإذا شغل الإنسان فكره بالعمل للآخرة سخر الله تعالى له من الدنيا ما يغنيه ويكفيه من غير إعمال فكر ، وفتح له من أبواب الرزق ما لا يخطر له على بال .

(١) يعني إذا كان أباه جميعا إلى آدم قد ماتوا فإنه حتما سيموت .

(٢) الزهد للإمام أحمد / ٢٩٦ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٨٦ .

والثالثة : التذكير بالموت بأسلوب مؤثر ، فالإنسان إذا تذكر أن جميع آباءه الذين يصلونه بآدم عليه الصلاة والسلام في النسب قد ماتوا فكيف يؤمل بالبقاء ١٢ ولماذا لا يحمله ذكر الموت على الاستقامة والعمل لما بعد الموت ١٢
آخر خطبة خطبها :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر يعقوب بن عبدالرحمن عن أبيه قال: خطب عمر بن عبد العزيز هذه الخطبة وكانت آخر خطبة خطبها ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنكم لم تخلقوا عبثا ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه ليحكم بينكم ويفصل بينكم ، وخاب وخسر من خرج من رحمة الله وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أن لا يأمن غدا إلا من حذر الله اليوم وخافه وباع نافدا بياق ، وقليلًا بكثير ، وخوفا بأمان؟ ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وستصير من بعدكم للباقيين ، وكذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين ، ثم إنكم تشيِّعون كل يوم غاديا ورائحا ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، حتى تغيبوه في صدع من الأرض ، في شق صدع ، ثم تتركوه غير ممهد ولا موسد ، فارق الأحباب ، وباشر التراب ، ووجهٌ للحساب ، مرتهن بما عمل غني عما ترك ، فقير إلى ما قدم . فاتقوا الله وموافاته وحلول الموت بكم ، أما والله إنني لأقول هذا وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي واستغفر الله ، وما منكم من أحد يُبلغنا حاجته لا يسع له ما عندنا إلا تمنيت أن يُبدأ بي وبخاصتي حتى يكون عيشنا وعيشه واحدا ، أما والله لو أردت غير

هذا من غضارة العيش لكان اللسان به ذلولا ، وكنت بأسبابه عالما ،
ولكن سبق من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ،
ونهى فيها عن مغضيته ثم رفع طرف ردائه فبكى وأبكى من حوله (١) .

فهذه خطبة بليغة في التذكير بالموت والعمل للآخرة ، ولقد كان -
رحمه الله - نذيرا للعالم في عصره ، ذلكم العصر الذي غرق أكثر
الناس فيه بالتوجه نحو مظاهر الحياة الدنيا واشتغلوا بذلك عن ذكر
الموت وما بعده ، فما زال يلح على الناس بالتذكير بمختلف الأساليب
والمناسبات حتى أحى الله به قلوبا ميتة وذكّر الله به قلوبا غافلة ،
وحكم له بالصلاحيات ملوك العالم من غير المسلمين فضلا عن المسلمين ،
ثم مازالت سيرته الزكية بعد موته مادة غزيرة في الدعوة إلى الله
تعالى وإصلاح المجتمعات الإسلامية .

فهمة لشمول العبادة :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر علي بن زيد بن
جدعان قال : شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب بخناصرة فسمعته
يقول : ألا إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم (٢) .

وأخرج من خبر عبد العزيز بن أبي رواد قال : قال عمر بن
عبد العزيز : الكلام بذكر الله حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل
العبادة (٣) .

(١) حلية الأولياء ٢٩٥/٥ وانظر سيرة عمر لابن الجوري / ١٩٠ .

(٢) حلية الأولياء ٢٩٦/٥ .

(٣) حلية الأولياء ٣١٤/٥ .

فهذا فهم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لشمول العبادة لكل أمور الدين، فإن إطلاق العبادات على أمور الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام والحج إطلاق اصطلاحى لتمييزها عن أمور الدين الأخرى، ولا يعني ذلك عدم شمول العبادة لسائر أمور الدين، ومن أبرر الأدلة على شمول العبادة قول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فإن العبادة في الآية تشمل جميع أمور الدين. **تعزيته البليغة لأهل صديقه :**

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر علي بن الحسين قال : كان لعمر بن عبد العزيز صديق ، فأخبر أنه قد مات ، فجاء إلى أهله يعزيهم فصرخوا في وجهه فقال لهم عمر : إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم وإن الذي يرزقكم حي لا يموت ، وإن صاحبكم هذا لم يسد شيئا من حُفركم ، إنما سد حفرة نفسه ، وإن لكل امرئ منكم حفرة لابدَّ والله أن يسدها ، إن الله تعالى لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب ، وعلى أهلها بالفناء ، ولا امتلأت دار حَبْرة إلا امتلأت عبرة ، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا ، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها ، فمن كان منكم باكيًا فليبك على نفسه ، فإن الذي صار إليه صاحبكم اليوم كلكم يصير إليه غدًا (١).

فهذا نموذج رائع في التعزية ، أكد فيه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى على أن الراق هو الله جل وعلا وحده ، فلايجوز لأهل الميت أن يشعروا بأنهم قد فقدوا بمفقده مصدر رزقهم ،

(١) حلية الاولياء ٣٢٩/٥ - ٣٣٠ ، وانظر تاريخ دمشق ٢٣٠ / ٤٥ .

وذكرهم بأن مَيِّتهم قد سار إلى مآل هم صائرون إليه ، وإنما الفرق بينهم وبينه أنه قد سبقهم إلى ذلك المصير ، فليشتغل كل إنسان بالتفكير بالمصير الذي هو صائر إليه عما قريب ، وإن في ذلك لشغلا عن الحزن على الفقيد ، كما ذكرهم بأن الدنيا ليست دار سرور دائما فلا ينبغي للمسلم أن يتألم لما يصيبه فيها من مصائب ، وإنما هي دار ابتلاء وعمل ونصب ، فليس من خلق المسلم أن يكون هلوعا جزوعا عند مواجهة المصائب .

مثل من صبره ويقينه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سهل بن الربيع بن سبرة حدثني أبي عن أبيه الربيع قال : لما هلك عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وسهل بن عبد العزيز ومزاحم مولى عمر في أيام متتابعة ، دخل الربيع بن سبرة عليه وقال : أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين ، فما رأيت أحداً أصيب أعظم من مصيبتك في أيام متتابعة ، والله مارأيت مثل ابنك ابنا ، ولا مثل أخيك أخا ، ولا مثل مولاك مولى قط ، فطأطأ عمر رأسه ، فقال لي رجل معي على الوسادة : لقد هيئت عليه ، قال ثم رفع رأسه فقال : كيف قلت الآن ياربيع ؟ فأعدت عليه ماقلت أولا ، قال : لا والذي قضى عليه - أو قال عليهم - بالموت ، ماأحب أن شيئا من ذلك كان لم يكن .

وأخرج أيضا من خبر عثمان بن عبد الحميد حدثني أبي . قال : بلغنا أن ابنا لعمر بن عبد العزيز مات صغيرا ، فدخل عليه الناس يعزونه وهو ساكت لايتكلم طويلا حتى قال بعضهم إن ذا لمن جزع ،

قال ثم تكلم فقال : الحمد لله دخل ملك الموت حجرتي فذهب ببعض ، وكأنه ذهب بي (١).

فهذا مثال على الرضى بقضاء الله وقدره والصبر على المصائب ، فبالرغم من أن هؤلاء الثلاثة كانوا هم خاصته الذين كان يتقوى بهم ويستشيرهم ، وبالرغم من تتابع المصيبة بفقدهم فإنه قد بدا جميل الصبر راسخ اليقين مؤمنا بأن الأمور كلها بيد الله عز وجل وأن الخير فيما قضاه وقدره .

وفي الخبر الثاني نجده يحمد الله تعالى على أن ملك الموت دخل حجرتة فذهب ببعضه لما مات ابنه فكأنه هو الذي ذهب به ، وفي ذلك توطين للنفس على مواجهة الموت واشتغال بانتظاره والاستعداد لما بعده بالعمل عن الحزن على فقد أحد الأقارب وإن كان عزيزا على النفس .
جوابه على من قال أبقاك الله :

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل من خبر طلحة بن يحيى قال : كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز فجاءه رجل فقال له : يا أمير المؤمنين أبقاك الله ما كان البقاء خيرا لك ، فقال : أما ذاك فقد فُرِغَ منه ولكن قل : أحياك الله حياة طيبة وتوفاك مع الأبرار (٢).

فهذا جواب سديد ، لأن الدعاء بالبقاء وطول العمر لاعمى له ،

(١) حلية الأولياء ٥ / ٣٣٠ .

(٢) الزهد للإمام أحمد / ٢٩٧ - ٢٩٨ ، وانظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٥ / ٣٣٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٠٦ .

حيث إن الإنسان يُكتب له أجله وهو في بطن أمه ، وإنما ينبغي أن يُدعى للمسلم بالسعادة في الدنيا والآخرة .

من مواعظه البليغة :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر خالد بن دينار قال قال عمر لميمون بن مهران : ياميمون لاتدخل على هؤلاء الأمراء وإن قُلتَ أمرهم بالمعروف ، ولاتخلونَّ بامرأة وإن قُلتَ أقرئها القرآن ، ولاتصلنَّ عاقا فإنه لن يصلك وقد قطع أباه (١) .

فهذه ثلاث مواعظ في غاية الجودة :

فالأولى : النهي عن الدخول على الأمراء ، والمحذور الذي خافه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من ذلك أن يتأثر من دخل عليهم بشيء من مظاهر الحياة التي يتغالى كثير منهم فيها ، فيكون ذلك سببا في فتنة من دخل عليهم ، أو يقصر في إنكار المنكرات عليهم أو يوافقهم في بعض ذلك فيكون آثما ، ولعل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى من واقع تجربته مع الأمراء قد رأى فيمن يدخلون عليهم خللا في دينهم .

وهذا الأمر لا يؤخذ على إطلاقه في جميع الأحوال ، بل قد يكون الدخول على الأمراء واجبا لإنكار المنكر فيما إذا كان ذلك متعينا على فرد أو طائفة من المسلمين ، وقد يكون مستحبا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما إذا لم يكن متعينا على الشخص ، وقد يكون محرما فيما إذا تأكد الإنسان من ضرورة وقوعه في الإثم ، وقد يكون

(١) حلية الأولياء ٢٤٥/٥ .

مكروها فيما إذا احتمل الأمر ذلك، وقد يتردد الأمر بين الوجوب والتحريم، وذلك فيما إذا تعين عليه إنكار المنكر وعلم أنه سيقع في الإثم، أو يتردد الأمر بين الاستحباب والكراهة، وذلك فيما إذا لم يتعين عليه إنكار المنكر وخشي من الوقوع في الإثم، وفي كلتا الحالتين فالأمر يحتاج إلى اجتهد العالم في ترجيح مصلحة الإسلام والمسلمين.

والثانية : النهي عن أن يخلو الرجل بالمرأة وهو من غير محارمها، وإن كان الدافع لذلك إقراءها القرآن، وهذا واضح في الشريعة ولا يجوز التساهل فيه لقول رسول الله ﷺ « لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم » أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١).

والثالثة : عدم وضع الثقة بمن عاق والديه ، لأنه قد خان الأمانة ولم يتخلق بخلق الوفاء لمن رعياء وخدماء وبذلا له مهجمها في الصغر وهو في أمس الحاجة إليهما ، فإذا عاق الإنسان والديه أو أحدهما لم يكن أمينا معهما ولاوفيا لهما فأحرى به أن لا يكون أمينا ولاوفيا مع غيرهما .

موعظته لمن سأله شيئا من الدنيا :

قال ابن عبد الحكم : وكان رجل من قريش - وكانت الخلفاء لا ترده عن حاجة - فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله حاجته فقال عمر

(١) صحيح البخاري ، رقم ٥٢٣٣ ، النكاح (٩/ ٣٣٠) صحيح مسلم ، رقم ١٣٤١ ، الحج (ص ٩٧٨) .

ابن عبد العزيز : لايجوز هذا ، وردة عنها ، فخرج مغضبا فناده
عمر فظن أنه قد بدا له في قضاء حاجته فقال له : ياأبا خالد فرجع
إليه فقال له : إذا رأيت شيئا من الدنيا فأعجبك فاذكر الموت فإنه يقلله
في نفسك ، وإذا كنت في شيء من أمر الدنيا قد غمك ونزل بك
فاذكر الموت فإنه يسهله عليك ، وهذا أفضل من الذي طلبت (١) .

نماذج من أدبه وحكمته :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر المدايني قال : دخل حريث بن
عثمان الدجني مع أبيه على عمر بن عبد العزيز فسأل الأب عن الابن
ثم قال له : علمه الفقه الأكبر ، قال : وما الفقه الأكبر ؟ قال : القناعة
وكف الأذى (٢) .

والفقه الأكبر بمعنى الفهم الأكبر في الدين ، ومن تأمل في هذين
الأمرين اللذين اختارهما عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يجد
أنهما من أمور الدين المهمة ، فالذي يُرزق القناعة يتورع عن اكتساب
المال من طريق المحرمات والشبهات ، ويعف نفسه عن السؤال والتطلع
إلى ما في أيدي الناس ، ويسلم من أخلاق السوء كالحسد والغل
والحقد ، أما كف الأذى فهو أن يعصم الإنسان جميع جوارحه من
الاعتداء على المسلمين ، ومن أبرر ذلك حفظ اللسان من الغيبة
والنميمة وغير ذلك من فلتات اللسان ، ويكفي في بيان أهمية كف
الأذى عن المسلمين أن النبي ﷺ اعتبر من طبق ذلك هو المسلم حقا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٠٥ .

كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله أي الإسلام أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده « (١) .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان قال : كنا عند عمر بن عبد العزيز فقال رجل لرجل : تحت إبطك ، فقال عمر : وما على أحدكم أن يتكلم بأجمل ما يقدر عليه ، قالوا : وما ذاك ؟ قال : لو قال : تحت يدك كان أجمل (٢) .

فهذا توجيهه إلى حسن اختيار الألفاظ الذي تؤدي المقصود ولا يتقزز الناس من سماعها ، فذلك من الأدب في الحديث .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي هاشم القرشي قال : قال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز قد روجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك ، فقال وصلك الله يا أمير المؤمنين فقد أجزلت العطية وكفيت المسألة ، فأعجب به عبد الملك ، فقال بعض أولاد عبد الملك هذا كلام تعلمه فأداه ، فدخل على عبد الملك يوما فقال : يا عمر كيف نفقتك ؟ فقال الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين ، قال فما هما ؟ قال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] فقال عبد الملك : من علمه هذا (٣) .

(١) صحيح البخاري ، رقم ١١ ، الإيمان (٥٤/١) ، صحيح مسلم رقم ٤٠ ، الإيمان (ص ٦٥) .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٠٧ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٢ .

فهذا الخبر يدل على سرعة بديهته عمر بن عبد العزيز ومقدرته على اختيار الألفاظ الجزلة والمعاني العميقة ، وسرعة الاستشهاد بالآيات القرآنية المناسبة ، وقد كان عبد الملك بن مروان معجبا بفكره وحكمته وأدبه .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر علي بن بكار قال قال عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس فاقربوا منه فإنه يُلْقَى الحكمة (١).

والمقصود بالحكمة وضع الشيء في موضعه من قول أو عمل ، وهي تنتج عن التفكير السوي الذي يأتي نتيجة التأمل الطويل العميق ، وهذا التأمل لا يحصل غالبا إلا بشيء من العزلة والجو الهادئ البعيد عن الضجيج والارتباطات الاجتماعية التي تشغل الفكر بالأمور الحالية ، ولاترك للفكر مجالا واسعا للتأمل العميق .

وليس هذا الأمر على إطلاقه فرمما يُلْقَى الإنسان الحكمة مع كثرة الارتباطات الاجتماعية لكونه ذا مقدرة عالية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولكن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى لاحظ بتجاربه أفرادا من الناس يمتازون بالحكمة ، ورأى أن أبرز صفاتهم كثرة الصمت وحب العزلة فعبر عن نتائج تجاربه التي رآها .

تأثره من شعر الزهد واستشهاده به :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد الصمد بن عبد الأعلى قال : كان عمر بن عبد العزيز وجه عبد الأعلى بن أبي عمرة رسولا إلى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨١ .

طاغية الروم يدعوه إلى الإسلام ، فقال له عبد الأعلى : ياأمير المؤمنين ائذن لي في بعض ولدي يخرج معي - وكان أبا عشرة - فقال له : ومن يخرج معك من ولدك ؟ فقال عبد الله . فقال إنني رأيت عبد الله يمشي مشية مقتها ، وبلغني أنه يقول الشعر . فقال عبد الأعلى : ياأمير المؤمنين أما مشيته فغريزة هي فيه : وأما الشعر فإنما هو نواحة ينوح على نفسه ، فقال مر عبد الله يأتيني العشية وأخرج معك غيره ، فراح به إليه فدخل عليه فاستنشدته ، فأنشدته :

تجهزي بجهاز تبلغين به

يانفس قبل الردى ، لم تخلقي عبثا

وسابقي بغتة الآجال وانكمشي

قبل اللزوم فلا منجى ولا غوثا

ولا تكذبي لمن يبقى وتفترقي

إن الردى وارث الباقي وما ورثا

واخشي حوادث صرف الدهر في مهل

واستيقظي لاتكوني كالذي بحثا

عن مديّة كان فيها قطع مدته

فوافت الحرث موفورا كما حرثا

لاتأمني فجّج دهر مترف ختل

قد استوى عنده من طاب أو خبثا

يَارُبُّ ذِي أَمَلٍ فِيهِ عَلَى وَجَلٍ
أَضْحَى بِهِ آمِنًا أَمْسَى وَقَدْ حَدَّثَا
مَنْ كَانَ حَيْثُ تَصِيبُ الشَّمْسُ جِبْهَتَهُ
أَوِ الْغُبَارُ يَخَافُ الشَّيْنُ وَالشَّعْثَا
وَيَأْلَفُ الظِّلَّ كَيْ تَبْقَى بِشَاشَتِهِ
فَسَوْفَ يَسْكُنُ يَوْمًا رَاغِمًا جَدَّثَا
فِي قَعَرٍ مُوَحَّشَةٍ غُبْرَاءَ مَقْفَرَةٍ
يَطِيلُ تَحْتَ الثَّرَى فِي قَعَرِهَا اللَّبَّثَا

قال : فبكى عمر من شعره (١) .

وأخرج الحافظ أبو نعيم من خبر وهيب بن الورد قال : كان عمر
ابن عبد العزيز كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات :
يُرَى مُسْتَكِينًا وَهُوَ لِلَّهِ مُقَاتٍ
به عن حديث القوم ما هو شاغله
وَأَزْعَجَهُ عِلْمٌ عَنِ الْجَهْلِ كُلِّهِ
وما عالم شيئا كمن هو جاهله
عبوس عن الجهال حين يراهم
فليس له منهم خَدِينٌ يَهَارِلُهُ

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٩٥ .

تذكّر مايبقى من العيش آجلاً
فأشغله عن عاجل العيش آجله
وأخرج أيضاً من خبر القاسم بن غزوان قال : كان عمر بن
عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات :

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم
وكيف يطيق النوم حيران هائم
فلو كنت يقظان الغداة لخرقتُ
محاجر عينيك الدموع السواجم
بل أصبحت في النوم الطويل وقد دنت
إليك أمور مفضعات عظامم
نهارك يامغرور سهو وغفلة
وليلك نوم والردى لك لارم
يغرك مايبلى وتُشغل بالهوى
كما غُرَّ باللذات في النوم حالم
وتُشغل فيما سوف تكره غِبَّه
كذلك في الدنيا تعيش البهائم (١)

(١) حلية الأولياء ٣١٨/٥ - ٣٢٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن
الجزري/ ١٩٣ .

إيمانه بالقضاء والقدر :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر الحكم بن عمر قال : شهدت عمر يقول لحرسه : إن بي عنكم غنى ، كفى بالقدر حاجزاً وبالأجل حارساً ، ولا أطرحكم من مراتبكم ليجري لكم سنة بعدي ، من أقام منكم فله عشرة دنانير ومن شاء فليلحق بأهله (١) .

وأخرج محمد بن سعد من خبر أرطاة بن المنذر قال : كان عند عمر بن عبد العزيز نفر يسألونه أن يتحفظ في طعامه و يسألونه أن يكون له حرس إذا صلى لثلاً يثور ثائر فيقتله ، ويسألونه أن يتنحى عن الطاعون ، ويخبرونه أن الخلفاء قبله كانوا يفعلون ذلك . قال لهم عمر : فأين هم ؟ فلمّا أكثروا عليه قال : اللهم إن كنت تعلم أنني أخاف يوماً دون القيامة فلا تؤمنّ خوفي (٢) .

وقال أبو محمد ابن عبد الحكم وكان عمر بن عبد العزيز يدعو بهذا الدعاء : اللهم رضني بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت . وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما برح في هذا الدعاء حتى لقد أصبحت ومالي في شيء من الأمور هوى إلا في مواضع القضاء (٣) .

موقفه من الشعراء المداحين :

قال الحافظ ابن كثير : وقال الهيثم بن عدي عن عوانة بن الحكم

(١) تاريخ دمشق ٢١٩/٤٥ - ٢٢٠ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٩٨/٥ ، وانظر حلية الأولياء ٢٩٢/٥ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ١١١ .

قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء فمكثوا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم ولا يلتفت إليهم ، فساء لهم ذلك وهمّوا بالرجوع إلى بلادهم ، فمر بهم رجاء بن حيوة فقال له جرير :

يا أيها الرجلُ المرخي عمامتهُ هذا رمانك فاستأذن لنا عمرا
فدخل ولم يذكر لعمر من أمرهم شيئًا ، فمرّ بهم عدي بن أرطاة
فقال له جرير منشداً :

يا أيها الراكبُ المرخي مطيتهُ هذا رمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيةُ أني لدى الباب كالمصفود في قرن^(١)
لاتنسَ حاجتنا لاقيتَ مغفرةً قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني
فدخل عدي على عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين
الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة ، فقال : ويحك
يا عدي ، مالي وللشعراء ، فقال : يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قد
كان يسمع الشعر ويجزي عليه ، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحة
فأعطاه حلة ، فقال له عمر : أتروي منها شيئاً ؟ قال : نعم فأنشده :
رأيتك يا خير البرية كلها نشرت كتاباً جاء بالحق معلماً
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا عن الحق لما أصبح الحق مظلماً
ونورت بالبرهان أمراً مدلساً^(٢) واطفأت بالقرآن ناراً تضرماً
فمن مبلغ عني النبي محمداً وكلُّ امرئ يُجزي بما كان قدماً

(١) يعني كالموثق في قيد .

(٢) مدلساً : مخادعاً - كاذباً .

أَقَمْتَ سَبِيلَ الْحَقِّ بَعْدَ اعْوِجَاجِهِ وَكَانَ قَدِيمًا رُكْنُهُ قَدْ تَهَدَّمَا
تَعَالَى عُلُوًّا فَوْقَ عَرْشِ إِلَهِنَا وَكَانَ مَكَانُ اللَّهِ أَعْلَى وَأَعْظَمَا
فَقَالَ عُمَرُ : مَنْ بِالْبَابِ مِنْهُمْ ؟ فَقَالَ : عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، فَقَالَ
أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ :

ثُمَّ نَبَهْتَهَا فَهَبَّتْ كَعَابَا (١) طِفْلَةٌ مَا تَبِينُ رُجْعَ الْكَلَامِ
سَاعَةً ثُمَّ إِنَّهَا بَعْدُ قَالَتْ وَيَلْنَا قَدْ عَجَلْتَ يَا ابْنَ الْكَرَامِ
أَعْلَى غَيْرَ مَوْعِدٍ جِئْتَ تَسْرِي تَتَخَطَّى إِلَى رُؤُوسِ النِّيَامِ
مَا تَجَشَّمْتَ مَا تَرِيدُ مِنَ الْأَمْرِ وَلَا حَيْثَ طَارَقًا لَخْصَامِ
فَلَوْ كَانَ عَدُوُّ اللَّهِ إِذْ فَجَرَ كَتَمَ وَسْتَرَ عَلَى نَفْسِهِ ، لَا يَدْخُلُ وَاللَّهِ
أَبَدًا ، فَمَنْ بِالْبَابِ سِوَاهُ ؟ قَالَ : هَمَامُ بْنُ غَالِبٍ - يَعْنِي الْفَرَزْدَقَ -
فَقَالَ عُمَرُ : أَوَ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي شَعْرِهِ :

هَمَا دَلْيَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَ بَارِ أَقْتَمِ الرِّيشِ كَاسِرِهِ
فَلَمَّا اسْتَوَتْ رَجُلَايَ بِالْأَرْضِ قَالَتَا أَحْيِي [فَيُرْجَى] أَمْ قَتِيلٌ نَحَازِرُهُ
لَا يَطَأُ وَاللَّهِ بَسَاطِي وَهُوَ كَاذِبٌ ، فَمَنْ سِوَاهُ بِالْبَابِ ؟ قَالَ :
الْأَخْطَلُ ، قَالَ : أَوَ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ :

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعًا وَلَسْتُ بِأَكْلٍ لَحْمِ الْأَضْحَاكِ
وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ عَيْسًا بِكَوْرٍ (٢) إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ

(١) كَعَابَا : هِيَ الَّتِي نَهَدَتْ ثَدْيَهَا .

(٢) عَيْسًا : الْإِبِلُ الْبَيْضُ يَخَالِطُ بَيَاضَهَا سَوَادَ خَفِيفٍ .

ولستُ بزائرٍ بيتًا بعيدًا بمكةً أبتغي فيه صلاحي
ولستُ بقائم كالعير^(١) أدعو قبيلَ الصبحِ حيَّ على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً وأسجد عند منبلج الصباح
والله لا يدخل علي وهو كافر أبداً^(٢)، فهل بالباب سوى من
ذكرت؟ قال: نَعَمْ الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:
اللَّهُ بيني وبين سيدها يفرُّ مني بها وأتبعه
فما هو دون من ذكرت، فمن ههنا غيره؟ قال جميل بن معمر،
قال: الذي يقول:

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نَمُتُ يوافق في الموتى خريجي خريجها
فما أنا في طول الحياة براغبٍ إذا قيل [قد] سوى عليها صفيحها
فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بذلك صالحاً
ويتوب، والله لا يدخل علي أبداً، فهل بالباب أحد سوى ذلك؟
قلت: جرير، قال أما إنه الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام
فإن كان لابد فأذن لجرير، فأذن له فدخل على عمر وهو يقول:
إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة للإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووفاءه حتى ارعوى وأقام ميل المائل

(١) العير الحمار .

(٢) من المعروف أن الأخطل نصراني، ولو كان مسلماً لأقيم عليه الحد بذلك .

إنني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفسُ مولعةٌ بحب العاجل
فقال له : ويحك يا جرير ، اتق الله فيما تقول ، ثم إن جريراً
استأذن عمر في الانشاد فلم يأذن له ولم ينهه ، فأنشده قصيدة طويلة
مدحه بها ، فقال له : ويحك يا جرير لا أرى لك فيما ههنا حقاً ،
فقال : إني مسكين وابن سبيل ، قال : إنا ولينا هذا الأمر ونحن
لا نملك إلا ثلاثمائة درهم ، أخذت أم عبد الله مائة وابنها مائة وقد
بقيت مائة ، فأمر له بها ، فخرج على الشعراء فقالوا : ما وراءك
يا جرير ؟ فقال : ما يسوءكم ، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو
يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :

رَأَيْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفْزُهُ وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الْجِنِّ رَاقِياً^(١)

هذا خبر مهم في سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ،
وقد اخترته لأنه يمثل منهجاً جديداً في ذلك العهد في معاملة الشعراء
الذين يقصدون الأمراء بشعرهم فيمدحونهم طلباً لرفدهم ، وقد كان
هذا الاتجاه مشهوراً في الجاهلية ، ويدخل فيه الغلو والمبالغات والكذب .

ولما قامت دولة الإسلام في المدينة النبوية وفد على النبي ﷺ عدد
قليل جداً من الشعراء ومدحوه بقصائدهم ووصل بعضهم بشيء رمزي
هو عبارة عن اللباس ونحوه تكريماً لهم ، وكان مدحهم بالدرجة
الأولى إشادة بالإسلام ، وقد كان إقرار النبي ﷺ إياهم لأهداف
دعوية منها : أن الشعر كان له - آنذاك - دور كبير في رفع القبائل
والدول وخفضها . فكان النبي ﷺ يقصد من إقرارهم وتكريمهم أن

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٧٣ - ٢٧٥ .

يرفعوا بشعرهم سمعة دولة الإسلام ، وذلك نوع من الجهاد الذي كان يحارب به النبي ﷺ أعداءه ، ولقد أدرك كفار مكة خطورة ذلك عليهم فمنعوا الأعشى ، الشاعر المشهور ، من الوفاة على النبي ﷺ ومدحه بقصيدته المشهورة كما تقدم .

ومنها أنه كان ﷺ يتألف بذلك أولئك الشعراء ليدخلوا في الإسلام ، أو ليثبتوا عليه إن كانوا قد أسلموا .

ولقد انقطع هؤلاء الشعراء حينما عزت دولة الإسلام ولم يعد هناك حاجة لتألف البارزين من العرب إلى الإسلام ، وقد تقدم لنا إنكار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على خالد بن الوليد - رضي الله عنهما - حينما قصده الأشعث بن قيس .

ثم عاد الشعراء في عهد بني أمية إلى انتجاع الأمراء ومدحهم وبالغوا في ذلك كثيراً ، إلى أن تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فقصدوه كما كانوا يقصدون من قبله من الأمراء ، فكان له هذا الموقف الإسلامي النبيل المذكور في هذا الخبر .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز يدرك المقاصد الدعوية التي من أجلها أقر النبي ﷺ الشعراء الذين وفدوا عليه ، ويعلم أن تلك المقاصد قد انتهت وخلفها مقاصد دنيوية تُفسد بنية المجتمع ، وتشجع على سيادة الأخلاق السيئة ، من الكذب والتغريب والنفاق ، فقطع تلك العادة السيئة ولم تعد إلى الظهور إلا بعد وفاته .

ولقد دل هذا الخبر على أن عمر بن عبد العزيز كان ضليعا في الأدب حافظا للشعر، وإن سرعة إدراكه لسوءات أولئك الشعراء

الواقفين على بابه وروايته شيئاً من أشعارهم التي انحطوا فيها دليل على غزارة حفظه وتمييزه بين جودة المقاصد الشعرية ورداءتها .

ولقد كان إذنه لأحد أولئك الشعراء بالدخول عليه وهو جرير اليربوعي التميمي من أجل أن يكون رسولا إلى الشعراء لإعلامهم بالمنهج الإسلامي الذي يسير عليه عمر بن عبد العزيز ، ولقد أدى هذه الرسالة حيث غادر أولئك الشعراء باب أمير المؤمنين ولم يعودوا ، ولقد كان اختيار جرير لأنه كان أقرب أولئك الموجودين إلى التقوى .

ولقد اعترف جرير بأن الشياطين كانوا من وراء الشعراء في استفزاز الأمراء الممدوحين ، وأن عمر بن عبد العزيز قد تميز بحصانته من أولئك الشياطين .

اهتمامه بالجهاد في سبيل الله تعالى :

الناظر إلى سيرة عمر بن عبد العزيز من حيث اهتمامه الكبير المتواصل في إصلاح دولة الإسلام من داخلها يظن أنه قد أوقف جهاد الأعداء لشغله أكثر وقته وفكره في الإصلاحات الداخلية، خصوصا مع معرفة اهتمامه بإعادة جيش مسلمة من القسطنطينية، ولكننا نراه مع قيامه بتلك الإصلاحات الكبيرة قد اهتم بجهاد الأعداء ولكن بأسلوب يضمن أكبر قدر ممكن من سلامة جنود الإسلام، وقد رُويت في ذلك أخبار منها ما ذكر الإمام الطبري بقوله : وفي هذه السنة - يعني سنة مائة - أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص الصائفة (١).

(١) تاريخ الطبري ٥٥٦/٦ ، والصائفة هي الحملة العسكرية التي تخرج في الصيف .

ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد من خبر خالد بن ربيعة عن أبيه قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إذا دخلت الصائفة فلا تترك أحدًا يدخل في أثرهم إلا في قوة وجماعة من الرجال والخيل والعدد (١).

وكذلك ما أخرجه من خبر صفوان بن عمرو قال: جاءنا كتاب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة إلى عامله: أن لا تقاتلن حصنا من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فاكف عنهم، وإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء.

وأخرج أيضا من خبر المنذر بن عبيد قال: كتب إلي عمر بن عبد العزيز في الذمي يغزو مع المسلمين فيؤمن العدو، فكتب: لا يجوز أمانه، وقال: إنما قال رسول الله ﷺ: يجير على المسلمين أديانهم وهذا ليس بمسلم (٢).

(١) طبقات ابن سعد ٣٥٣/٥.

(٢) طبقات ابن سعد ٣٥٥/٥.

٥ - اهتمامه بمكارم الأخلاق

نفوره من الاتهام بالكذب :

ل نجد من مواقف عمر بن عبد العزيز تقديره البالغ لمكارم الأخلاق وغضبه واشمئزازه من مساوئها ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم من أن عمر خرج مع سليمان بن عبد الملك يريد الصائفة^(١) . فالتقى غلمانه وغلمان سليمان على الماء فاقتتلوا ، فضرب غلمان عمر غلمان سليمان ، فشكوا ذلك إلى سليمان ، فأرسل إلى عمر فقال له : ضرب غلمانك غلماني ، قال : ما علمت ، فقال له سليمان : كذبت ، قال : ما كذبت مذ شددت عليّ إراري وعلمت أن الكذب يضرُّ أهله ، وإن في الأرض عن مجلسك هذا لسعة ، فتجهز يريد مصر ، فبلغ ذلك سليمان فشقَّ عليه فدخلت فيما بينهما عمة لهما ، فقال لها سليمان : قولي له يدخل عليّ ولا يعاتبني ، فدخل عليه عمر فاعتذر إليه سليمان ، وقال له : يا أبا حفص ما اغتممت بأمر ولا أكرمني أمر إلا خطرت فيه على بالي ، فأقام^(٢) .

هذا وإننا لنجد في هذا الخبر إحساسا إسلاميا رفيعا وإدراكا بالغا لخطورة الكذب ومهانة مرتكبيه ، فالؤمن الحق قد يتعرض لبعض الذنوب التي منها ارتكاب الظلم ولكنه لا يمكن أبدا أن يكذب لأن الكذب يتنافى مع الإيمان كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام

(١) يعني الجهاد في الصيف ، وكانوا لشدة البرد في بلاد الروم يخرجون صيفا غالبا .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٧ - ٢٨ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٩ .

مالك عن صفوان بن سليم أنه قال قيل لرسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جبانا ؟ فقال : نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ فقال : نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ فقال : لا « (١) .

ونظراً لخطورة الاتهام بالكذب وما يحدثه في نفس المؤمن الواعي من فزع وهول فإننا نجد عمر بن عبد العزيز قد فزع كثيراً حينما اتهمه سليمان بن عبد الملك بالكذب ، ونفى عن نفسه بسرعة أن يكون قد قارف الكذب من حين بلوغه سن التمييز ، وأنه قد أدرك في تلك السن المبكرة خطورة الكذب فحمى نفسه من الوقوع فيه ، وبلغ فزعه من هذه التهمة وتأثره بها إلى حد العزم على مغادرة الشام إلى مصر ، لمفارقة البلد الذي اتهم فيه بهذه التهمة الفظيعة .

والكذب يعتبر ضعفا في النفس ، وجبنا عن المواجهة ، ولذلك نجد بعض الكبراء ينزهون أنفسهم منه لامن منطلق منافاته للإيمان ، وإنما من منطلق تعارضه مع الرجولة الكاملة وكونه من صفات النقص والضعف ، فنجد الحجاج بن يوسف مثلاً يقول لأحد كتابه : مايقول الناس فيّ ؟ فاستعفاه فلم يُعفه ، قال : يقولون إنك ظلوم غشوم قتال عسوف كذاب ، قال : كل ما قالوا فقد صدقوا فيه إلا الكذب فو الله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله (٢) .

من أمثلة تواضعه :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر الحكم بن عمر

(١) موطأ مالك ، كتاب الكلام ، رقم ٩٩٠ / ٢ .

(٢) هامش سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٨ .

الرعيّني قال: رأيت عمر بن عبد العزيز إذا صلى المكتوبة انصرف إلى أهله لا يتطوع (١) ، وربما جلس فجاء الغريب الذي لا يعرفه، وكان يقوم من هذه الحلقة فيجلس مع هذه الحلقة يسأل عن أمير المؤمنين وفي أي حلقة هو ! فيقف لا يدري أيهم حتى يشار إليه : هذا أمير المؤمنين ، فيسلم عليه بالخلافة (٢) .

وذكر الحافظ ابن الجوري من خبر الإمام الأوراعي قال: كان عمر ابن عبد العزيز يجلس إلى قاصّ العامة بعد الصلاة ويرفع يديه إذا رفع، ودخلت عليه ابنة أسامة بن زيد رضي الله عنهما ومعها مولاة لها تمسك بيدها، فقام لها عمر ومشى إليها حتى جعل يدها في يده ويدها في ثيابه ، ومشى بها حتى أجلسها في مجلسه، وجلس بين يديها، وماترك لها حاجة إلا قضاها (٣) .

وقال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم وناداه رجلٌ فقال: يا خليفة الله في الأرض. فقال له عمر: مَهْ إني لما ولدت اختار لي أهلي اسمًا فسَمَوْنِي عمر فلو ناديتني يا عمر أجبتك . فلما كبرت اخترت لنفسِي الكُنَى فكُنيتُ بأبي حفص فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتك . فلما وليتُموني أموركُم سميتُموني أمير المؤمنين فلو ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك . وأما خليفة الله في الأرض فلست كذلك ولكن خلفاء الله في الأرض داود النبيُّ عليه السلام وشبهه قال الله تبارك

(١) أي لا يصلي السنة الراتبة في المسجد وإنما يصلها في البيت لكون ذلك أفضل .

(٢) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦ .

وتعالى : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] (١).

جوابه لمن اتهمه بالكبر :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من حديث الليث بن سعد أن أبا النضر حدثه قال : دسست إلى عمر بن عبد العزيز بعض أهله أن قل له : إن فيك كبراً وأنت تتكبر ، فقليل ذلك له ، فقال عمر : لبئس ماظنت إن كنت تراني أتوقى الدينار والدرهم مراقبة لله وأنطلق إلى أعظم الذنوب فأرتكبه . الكبرياء إنما هو رداء الرحمن فأنارعه إياه ، و لكن كنت غلاماً بين الغلمان - أو قال بين ظهري قومي - يدخلون عليّ بغير إذن ويتوطئون فرشي ويتناولون مني مايتناول القوم من أخيهـم الذي لاسـلطان له عليهم . فلما أن وليت خـيرت نفسي في أن أمكنهم من حالهم التي كنت لهم عليها وأعاقبهم فيما خالف الحق أو أتمنع منهم في بابي ووجهي ليكفوا عني أنفسهم وعن الذي أحذر عليهم لو كنت جرأتهم على نفسي من العقوبة والأدب فهو الذي دعاني إلى هذا (٢).

وهكذا اتهم هذا الولي الصالح و الحاكم العادل بالكبر ، وإنه لعجيب جداً أن يُظنَّ بعمر بن عبد العزيز أنه متكبر وهو الذي خلف الدنيا بجـاهها ومالها وراء ظهره ، ولكن الذين ليست لديهم تجارب إدارية يعتقدون أن المسئول يجب أن يكون بابه مفتوحاً للناس في جميع الأوقات ، ولا يعلمون أنه لو فعل ذلك لأضاع كثيراً من أمور الأمة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٩٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٨ .

المهمة التي تحتاج إلى دراسة ونظر ومشورة من أصحاب الشأن، كما أن المسئول يحتاج إلى وقت للتأمل والتفكير فيما يصلح أمور الأمة ويرفع من مستواها المادي والفكري وغير ذلك مما يلزم له الاحتجاب عن عامة الناس بعض الوقت .

مثل من حلمه على من جهل عليه :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر الإمام الأوراعي : أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أراد أن يعاقب رجلا حبسه ثلاثة أيام ثم عاقبه كراهية أن يعجل في أول غضبه .

قال : وأسمعه رجل كلاما فقال له : أردت أن يستفزني الشيطان فأناك منك اليوم بما تنال أنت مني يوم القيامة ، انصرف عني عافاك الله ورحمك (١) .

مثل آخر من حلمه :

ومن أمثلة تخلفه بخلق الحلم ما أخرجه محمد بن سعد من خبر عمر بن حفص قال : حدثنا شيخ قال : لما ولي عمر بن عبد العزيز بدابق خرج ذات ليلة ومعه حرسى فدخل المسجد فمر في الظلمة برجل نائم فعثر به ، فرفع رأسه إليه فقال : أمجنون أنت ؟ قال : لا ، فهم به الحرسى ، فقال له عمر : مه إنما سألتني أمجنون أنت فقلت لا (٢) .

(١) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢٠٥ - ٢٠٦ ، وانظر البداية والنهاية ٢٠١ / ٩ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥١ .

(٢) الطبقات الكبرى ٣٩٧ / ٥ ، وانظر تاريخ دمشق ٢٠٦ / ٤٥ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥١ .

وهكذا يمثّل عمر بن عبد العزيز القمة في مكارم الأخلاق وقد بلغ
القمة في الجاه الدنيوي ، حيث كان أكبر أمير على وجه الأرض ، ومع
ذلك يحتمل هذه الكلمة القاسية وينهى حارسه لما أراد أن يعاقب ذلك
الرجل .

عفوه عن الذي شجّه في وجهه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر قيس بن عبد الملك
قال : وقام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته وعرض له رجل بيده طومار ،
قال فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين ، فخاف أن يحبس دونه فرماه
بالطومار ، فالتفت أمير المؤمنين فأصابه في وجهه فشجّه ، فنظرت إلى
الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس ، فقرأ الكتاب وأمر له
بحاجته وخلق سبيله || (١) .

مثل من عفوه عند الغضب :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر إبراهيم بن أبي عبلة قال : غضب
عمر بن عبد العزيز يوما على رجل غضبا شديداً فبعث إليه فجرده
ومده في الحبال ، ثم عاد بالسياط حتى قلنا : هو ضاربه ، قال : خلوا
سبيله ، أما إني لولا إني غضبان لسؤتك ، وقرأ ﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] (٢) .

فهذا الرجل قد أغضب بجهله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

(١) حلية الأولياء ٣١١/٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥٠ -
١٥١ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٥٠ .

ولكنه وسعه بحلمه ، والحلم عند الجهل من مكارم الأخلاق العالية .
وفي قوله « أردت أن يستفزني الشيطان » إدراك منه لسلح من
أسلحة الشيطان التي يغوي بها أصحاب المسئولية ، فيحملهم على
السلوك المنافي لمكارم الأخلاق .

ولجده - رحمه الله - يتذكر الآخرة حالا فيبين أن النزول إلى
مستوى الجاهلين ينزل من درجات المسلم في الآخرة ، بينما تكون
عاقبة الصبر على الأذى والحلم عن الجاهلين والإمساك عن الجدل
معهم رفعة الدرجات في الجنة كما جاء في قول النبي ﷺ « أنا رعيم
بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا » (١) .
مثل من رحمته بالمجاهدين :

ذكر ابن عبد الحكم أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز استفتح
خلافته بثلاثة كتب ، ذكر منها هذا الكتاب حيث قال : كتب بقفل
مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية ، وقد كان سليمان أغراه إياها
براً وبحراً وأشفى على فتحها ، ثم خدع عنها حتى أحرزوا طعامهم
وحوائجهم ثم أغلقوها دونه بعد الإشفاء عليها ، فبلغ ذلك سليمان
فغضب مما فعل به فحلف أن لا يقفله منها مادام حياً ، فاشتد عليهم
المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع حتى يتنحى الرجل
عن دابته فتقطع بالسيوف فبلغ رأس الدابة كذا وكذا درهماً . ولج
سليمان في أمرهم . فكان ذلك يغم عمر فلما وكي رأى أنه لا يسعه

(١) سنن أبي داود رقم ٤٨٠٠ ، كتاب الأدب باب ٨ ، والزعيم هو الضامن وربض الجنة
يعني طرفها ، والمراء هو الجدل والتزاع .

فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلي شيئاً من أمور المسلمين ثم يؤخر قفلهم ساعةً فذلك الذي حمّله على تعجيل الكتاب (١).
رحمته بالأسرى :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الإمام الأوزاعي قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله : أن فاد أساري المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم (٢).
مثل من رحمته بالأيّام :

قال الحافظ ابن كثير : وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشجّه صبي منهم ، فاحتملوا الصبي الذي شجّ ابنه وجاؤوا به إلى عمر ، فسمع الجلبة فخرج إليهم فإذا مريئة تقول : إنه ابني وإنه يتيم ، فقال لها عمر : هوني عليك ، ثم قال لها عمر : أله عطاء في الديوان ؟ قالت : لا قال : فاكتبوه في الذرية ، فقالت زوجته فاطمة : أتفعل هذا به وقد شجّ ابنك ؟ فعل الله به وفعل ، المرة الأخرى يشجّ ابنك ثانية ، فقال : ويحك إنه يتيم وقد افزعتموه ! (٣) .

وهكذا يشمل لطفه ذلك اليتيم مع إساءته إلى أحد ابنائه ، ويحظى منه بالتعويض المالي مقابل ذلك الفزع الذي حصل له ، فما أبلغ رحمة عمر ، وما أرق مشاعره ، وما أسمى تفكيره في معاملة إخوانه المسلمين !!

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٧ .

(٢) حلية الأولياء ٣١٢/٥ .

(٣) البداية والنهاية ٢٠٢/٩ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥٠ .

مثل من رحمته بالغلما ن :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال : قال لي رجاء بن حيوة : ما أكمل مروءة أبيك ، سمريت عنده ذات ليلة فعشى السراج فقال لي : ماترى السراج قد عشى ؟ قلت : بلى ، وإلى جانبه وصيف راقد ، قال قلت : ألا أنبهه ؟ قال : لا دعه يرقد (١) ، قال : قلت : أفلا أقوم أنا ؟ قال : لا ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه ، قال : فوضع رداءه ثم قال إلى بطة ريت معلقة فأخذها فأصلح السراج ثم ردها إلى موضعها ثم رجع ، قال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز (٢) .

فهذا الخبر يدل على قلب كبير يعرف مكارم الأخلاق ويقدرها . فهو يؤثر الرحمة بالمستخدمين على القسوة عليهم ، ويؤثر اكرام الضيف على تكليفه بخدمته مع أنه أمير المؤمنين وأعظم حاكم على وجه الأرض آنذاك ، فالرحمة والتواضع من أخلاق العظماء ، ولا يتصف بهما إلا من تجرد من حظ النفس وعاش للآخرين بفكره وجسمه ووقته .
رحمته بجاريه له :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر النضر بن سهيل عن أبيه قال : قال عمر بن عبد العزيز لجارية له : يا جارية روحيني ، فأقبلت تروحه

(١) وفي رواية ابن كثير « لأحب أن أجمع عليه عملين » .

(٢) تاريخ دمشق ٢٢٥ / ٤٥ - ٢٢٦ ، وانظر الزهد للإمام أحمد ٢٩٨ ، والبداية والنهاية ٢٠٣ / ٩ .

فغلبتها عينها فنامت ، فأخذ المروحة وأقبل يروحها ، فانتبهت فصاحت ، فقال لها عمر : إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحر ما أصابني ، وأحببت أن أروحك مثل الذي روحتني (١) .
مثل من رحمته بأهل الذمة :

أخرج ابن سعد من خبر عمر بن بهرام الصراف قال : قرئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي بن أرطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين ، سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فانظر أهل الذمة فارق بهم ، وإذا كُبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه ، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه ، وقاصه من خراجة (٢) كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بد من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق (٣) .

فهذا مثل على سمو حكام المسلمين إذا تمثلوا بالإسلام وطبقوا تعاليمه ، وهو بالتالي شاهد على عظمة الإسلام الذي أخرج هذا الحاكم العادل الرحيم وأمثاله ، فالذمي الذي يفتقر لايضيع في دار الإسلام ، لأن حكومة الإسلام ترعاه كما ترعى فقراء المسلمين ، وهي لا ترجو منه نفعا ولا دفع ضرر وإنما تمثل بذلك مكارم الأخلاق التي هي من أعظم مقاصد الإسلام .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦ .

(٢) أي حط عن صديقه من خراجة ما أنفق عليه .

(٣) طبقات ابن سعد ٣٨٠ / ٥ .

مثل من رحمته بالحيوان :

لم تقتصر رحمة عمر بن عبد العزيز على الإنسان بل شملت الحيوان الأعجم ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم رحمه الله من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله حيان بمصر : إنه بلغني أن بمصر إبلاً نَقَّالَات ، يُحْمَل عليّ البعير منها ألف رطل ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فلا أعرفنَّ أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل (١) .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر أبي عثمان الثقفي قال : كان لعمر بن عبد العزيز غلام يعمل له على بغل له ، يأتيه بدرهم كل يوم ، فجاءه يوماً بدرهم ونصف ، فقال : ما بدا لك ؟ فقال : نَقَّت السوق ، قال : لا ولكنك أتعبت البغل ، أرجه ثلاثة أيام (٢) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦٤ .

(٢) حلية الأولياء / ٥ / ٢٦٠ ، وأرجه بمعنى أخرجه للراحة .

٦ - مواقفه في الزهد والورع والخشية -

خبر بدء إنباته :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله بن كثير قال : قيل لعمر بن عبد العزيز : ما كان بدو إنباتك ؟ قال : أردت ضرب غلام لي فقال لي : يا عمر اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة (١) .

فهذه موعظة صادفت قلبا مهينا لها فتمكنت منه ، وكانت سببا في يقظة عمر بن عبد العزيز وإنابته .

خبره مع سليمان بن عبد الملك بمناسبة البرق والرعد :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن يزيد الأيلي قال : حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز ، فأصابهم ليلة برق ورعد ، فكادت تنخلع أفئدتهم ، فقال سليمان : يا أبا حفص هل رأيت مثل هذه الليلة قط أو سمعت بها ؟ قال : يا أمير المؤمنين هذا صوت رحمة الله ، فكيف لو سمعت صوت عذاب الله ؟ (٢) .

فهذا مثال على براعة عمر بن عبد العزيز في اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى وترقيق القلوب وإثارة الخشية فيها .

خروجه للنزهة والعبرة في ذلك :

من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تذكر الآخرة وسرعة استحضاره لأهوالها ما ذكر ابن عبد الحكم قال : وخرج عمر

(١) تاريخ دمشق ٤٥ / ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ٤٥ / ١٥٣ ، وانظر سير أعلام النبلاء ١٢١ / ٥ .

ابن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك إلى مخرج من مخارجه لم يكن عمر قدّم فيه ثقلاً ، فبلغ المنزل فصار كل رجل إلى مضربه الذي قدّمه ، وصار سليمان إلى حجرة ، ثم فقد عمر فقال : اطلبوه فما أراه قدّم شيئاً ، فطلب فوجد تحت شجرة باكياً ، فأخبر بذلك سليمان فدعاه فقال : ما يبكيك يا أبا حفص ؟ قال : أبكاني يا أمير المؤمنين أني ذكرت يوم القيامة ، من قدّم شيئاً وجده ، ولم أقدم شيئاً فلم أجد شيئاً (١) .

وهكذا رأينا مثالا للوعي الدقيق والتذكر البليغ لأهوال يوم القيامة وأسباب النجاة فيه ، فحينما خرج عمر بن عبد العزيز ولم يُخرج معه متاعا ذهب كل إنسان بما أعد لنفسه ، وبقي عمر بدون شيء ، وكان بإمكانه أن يطلب من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ما يشاء وهو الأثير عنده ، ولكن غلب عليه تذكر الآخرة فأثار شجونه وأبكاه وشغله عن البحث عما يحتاجه من متاع الدنيا .

وهكذا تكون قلوب أهل اليقظة والتفكير ، فإذا وقع الإنسان منهم في عسر وشدة تذكر شدائد يوم القيامة ، فشغله التفكير فيها عن التألم لوضعه الحاضر في الدنيا .

ولإذا أنعم الله عليه بنعم الدنيا تذكر عظمة نعيم الآخرة فزهده في الدنيا ، ودفعه ذلك إلى شكر المنعم جلا وعلا .

ويشبه هذا الموقف ما ذكره ابن عبد الحكم قال : وخرج سليمان ابن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز إلى الحج فأصابهم مطر شديد ورعد وبرق ، فقال سليمان : هل رأيت مثل هذا يا أبا حفص ؟ فقال :

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٧ .

يأمر المؤمنين هذا في حين رحمته فكيف في حين غضبه (١) .

خبره مع الغراب وما فيه من العبر :

قال الحافظ ابن كثير : وقال عثمان بن زبر : أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال ، فقال سليمان : ماتقول يا عمر في هذا ؟ فقال : أرى دنيا يأكل بعضها بعضها وأنت المسئول عن ذلك كله ، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبه ، فقال له سليمان : ما هذا يا عمر ؟ فقال : لا أدري ، فقال ما ظنك أنه يقول ؟ قلت : كأنه يقول : من أين جاءت وأين يُذهب بها ؟ فقال له سليمان : ما أعجبك !! فقال عمر : اعجب ممن عرف الله فعصاه ، ومن عرف الشيطان فأطاعه ، ومن عرف الدنيا فركن إليها (٢) .

ونجد في هذا الخبر أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك كان معجبا بحكمة عمر بن عبد العزيز وتأملاته العميقة في أمور الدنيا وربطها بأمور الآخرة .

ونجد عمر عبد العزيز في هذا الخبر وأمثاله يغتنم الفرص ليوجه من حوله إلى الاستقامة على أمور الدين وتذكر الحياة الآخرة ، فهو حينما سأل سليمان عن نعب الغراب وهو يحمل تلك اللقمة اغتنم الفرصة ليدكره بلزوم الاستقامة في كسب الأموال وإنفاقها ، وإذا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٣٠ ، وانظر البداية والنهاية ١٨٧/٩ .

(٢) البداية والنهاية ٢٠٤/٩ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٧٠ .

ضمن الإنسان الاستقامة في ذلك فقد ضمن الرق الحلال الخالي من الحرام والشبهات وضمن الإنفاق الحلال الخالي من السرف وأخلاء .

وحينما تعجب سليمان من تفكير عمر زاده موعظة ببيان أن العجب الحقيقي أن ينحرف المسلم عن الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة بعدما عرف هذا الطريق وعرف المستقبل الأخرى لمن استقام عليها ولمن انحرف عنها .

خشيتته من العذاب بالريح :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سلام بن أبي مطيع قال: نُبِّئْتُ أن عمر بن عبد العزيز لما قام هاجت ريح، فدخل عليه رجل فإذا هو منتقع اللون ، ف قيل له : ياأمير المؤمنين مالك؟ قال : ويحك وهل هلكت أمة قط إلا من الريح (١).

فأكثر الناس يرون الريح ويحسون بها ولا تثير في أنفسهم شيئا من الخشية لاعتيادهم عليها ، ولكن عمر بن عبد العزيز تذكر على الفور عذاب الله تعالى للأمم السابقة فتأثر تأثرا شديدا من ذلك ، وهذا دليل على يقظة ضميره وقوة خشيتته من الله تعالى .

خشيتته من ارتكاب السيئات بمكة :

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الملاء من خبر القاسم بن محمد بن أبي بكر : أن عمر بن عبد العزيز كان يقيم في عمرته يومين ويخرج في الثالث : فقال له عبد الله بن عمر بن عيسى بن عمار: لو أقمت فاستمتعت بهذا البيت واستمتعتنا معك ! فقال:

(١) حلية الأولياء ٣١٣/٥ .

ماأظن أحدا منكم أشد حبا لهذا البيت مني ، ولكن والله لكأني على الرضف (١) من حين أدخله إلى حين أخرج فرقا من أن أحدث .

قال : وهذا حينما كان واليا على المدينة زمن الوليد (٢).

فهذا مثل من تعظيم عمر بن عبد العزيز للحرم المكي وخشيته من أن يكتب في صحيفته مخالفة وهو فيه لما كان يعلم من نكارة الذنوب فيه وضخامة عقوبة مرتكبيها ، بالرغم من علمه بمضاعفة الحسنات فيه إلى مائة ألف ، ولكن لشدة خشيته فإنه يؤمن بأن اجتتاب السيئات مقدم على اجتلاب الحسنات .

زهده في مظاهر الخلافة :

من مواقفه التي جرت منه بعدما بويع بالخلافة انصرافه عن مظاهر الدنيا وتحكيمه للكتاب والسنة في دقيق الأمور وجليها ، قال ابن عبد الحكم رحمه الله : ولما دُفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز فقربت إليه المراكب قال : ماهذه ؟ فقالوا : مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلي ، فتركها وخرج يلتمس بغلته ، وقال : يامزاحم ضم هذا إلى بيت مال المسلمين ، ونُصبت له سرادقات وحُجِرَ لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول مايُلون ، فقال : ماهذه ؟ فقالوا : سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أو ما يلي ، قال : يامزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين ، ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول مايُلون ، فجعل يدفع ذلك برجله حتى يُفضي

(١) أي الحجارة المحماة .

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٤٧ .

إلى الحصار ، ثم قال : يامزاحم ضمَّ هذا لأموال المسلمين .

قال : ويات عيال سليمان يُقرَّعون الأدهان والطيب هذه القارورة إلى هذه القارورة ، ويلبسون ما لم يلبس من الثياب حتى تتكسر ، وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب أو مُس من الطيب كان لولده ، وما لم يلبس من الثياب وما لم يمس من الطيب فهو للخليفة بعده ، فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان : هذا لك وهذا لنا ، قال : وما هذا وما هذا ؟ قالوا : هذا ما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فهو لولده ، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده وهو لك ، قال عمر : ما هذا لي ولا لسليمان ولا لكم ، ولكن يامزاحم ضمَّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين ، ففعل .

فتوأم الزراء فيما بينهم فقالوا : أما المراكب والسراقات والحجر والشوار (١) والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتم ، وبقيت خصلة وهو الجوارى نعرضهن عليه ، فعسى أن يكون ماتريدون فيهن ، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده ، فأتي بالجوارى فعرضن عليه كأمثال الدُمى ، فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة : من أنت ولن كنت ومن بعث بك ؟ فتخبره الجارية بأصلها ولن كانت وكيف أخذت ، فيأمر بردهن إلى أهليهن ، ويحملن إلى بلادهن حتى فرغ منهن ، فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق (٢) .

(١) يعني اللباس والزينة ومتاع البيت .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٣٨ - ٤٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوري / ٤٢ .

وهكذا رأينا مشهداً من العادات السيئة والمظاهر الدنيوية التي توارثها الأمراء قبل عمر بن عبد العزيز وأصبحت تتراكم شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى حد لا يختلف كثيراً في الأبهة والتعظيم عما كان عليه ملوك فارس والروم ، وكان الأمراء يرون في تلك المظاهر تثبيتاً لحكمهم وتعظيماً لهيئة السلطان في نفوس الرعية .

ولما تولى عمر بن عبد العزيز رأى أن قيمة تلك المظاهر أخذت من بيت مال المسلمين بدون حق، إلى جانب كونها تنطلق من خلق الكبر الذي جاء ذمه في الإسلام، وتتنافى مع خلق التواضع الذي جاء مدحه في الإسلام، فأمر مولاه مزاحماً بأن يدخلها في بيت مال المسلمين، وركب مركبه السابق الذي لا يميزه عن عامة المسلمين وأوساطهم.

وفي هذا الخبر تبين لنا كيف كان الولاة يتصرفون بأموال المسلمين بغير حق ، ويستكرون عوائد من الحقوق الخاصة بالوالي الذاهب والوالي القادم في أموال ليس لهم حق التصرف فيها .

وفي تصرف عمر إزاء ذلك مثل واضح على عدله ورعايته لحقوق المسلمين العامة حيث رد تلك الأطياب والملابس إلى بيت مال المسلمين، وبين أنه ليس له حق فيها ولا للأمير الذي قبله وأن هذه العادة مخالفة للإسلام .

كما أن في هذا الخبر دلالة على رعاية عمر للحقوق الخاصة، فتلك الجوارى التي كانت تساق كالدمى ، وقد حرمن من المطالبة بحقوقهن ، واعتبرن من جملة المتاع الذي يرثه الأمراء خلفاً عن

سلف ، قد نظر عمر في أمرهن من ناحية الشرع فلما تحقق أنهن قد أخذن بطريقة غير مشروعة أعادهن إلى أهاليهن .

ونجد في هذا الخبر مثلاً من تفكير أصحاب النفوذ ممن ألفوا تلك المظاهر والعوائد ، حيث أرادوا اختبار عمر بالجواري لما ردد الفرس والأثاث والبيوت لأن داعي الاحتفاظ بالجواري أقوى لدى النفوس التي لا تلتزم في سيرها بهدي الإسلام الشامل لكل نواحي الحياة ، فلما ردّ الجواري أيسوا منه وعرفوا أنه سيحمل الناس على الحق الذي يعرفونه ولكن يمنعهم من العمل به اتباع الهوى المنحرف .

زهده في مخصصات الخلافة :

من مواقف عمر بن عبد العزيز في الورع ما ذكره ابن عبد الحكم قال : وكان عمر قد طلق نفسه من الفئى فلم يرزق منه شيئاً إلا عطاء مع المسلمين ، فدخل عليه ابن أبي زكريا فقال : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلّمك بشيء ، قال : قل ، قال : قد بلغني أنك ترزق العامل من عمالك ثلاثمائة دينار ، قال : نعم ، قال : ولم ذلك؟ قال : أردت أن أغنيهم عن الخيانة ، قال : فأنت يا أمير المؤمنين أولى بذلك ، قال : فأخرج ذراعه وقال : يا ابن أبي زكريا إن هذا نبت من الفئى ولست معيداً إليه منه شيئاً أبداً (١) .

وهكذا حرم عمر نفسه من الأجر الذي يعطيه للولاة تورعاً ، ولو سوى نفسه بهم لم ينكر عليه أحد ، بل لو راد عنهم قليلاً مقابل كثرة نفقته لمنصبه لما كان ذلك منكراً ، ولكنه تورع عن ذلك ، وكان تذكره

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٦ .

للتجاوز الذي كان من ولادة عشيرته مانعاً له حتى من أخذ حقه في بيت المال فرحمه الله رحمة واسعة .

مثل من طموحه نحو المعالي :

أخرج محمد بن سعد من خبر سعيد بن عامر عن جويرية بن أسماء قال : قال عمر بن عبد العزيز : إن نفسي هذه نفس تواقة ، وإنها لم تعط شيئاً إلا تآقت إلى ما هو أفضل منه ، فلما أُعطيَت الذي لا شيء أفضل منه في الدنيا تآقت إلى ما هو أفضل من ذلك .
قال سعيد : الجنة أفضل من الخلافة (١) .

فهذه المقارنة تبين لنا عظمة عمر بن عبد العزيز ورجاحة عقله وسمو تفكيره ، فإن أعلى منزلة في الدنيا لاتعادل أدنى منزلة في الجنة ، فمن ضيع منازل الجنة بالحرص على منازل الدنيا كان من الخاسرين .

ورعه عما حمل على دواب البريد :

مثل آخر من ورع عمر الدقيق رحمه الله فقد أتت إليه سلتا رطب من الأردن ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : رطب بعث به أمير الأردن ، قال : علام جيء به ؟ قالوا : على دواب البريد ، قال : فما جعلني الله أحق بدواب البريد من المسلمين ، أخرجوهما فبيعهوهما واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد ، فغمزني (٢) ابن أخيه فقال لي : إذهب فإذا قامتا على ثمن فخذهما عليّ ، فجئت بهما إلى ابن أخيه فقال :

(١) طبقات ابن سعد ٤٠١/٥ ، وانظر تاريخ دمشق ٢٠٨/٤٥ .

(٢) القائل هو راوي الخبر أبو شيان وهو الذي قدم بالرطب .

اذهب بهذه الواحدة إلى أمير المؤمنين ، وحبس لنفسه واحدة ، فأتيته بها فقال : ما هذا ؟ قلت : اشتراهما فلان ابن أخيك فبعث إليك بهذه وحبس لنفسه الأخرى ، قال : الآن طاب لي أكله (١) .

وهذا مثال دقيق على ورع عمر واهتمامه البالغ بالحلال والحرام فإن فكر المسلم العادي لا يذهب إلى السؤال عن الدواب التي حُمل عليها الطعام ، وإنما قد يسأل عن الطعام نفسه من باب التحري ، ومع أن البريد لم يأت من أجل ذلك التمر فإن عمر رده تورعا ، وأمر بجعل ثمنه علقا لدواب البريد ، وحينما تصرف ابن أخيه ذلك التصرف الحسن فأهداه من ذلك التمر أكل منه طيبةً به نفسه ، فما أعظم الإسلام متمثلاً في صدور السابقين بالخيرات الذين يميزون بين الحلال والخالص والشبهات التي قد توصل إلى الحرام !

رده أحد أملاكه من الإقطاع :

من مواقفه رحمه الله في الورع ما حدث به الإمام عبد الله ابن المبارك رحمه الله تعالى قال : قال عمر بن عبد العزيز لمزاحم - وكان مزاحم مولاه وكان فاضلا - قال : إن هؤلاء القوم - يعني أهله - أقطعوني مالم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطوني ، وإنني قد هممت بردها على أربابها قال فقال مزاحم : فكيف تصنع بولدك؟ قال : فَجَرْتُ دُمُوعَهُ عَلَى وَجَّتِهِ وَجَعَلَ يَمْسَحُهَا بِأَصْبَعِهِ الْوَسْطَى وَيَقُولُ : أَكُلُّهُمْ إِلَى اللَّهِ ، قال عبد الله : وكان مزاحما - مع فضله -

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٩٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوري / ١٣٣ .

لم يقنع بقوله : فخرج مزاحم فدخل على عبد الملك بن عمر بن عبدالعزيز ، فقال : إن أمير المؤمنين قد همَّ بأمرٍ لهُوَ أضرُّ عليك وعلى ولد أبيك من كذا وكذا ، إنه همَّ برَدِّ السهلة - قال عبد الله : وهي باليمامة وهي أمر عظيم - قال : وكان عيش ولده منها ، قال عبد الملك : فماذا قلت له ؟ قال كذا وكذا ، قال : بشئ لعمر الله وزير الخليفة أنت ، قال : ثم قام ليدخل على عمر بن عبد العزيز وقد تبوأ مقيله ، قال : فاستأذن فقال له البواب : إنه قد تبوأ مقيله ، قال : مامنه بد ، قال : سبحان الله ألا ترحمونه ! إنما هي ساعته ، قال : فسمع عمر صوته فقال : عبد الملك ؟ قال : نعم ، قال : ادخل ، فدخل ، قال : ماجاء بك ؟ قال : إن مزاحما أخبرني بكذا وكذا ، قال : فما رأيك فلاني أريد أن أقوم بالعشية ؟ قال : أرى أن تعجله فما تأمن أن يحدث الله بك حدثا ، قال : فرفع يديه وقال : الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني ، قال : ثم قام من ساعته فجمع الناس وأمر بردها (١) .

وهكذا لما علم أن تلك المزرعة التي باليمامة قد آلت إليه عن طريق الإقطاع من الولاة الذين سبقوه تخرج من بقائها في ملكه ، لأنه ليس كل المسلمين نالوا مثل ذلك ، فلم ير أن له حقاً في الاختصاص بملكها ، فردّها إلى بيت مال المسلمين ، مع ما ذكر من أنها ملك عظيم وأن عيش أولاده منها ، وهذا مثال على إحساسه الدقيق وورعه العميق .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٨٩ - ٩٠ ، وانظر تاريخ دمشق

وفي هذا الخبر يظهر عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ورعا تقيا كآبائه، وبهذا الإيمان القوي والسلوك العالي كان عبد الملك عوناً لأبيه في حمل الناس على الاستقامة، خاصة فما يتعلق بأسرته رحمهما الله تعالى.

مقدار مآرده من ماله ليت المال :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز قال: دعاني أبو جعفر (١) فقال : كم كانت غلة عمر حين أفضت إليه الخلافة ؟ قلت : خمسون ألف دينار، فقال : كم كانت يوم مات ؟ قلت : مازال يردّها حتى كانت غلته مائتا دينار، ولو بقي لردّها (٢).

وإذا كانت غلة أملاكه خمسين ألف دينار فكم هي قيمتها ؟ إنها مبلغ كبير ، ومع ذلك عفا عنه ورده إلى بيت مال المسلمين، فخلد بذلك ذكره في الدنيا وحاز على الدرجات العلى في الآخرة .

مثل من تورعه عن مال المسلمين :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر يزيد بن أبي حبيب قال: وقيل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين لو أنك أخذت كما يأخذ عمر بن الخطاب، يأخذ درهمين كل يوم ، قال: إن عمر لم يكن له مال، وأنا لي مال يغنيني عن ذلك، ورد عمر بن عبد العزيز في بيت المال ما كان أعطاه سليمان والخلفاء قبله (٣).

(١) هو أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور .

(٢) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢١٠ .

(٣) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢١٢ .

استجابة دعائه في ابنه الصغير :

من مواقفه أيضاً في الورع رحمه الله ما قام به من رد أمواله التي شك في أصل اكتسابها إلى بيت مال المسلمين، وفي ذلك يقول: مامن شيء إلا وقد رددته في مال المسلمين إلا العين التي بالسويداء فإني عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط فعملتها من صلب عطائي الذي يُجمع لي مع جماعة المسلمين، فجاءته غلتها مائتا دينار، وجراب فيه تمر صيحاني وتمر عجوة، فقال: هات اصببُ للقوم من هذه العجوة فهي أبرد وأصح .

وهكذا رد عمر أمواله إلى بيت مال المسلمين لاعتقاده بأن أصلها من مال المسلمين العام، وأن الولاية الذين سبقوه أعطوه إياها بغير حق لأنهم لم يعطوا سائر المسلمين مثلها ماعدا ذلك البستان الذي ذكر في السويداء حيث كان من عطائه الذي يأخذ مثله أي فرد من المسلمين، فأصبح يأكل من غلته القليلة وهو قرير العين لأن أصله حلال ليس فيه شبهة .

وجاء في سياق هذه الرواية « قال : وسمع النساء بمال قد قدم عليه فأرسلن إليه بابن له غلام ليعطيه من ذلك المال ، فلما جاء الغلام قال : احفنوا له من ذلك التمر ، فحفنوا له من ذلك ، فخرج الغلام فرحاً حتى إذا انتهى إلى النساء فرأين التمر ضربن الغلام ، ثم قلن له : اذهب فانثره بين يديه ، فأقبل الغلام فنثره بين يديه وأهوى بيديه إلى الذهب ، فقال عمر للوليد بن هشام من آل أبي معيط : أمسك يديه يا وليد ، فأمسك يديه الوليد ، ودعا عمر بدعاء له كثير، وكان من

دعائه اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، بَغْضٍ إلى هذا الغلام هذا الذهب كما حَبَّبَتْهَا إلى فلان بن فلان ، أرسل يديه يوليد، فارتعشت يداه فما مس منها ديناراً وانصرف ، فقال له رجل : لقد استجيت لك يا أمير المؤمنين ، ثم قال عمر : أخرجوا ركة هذه المائتي دينار (١) فقال الرسول : يا أمير المؤمنين لقد أُخِذَ خرص هذا الحائط، قال : يا بني ليس هذا من عملك ، قال : فأخرجوا خمسة دنانير ، ثم قال : دلوني على رجل أعمى ليس له قائد، قال : بينما القوم يتذاكرون، قال عمر : لقد وقعت عليه وقد ذكرته وهو الشيخ الجزري الأعمى، يأتي في الليلة المظلمة الماطرة ليس له قائد، أخرجوا له ثمن قائد، لا كبير يقهره ولا صغير يضعف عنه ، قال : فأخرجوا له منها خمسة وثلاثين ديناراً قال : ثم دعا عمر بالذي يقوم على نفقة أهله فقال : خذ هذه الذهب فأنفقها على عيالنا إلى أن يخرج عطائي مع المسلمين أو يقضي الله قبل ذلك (٢) .

وفي هذا الخبر رأينا فزع عمر حينما جاء ولده الصغير فرمى بالتمر وأخذ الذهب ودعا الله تعالى أن يَبْغُضَ إليه الذهب فارتعشت يدا الولد ، ولم يمسَّ منها ديناراً ، وهكذا استجاب الله تعالى دعوة ذلك

(١) يعني غلة بستانه .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٧ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٩١ .

الإمام العادل في الحال ، وهذا دليل على قربه من الله تعالى وصلاحه .

ولمجد عمر في هذا الخبر مع شدة احتياجه للمال وقلة غلة بستانه ينفق منها خمسة وثلاثين ديناراً أجرة لقائدٍ خصصه لرجل أعمى .
فما أعظم عمر بن عبد العزيز ! وما أشد إحساسه بحاجات الناس !

أمثلة من تحريره في ملكية الجوارى :

من ذلك خبر الجارية التي أهدتها إليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك ، فقال للجارية : لمن كنت ؟ قالت : وهبني عبد الملك لفاطمة ، قال : فلمن كنت قبل عبد الملك ؟ قالت : كنت لقوم بالبصرة فأخذ عاملها أموالهم ، فكنت فيما أخذه ، فبعث بي إلى عبد الملك فوهبني لفاطمة ، فدعا عمر بالبريد فكتب إلى عامل البصرة فأمره بردها إلى أهلها (١) .

فهذا مثل من أمثلة بعده عن شهوات الدنيا ، وتحريره عن مصادر الأموال ليعيد الحقوق إلى أصحابها ، فقد بحث عن أصل ملكية تلك الجارية حتى تبين له أنها وصلت إلى فاطمة بنت عبد الملك من طريق غير صحيح فأعادها إلى أهلها .

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى قال حدثني أبي عن جدي . قال : كانت لفاطمة بنت

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٨٧ ، ١٣١ .

عبد الملك امرأة عمر جارية ، فبعثت بها إليه وقالت إني قد كنت أعلم أنها تعجبك وقد وهبتها لك فتناول منها حاجتك . فقال لها عمر اجلسي يا جارية فوالله ماشيء من الدنيا كان أعجب إلي أن أنا له منك ، فأخبريني بقصتك وما كان من سبيك ؟ قالت : كنت جارية من البربر جنّى أبي جناية فهرب من موسى بن نصير عامل عبد الملك على أفريقية فأخذني موسى بن نصير فبعث بي إلى عبد الملك فوهبني عبد الملك لفاطمة فأرسلت بي إليك ، فقال : كدنا والله نفتضح ، فجهزها وأرسل بها إلى أهلها (١) .

وهكذا سما عمر بن عبد العزيز بإيمانه القوي وبقينه الراسخ على شهوات النفس ، مع أن الظاهر من الخبر أن تلك الجارية مباحة له بعد أن أهدتها إليه زوجته التي تملكها ، ولكنه لم يكن في وقته متسع للنساء بعد أن شغل جُلّ وقته بأمور الرعية ، ثم ألهمه الله تعالى إلى البحث عن أصل تلك الجارية فتيين له أنها وصلت بطريق غير مشروع فردها إلى أهلها لأنها لم تعد جارية مملوكة بل حرة اغتصبت من أهلها ، وهكذا يفتح الله تعالى على السابقين بالخيرات أنواراً من الفرقان يفرقون بها بين الحق والباطل .

تورعه عن مزارع خبير :

ومن ذلك ماجاء في رواية لابن عبد الحكم قال : وكان عمر ابن عبد العزيز نظر في مزارعه فخرق سجلاتها حتى بقيت مزرعتا خبير والسويداء فسأل عن خبير من أين كانت لأبيه ؟ قيل : كانت في نَحْل

(١) حلية الأولياء ٥ / ٢٦٠ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٥ / ١٩٥ ، والبداية والنهاية ٩ / ٢٠١ .

رسول الله ﷺ فتركها رسول الله ﷺ فينا للمسلمين ثم صارت إلى مروان أبيك ، ثم أعطاكها أبوك ، فخرق عمر سجلها وقال : أتركها حيث تركها رسول الله ﷺ (١) .

فهذا مثل على ورع عمر بن عبد العزيز واحتياطه بالبعد عن الشبهات ، فحيث علم أن أصل مزرعة خبير قد جعلها رسول الله ﷺ فينا للمسلمين ، فإنه قد جعلها كذلك ، مع أنه لم يبحث طريق وصولها إلى جده مروان .
تورعه عن حلي زوجته :

ومن ذلك خبر حلي زوجته فاطمة حيث قال لها : قد علمت حال هذا الجوهر ، وما صنع فيه أبوك ومن أين أصابه ، فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين ، وأنفق مادونه ، فإن خلصت إليه أنفقته ، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنه إليك ، قالت له : افعل ما شئت ففعل ذلك ، فمات رحمه الله ولم يصل إليه ، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك ، فامتنعت من أخذه ، وقالت : ما كنت لأتركه ثم أخذه ، فقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه (٢) .

فهذا ابتلاء داخل بيت عمر حيث تذكر أن حلي زوجته فاطمة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٩٠ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٢ .
وانظر الكامل لابن الأثير ١٥٣/٤ .

بنت عبد الملك قد أعطاه إياها أبوها ، ولعله كان من مال المسلمين العام ، فلم يسعه أن يبقيه بيدها وقد أخذ على نفسه أن يعيد إلى بيت مال المسلمين كل ما أخذ منه بغير حق .

وقد كانت له مطيعة بارة ، ثم تبين ورعها حين رد ذلك الحلي إليها أخوها يزيد فلم تأخذه .

لقد استطاع عمر بتوفيق الله تعالى أن يؤثر عليها وعلى بنيه ، وأن يكون أسرة عالية في الصلاح والتقوى رحمهم الله جميعا .

تورعه عن صرف شيء من المال العام في الحج :

ومثل آخر من ورعه وسمو هدفه في هذه الحياة ، فقد قال لمولاه مزاحم : إني قد اشتهيت الحج فهل عندك شيء ؟ قال : بضعة عشر دينارا ، قال : وماتقع مني ؟ ثم مكث قليلا ، ثم قال له : ياأمير المؤمنين تجهز فقد جاء مال سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بني مروان ، قال : اجعلها في بيت المال ، فإن تكن حلالا فقد أخذنا منها مايكفيننا ، وإن تكن حراما فكفانا ماأصبنا منها .

فلما رأى عمر ثقل ذلك عليّ قال : ويحك يامزاحم ، لا يكثرنّ عليك شيء صنعتّه لله ، فإن لي نفسا تواقّة ، لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ماهي أرفع منها ، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة (١) .

ففي هذا الخبر تورع عمر رحمه الله عن ذلك المال الذي لايدري

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥٣ .

هل هو حلال أم حرام ؟ ولم يرض أن ينفق منه في الحج كما كان قبل ذلك لا يرضى أن ينفق على نفسه من مال فيه شبهة ، بل إن موضوع النفقة في العبادة أولى بالتحري والبعد عن الشبهات .

وفي آخر الخبر مثل من سمو تفكيره وعلو مقصده ، حيث ذكر وصوله إلى أعلى قمة في الحياة الدنيا ، وأن نفسه قد تاقّت إلى ما هو أعلى من ذلك بكثير وهو الظفر بنعيم الجنة ، فأصبح يُسَخَّرُ كل ما بيده من سلطان للوصول إلى الجنة ، ولذلك كان قويا في عدله ، حارما في قراراته لأن هدفه الأعلى لا يحصل له إلا بذلك .

أما الذين يجعلون هدفهم منازل الحياة الدنيا فإنهم يترددون في إصدار القرارات ويتناقضون فيها بين الحين والآخر ، لأنهم يراعون أمور الدنيا ، وهي متقلبة بتقلب أبنائها .

تورعه عن دماء الناس وأموالهم :

هذا ومن نماذج تورعه عن دماء الناس وأموالهم ما جاء في كتابه إلى عدي بن أرطاة ، عامله على البصرة حيث قال فيه : أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أن قبلك عُمَلاً قد ظهرت خيانتهم ، وتسالني أن آذن لك في عذابهم ، كأنك ترى أنني لك جنة من دون الله ، فإذا جاءك كتابي هذا فإن قامت عليهم بيعة فخذهم بذلك ، وإلا فأحلفهم دُبر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما اختانوا من مال المسلمين شيئا ، فإن حلفوا فخل سبيلهم ، فإنما هو مال المسلمين ، وليس للشحیح منهم إلا جهد أيمانهم ، ولعمري لأن يلقوا الله بخياناتهم

أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم ، والسلام (١) .

وهكذا كان عمر رحمه الله شديداً في محاسبة الولاة ، حريصاً على أموال المسلمين ، ولقد فهم والي البصرة أن مما يترتب على هذا المنهج أن يقوم بتعذيب العمال الذين ظهرت خيانتهم ، فاستأذن أمير المؤمنين عمر في ذلك ، فكان جوابه جواب الرجل الذي يخشى الله تعالى في دماء المسلمين وأعراضهم .

وقد أشار إلى نقطة مهمة وهي أن كل وال مسئول عن عمله وعن كل ما يقوم به من إحسان أو عقوبة ، وأن صدور الأوامر من مسئول أعلى منه لا يسوغ وقوعه في الخطأ والتجاوز لأن المسئول الأعلى قد لا يعلم تفاصيل الأمر كما يعلمها هو .

ويبين في كتابه لذلك الوالي أنه إذا قامت البينة على مسئول بخيانة فيجب أخذه بذلك ، وإن لم تقم عليه بينة فيكفي لبراءته ظاهراً أن يحلف بعد صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما اختان من مال المسلمين شيئاً .

ثم يختم عمر كتابه ببيان ما ينتظره وينتظر الولاة من الوقوف للحساب بين يدي الله تعالى فيما إذا وقع منهم ظلم للآخرين ، وفي هذا تذكير للمسئولين بأن يراقبوا الله سبحانه ، ويتذكروا وقوفهم بين يديه للحساب ، وهذا يجعلهم يترددون كثيراً قبل أن يقدموا على ثواب أو عقاب .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦٨ .

نماذج من تورعه عن المال العام :

ومن ذلك أنه وفد عليه بريد من بعض الآفاق، فانتهى إلى باب عمر ليلا فقرع الباب فخرج إليه البواب فقال : أعلم أمير المؤمنين أن بالبواب رسولا من فلان عامله ، فدخل فأعلم عمر، وقد كان أراد أن ينام ، ففقد وقال : إئذن له ، فدخل الرسول فدعا عمر بشمعة غليظة فأججت نارا ، وأجلس الرسول، وجلس عمر فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد، وكيف سيرة العامل وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار وأبناء السبيل والفقراء، وهل أعطى كل ذي حق حقه، وهل له شك وهل ظلم أحدا ؟

فأنباه بجميع ما علم الرسول من أمر تلك المملكة، فلم يدع شيئا إلا أنباه به، كل ذلك يسأله فيحفي السؤال حتى إذا فرغ عمر من مسأله قال له : يا أمير المؤمنين كيف حالك في نفسك ويدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك ومن تُعنى بشأنه ؟ قال : فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال : يا غلام عليّ بسراج، فدعا بفتيلة لا تكاد تضيء فقال : سل عيما أحببت ، فسأله عن حاله فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته ، فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها وقال : يا أمير المؤمنين رأيتك فعلت أمرا ما رأيتك فعلت مثله ، قال : وما هو ؟ قال : إطفأوك الشمعة عند مسألتي إياك عن حالك وشأنك .

فقال : يا عبد الله إن الشمعة التي رأيته أطفأتها من مال الله ومال المسلمين وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم فكانت تلك

الشمعة تَقْدُ بين يديَّ فيما يصلحهم وهي لهم : فلما صرتُ لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين (١) .

فهذا التصرف الذي قام به عمر بن عبد العزيز في غاية السمو من الورع ، وفيه ملاحظة في الفصل بين حق النفس وحق المسلمين .

ولو تصور أيّ مسئول هذا الأمر لأدرك أن القليل جداً من المسئولين يُحْظَى بهذا التذكر السريع في أمر حقير كهذا ، ثم القليل من هؤلاء الذي يتورع بهذه الدقة ، فيجتنب الاستفادة من حق المسلمين العام في مثل هذا الأمر الصغير .

ويشبه هذا في حياة المسئولين استعمال الورق والأقلام والظروف ونحوها لصالح المسئول الخاص بما كان خاصاً بالعمل .

وقد يحتقر المسئول هذا الأمر ولا يُلْقِي له بالاً لعدم ظهور النقص في الحق العام بشكل واضح ، ولكن المبدأ واحد في عدم جواز استخدام حق المسلمين العام في الشؤون الخاصة ، سواء في أمر خطير أو في أمر حقير .

وأخرج محمد بن سعد من خبر جويرية بن أسماء قال : قال عمر يامزاحم بعني رَحْلاً لمصحفي ، قال فأتاه برحْلٍ فأعجبه ، قال : من أين أصبتَ هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين دخلتُ بعض الخزائن فوجدتُ هذه الخشبة فاتخذتُ منها رَحْلاً . قال : انطلق فقومهُ في السوق . فانطلق فقوموه نصف دينار فرجع إلى عمر فأخبره ، قال : تُرانا إن وضعنا في بيت المال ديناراً أنسلم منه ؟ قال : إنّما قوموه نصف دينار . قال : ضَع في بيت المال دينارين .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٥ .

وأخرج أيضا من خبر عليّ بن مسعدة قال: حدثنا رياح بن عبيدة قال: أخرج مسك من الخزائن فلما وضع بين يدي عمر أمسك بأنفه مخافة أن يجد ريحه ، فقال له رجل من أصحابه : يا أمير المؤمنين ما ضرّك أن وجدتَ ريحه ؟ فقال عمر : وهل يُتَغى من هذا إلا ريحه ؟

وأخرج أيضا من خبر فُرات بن مسلم قال: كنت أعرض على عمر بن عبد العزيز كتيبي في كلّ جمعة فعرضتها عليه فأخذ منها قرطاساً قدر شبر أو أربع أصابع بقي فكتب فيه حاجة له ، فقلت: غفل أمير المؤمنين . فلما كان من الغد بعث إليّ أن تعالَ وجيء بكتبك ، فبحثته بها فبعثني في حاجة ، فلما جئت قال: مانال لنا أن ننظر في كتبك بعدُ ، قلتُ : لا إنّما نظرتُ فيها أمس . قال: خذها حتى أبعث إليك . فلما فتحتُ كتيبي وجدتُ فيها قرطاساً قدر قرطاسي الذي أخذ .

وأخرج أيضا من خبر وهيب بن الورد قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز اتخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل . قال وتقدّم إلى أهله : إياكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئا من طعامها فإنّما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل . فجاء يوما فإذا مولاة له معها صحيفة فيها غرفة من لبن فقال لها : ما هذا ؟ قالت: زوجتك فلانة حامل كما قد علمت واشتهدت غرفة من لبن ، والمرأة إذا كانت حاملا فاشتهدت شيئا فلم تؤت به تخوفت على ما في بطنها أن يسقط ، فأخذتُ هذه الغرفة من هذه الدار . فأخذ عمر بيدها فتوجّه بها إلى زوجته وهو

عالي الصوت وهو يقول : إن لم يُمسك مافي بطنها إلا طعامُ المساكين والفقراء فلا أمسكه الله . فدخل على زوجته فقالت له : مالك؟ قال : تزعم هذه أنه لا يُمسك مافي بطنك إلا طعام المساكين والفقراء ، فإن لم يُمسكه إلا ذلك فلا أمسكه الله . قالت زوجته : رُدِّيه ويحك ، والله لا أذوقه . قال : فردّته .

وأخرج من خبر عُبيد بن الوليد قال : سمعتُ أبي يذكر أنَّ عمر ابن عبد العزيز كان يسخِّن له في مطبخ العامة ماء يتوضأ به وهو لا يعلم ، ثم علم بعد ذلك فقال : كم لكم منذ أسخنتموه ؟ فقالوا : شهر أو نحوه . قال فألقى في مطبخ العامة لذلك حطباً (١) .

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الحكيم بن عمر قال : شهدت عمر بن عبد العزيز وأرسل غلامه يشوي بكبكة من لحم ، فعجل بها ، فقال : أسرع بها ! قال : شويتها في نار المطبخ - وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم - فقال لغلامه : كُلها يا بني فإنك رزقتها ولم أرزقها (٢) .

فهذه الأخبار تفيد تورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عن الاستفادة من مال المسلمين العام ، وهي تبين ورعه عن أشياء صغيرة جداً لا تلفت نظر أكثر الناس ، لكنه لدقة إحساسه بالحرام والشبهات تنبه لها ، فقدم بذلك أمثلة رائعة للتورع أصبحت عبرة

(١) طبقات ابن سعد ٣٦٦/٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٧ - ٣٧٩ ، ٣٩٩ وانظر تاريخ دمشق ٢١٤/٤٥ - ٢١٩ .

(٢) حلية الأولياء ٢٩١/٥ .

لأفراد الأمة من معاصريه والذين جاؤوا بعده رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

خوفه من الرياء والسمعة :

أخرج محمد بن سعد من خبر ميمون بن مهران قال : كنت في سمر عند عمر بن عبد العزيز ليلة فتكلم فوعظ ، قال : ففطن لرجل خذف بدمعته فسكت ، فقلت : يا أمير المؤمنين عُدْ لمنطقك لعل الله أن ينفع بك من بلغه وسمعه ، فقال : ياميمون إن الكلام فتنة وإن الفعل أولى بالمرء من القول (١).

وهكذا سكت عن الوعظ حينما أحس بشيء من الإعجاب بالنفس لما رأى أن كلامه أبكى ذلك الرجل ، وهذا يدل على كمال إخلاصه لله تعالى وقوة توحيده ، وقد ذكر لميمون بن مهران أن الكلام فتنة ، وذلك أن الإنسان قد يعجب بنفسه لما يرى من قوة تأثيره على الناس فيكون ذلك سبباً في نقص إخلاصه ، حيث يتكلم ليراه الناس فيمدحوه ويتحدثوا عنه .

وفي هذا المعنى ما ذكر الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي من خبر سعيد بن عبد العزيز قال : كان عمر بن عبد العزيز إذا خطب على المنبر فخاف فيه العجب قطع ، وإذا كتب كتاباً فخاف فيه العجب مزقه ، ويقول : اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي (٢).

(١) طبقات ابن سعد ٣٧١/٥ وانظر تاريخ دمشق ٢٢٩/٤٥ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٨٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥١ .

وكذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر نعيم بن عبد الله كاتب عمر بن عبد العزيز أن عمر بن عبد العزيز قال : إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة (١) .

مثل من حرصه على إخفاء عمله الصالح :

ذكر الشيخ عمر بن محمد الخضر الملاء من خبر رجاء بن حيوة قال : لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وقام يزيد بن عبد الملك بعده في الخلافة ، أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال ليزيد : ياأمير المؤمنين ! إن هذا المرائي - يعني عمر بن عبد العزيز - الذي مضى بالأمس قد أخذ كل ماقدر عليه من جوهر ثمين وجعله في بيتين ، فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة وسألها عما أخبر به . فقالت : والله يا أخي إن عمر ماترك سبداً ولا لبداً إلا مافي هذا المنديل من الثياب . فحلّه فوجد فيه قميصاً مرقوعاً ورداءً غليظاً قشياً ، وجبةً محشوة غليظة ذاهبة البطانة . قال : ليس عن هذا أسألك ، إنما سألتك عن البيت المقفل . فقالت : والذي فجعني بأمر المؤمنين مادخلت إلى ذلك البيت منذ وُلِّي عمر الخلافة ، لعلمي أنّه كان يكره ذلك ، وهذه مفاتيحه فانظر مافيه ، فإن كان مايقال لك حقاً فحوّل مافيه إلى بيت المال .

فجاء يزيد ومعه عمر بن الوليد والناس ففتحوا البيت الأول وإذا فيه كرسي من آدم وأربع أجرّات مبسوطات ، وقمقم نصفه ماء . فقال عمر : استغفر الله .

ثم فتح البيت الثاني فوجد فيه مسجداً مفروشاً بالحصى وسلسلة

(١) تاريخ دمشق ٢٢٩/٤٥ .

معلقة بسقف البيت فيها كهيئة الطوق يدخل رأسه فيها - كان يجعله في رقبته إذا نعس في الصلاة - وصندوقاً مقفلاً . ففتح الصندوق فإذا فيه دراعة وثياب من شعر وعطاف من مسوح ، فبكى يزيد وبكى الناس . واستغفر عمر - أي ابن الوليد - الله تعالى (١) .

تورعه عن البناء :

قال ابن عياش : كانت لعمر مرقأتان يرقى من صحن داره إلى قعر بيته عليهما ، فانقلعت إحدى المرقأتين فأثاها رجل من أهل بيته فأصلحها كراهية أن يشق على عمر ، فلما جاء عمر ونظر إليها قال : من صنع هذا ؟ قالوا : فلان قال : عليّ به فلما جاء قال : ويحك يافلان ، أنفست على عمر أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة ؟ والله لولا أن يكون فساد بعد إصلاح لغيرتها إلى ماكانت عليه (٢) .

تورعه عن قبول الهدية :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر عمرو بن مهاجر قال : انتهى عمر تفاحاً فقال لو أن عندنا شيئاً من تفاح فإنه طيب؟ فقام رجل من أهله فأهدى إليه تفاحاً ، فلما جاء به الرسول قال : ماأطيبه وأطيب ريحه وأحسنه ، ارفع ياغلام واقرأ على فلان السلام وقل له : إن هديتك قد وقعت عندنا بحيث تحب ، قال عمرو بن مهاجر :

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٦٦٤ - ٦٦٥ ، وانظر البداية والنهاية . ٢٢٣/١٠ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٤ .

فقلت له يا أمير المؤمنين ابن عمك رجل من أهل بيتك وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، قال : إن الهدية كانت للنبي ﷺ هدية ، وهي لنا رشوة (١) .

مثل آخر من رده الهدية :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر يعقوب قال : سمعت أبي يحدث أن عمر بن عبد العزيز جاءه ثلاثون ألف درهم من مال بالبحرين ، فجاءه الذي كان يقوم على طعام أهله ، فقال : يا أمير المؤمنين قد جاءك الله بنفقة ، قال : من أين ؟ قال : من مالك الذي بالبحرين ، جاءتك ثلاثون ألفا ، قال : فاسترجع عمر وقال : ادع لي مُزاحما ، فلما جاءه مزاحم قال : أي مزاحم ، مارددت ذلك المال الذي جاءنا من البحرين في مال الله ! قال مزاحم : سقط عليّ يا أمير المؤمنين ، قال : فاردده وصل بهذا المال في بيت مال المسلمين . قال : فدخل عليه قيّم ذلك المال فقال : يا أمير المؤمنين اعتق رقبتني من الرق أعتقك الله من النار ، قال : فنظر إليه ثم قال : إنما أنت وذاك المال من مال الله فلا سبيل إلى عتقك ، قال : يا أمير المؤمنين جرة رنجيل مُرَبَّت كنت أهديها لك كل عام وقد جئت بها ، قال : ائت بها ، قال : فأخرج منه عوداً فوضعه على شفتيه ثم قال : مه ، إذا شككت في الشيء فدعه ، لاحاجة لي بجرتك (٢) .

(١) حلية الأولياء ٢٩٤/٥ ، وانظر تاريخ دمشق ٢٢٠/٤٥ .

(٢) تاريخ دمشق ٢٢١/٤٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٤٠ .

مثل من إجلاله رسول الله ﷺ :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عبد الله بن يونس قال : سمعت بعض شيوخنا يذكر أن عمر بن عبد العزيز أتى بكاتب يخط بين يديه ، وكان مسلماً وكان أبوه كافراً نصرانياً أو غيره ، فقال عمر للذي جاء به : لو كنت جئت به من أبناء المهاجرين ! قال : فقال الكاتب : ماضٍ رسول الله ﷺ كفر أبيه ، قال فقال عمر : وقد جعلته مثلاً ! لا تخط بين يدي بقلم أبداً (١) .

أمره والي المدينة بالاقتصاد في الوقود والورق :

ومن أمثلة اقتصاده وحفاظه على مال المسلمين العام ماجاء في كتابه لأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم والي المدينة وقد جاء فيه : أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر فيه أنه كان يقطع لمن كان قبلك من أمراء المدينة من الشمع كذا وكذا يستضيئون به في مخرجهم ، فابتليت بجوابك فيه ، ولعمري لقد عهدتكم يا ابن أم حزم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ، ولعمري أنت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان في فتائل أهلِكَ ما يغنيك والسلام .

وكتب إليه أيضاً : أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر أنه كان يُجري على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا ، فابتليت بجوابك فيه ، فإذا جاءك كتابي هذا فأرقِ القلم ، واجمع الخط ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة

(١) حلية الاولياء ٢٨٣/٥ - ٢٨٤ .

فإنه لاجاجة للمسلمين في فضل قول أضرَّ بيت مالهم ، والسلام عليك (١) .

فهذان مثلاً عاليان في الاقتصاد ، فالمسئول مؤتمن على أموال الدولة ، فلايجور له أن يسرف حتى في الأشياء الرخيصة الثمن كالورق والأقلام ونحوها ، لأن القليل مع القليل كثير ، وقبل ذلك لأن الدمة لاتبرأ إلا في الاقتصار على مايؤدي الغرض المطلوب .

وماأشار إليه عمر في هذين الكتابين يعتبر توجيهها سديدا لكل مسئول، بحيث يكون في ذهنه لزوم الاقتصاد في أموال الدولة، من أجل أن تصرف على مستحقها، بدلا من أن تضيع في معاملات طويلة تستنفد وقتا طويلا وتكاليف كثيرة وهي يمكن أن تؤدي في أقل من ذلك .

إن عدم الشعور بوجوب حفظ مال الدولة - الذي هو مال المسلمين العام - يعتبر نوعا من التفريط في الواجب ، وقد يقود صاحبه إلى أنواع من المآثم التي قد لا يحسب لها حسابا .

أما إذا شعر بأن كل فرد من أفراد المسلمين له حق في ذلك المال الذي أصبح مسئولا عنه ، وأن الله تعالى سيحاسبه على القليل والكثير من ذلك إذا صرفه في غير حقه ، فإن ذلك يجعله يفكر كثيراً في حفظ ذلك المال ، وعدم صرفه إلا في وجوهه المشروعة ، وأن يجتهد في الاقتصاد في ذلك ، بحيث يؤدي العمل الكثير بالانفاق القليل .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٤ - ٦٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي / ٦٦ ، وحلية الاولياء ٣٠٧/٥ .

وعظه مسلمة في الاقتصاد في المأكل :

ومن أمثلة زهده وتزهيده في الدنيا ماروي عن مسلمة بن عبد الملك قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه فلا يدخل عليه أحد، فجاءت جارية بطبق تمر صيحاني - وكان يعجبه التمر - فرفع بكفيه فقال : يامسلمة أترى رجلا لو أكل هذا ثم شرب عليه من الماء - فإن الماء على التمر يطيب - أكان يُجزيه إلى الليل ؟ فقلت : نعم ياأمير المؤمنين كان كافيه دون هذا حتى مايبالي أن لا يذوق طعاما غيره، قال: فعلامَ تدخلُ النار ؟

قال مسلمة : فما وقعتُ مني موعظة ماوقعت مني هذه (١) .

فهذه موعظة بليغة من عمر تأثر بها مسلمة بن عبد الملك ، وإنما قصد عمر نهى مسلمة عن الإسراف في الطعام ، وكان ممن اشتهر بذلك .

والإسراف في الطعام قد نهى الله تعالى عنه وكذلك في اللباس ونحوه من متاع الدنيا ، كما قال تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢) .

حواره مع عمته في رد مخصصاتها :

ومن ذلك ماذكره ابن عبد الحكم رحمه الله قال: ولما ولي عمر ابن عبد العزيز أتت عمه له إلى فاطمة امرأته فقالت: إني أريد كلام

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٧ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز

لابن الجوري / ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) سورة الأعراف / ٣١ .

أمير المؤمنين ، قالت لها : اجلسي حتى يفرغ فجلست ، فإذا بـغلام قد أتى فأخذ سراجا .

فقالت لها فاطمة : إن كنت تريدني فالآن ، إذا كان في حوائج العامة كتب على الشمع ، وإذا صار إلى حاجة نفسه دعا بسراجا ، فقامت فدخلت عليه ، فإذا بين يديه أقراص وشيء من ملح وزيت ، وهو يتعشى ، فقالت : يا أمير المؤمنين أتيت بحاجة لي ثم رأيت أن أبدأ بك قبل حاجتي .

قال : وماذا يا عمة ؟ قالت : لو اتخذت لك طعاما ألين من هذا ، قال : ليس عندي يا عمة ، ولو كان عندي لفعلت ، قالت : يا أمير المؤمنين كان عمك عبد الملك يُجري عليّ كذا وكذا ، ثم كان أخوك الوليد فزادني ، ثم وليت أنت فقطعته عني .

قال : يا عمة إن عمي عبد الملك وأخي الوليد وأخي سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس ذلك المال لي فأعطيكه ، ولكنني أعطيك مالي إن شئت ، قالت : وماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : عطائي مائتا دينار فهي لك ، قالت : وما يبلغ مني عطاؤك ؟ قال : فليس أملك غيره يا عمة ، قالت (١) : فانصرف عنه (٢) .

في هذا الخبر مواقف إسلامية رائعة من عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فهو أولا يضرب مثلا عاليا في الورع حيث لا يستعمل في

(١) يعني فاطمة بنت عبد الملك .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٣ .

حوائجه الخاصة شيئًا من مال المسلمين العام ، وقد تقدم خبر يشابه ذلك .

وهو ثانيًا يضرب مثلاً عالياً في الزهد حيث اكتفى بتلك النفقة القليلة والطعام الزهيد ، الذي أشفقت عليه منه عمته فبدأت بلومه على ذلك .

ثم هو ثالثاً يضرب مثلاً عالياً في الحزم والقوة في تطبيق الحق وتنفيذ العدل حتى مع أقاربه الكبار حيث قطع عنهم المخصصات التي كانت تصرف لهم ، ولم يثنه عن عزمه في ذلك كثرة شكواهم وإلحاحهم عليه في الطلب .

ولقد أبدى لعمته استعداداه لمنحها ماله الخاص مع أنه لا يملك غيره ، فهو الأمر الذي يوقن بأن الله تعالى لن يسأله عنه ، أما مال المسلمين العام فإنه مسئول عنه أمام الله تعالى يوم القيامة ، فكيف يعامل أقاربه مهما كان حقهم وقدرهم ليواجه الحساب يوم القيامة ولا حجة له .

ولكن هذه المرأة - مع كبر سنها - زهدت في عطاء عمر لأنه لا يساوي شيئاً يذكر أمام مخصصها الذي قُطع ، مع أن هذا العطاء قد خُصّص من أهل النظر لكفاية بيت من بيوت المسلمين ، وذلك لأنها تعودت على نمط من الحياة لا يغطي تكاليفه إلا المال الكثير .

وهكذا تكون طبيعة النفوس إذا ألفت على الإنفاق الكثير فإنها لا تستطيع أن تألف على القليل .

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تفضمه ينظم
رفضه أن يوصي لأولاده بشيء :

ومن ذلك ما ذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى قال : لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال ، فلو أوصيت بهم إليّ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم ! فلما سمع مقالته قال : أجلسوني فأجلسوه فقال : قد سمعت مقالتك يا مسلمة ، أما قولك : إني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم ، ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم ، وأما ما قلت في الوصية فإن وصيّي فيهم ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٦] ، وإنما ولد عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فسيغنيه الله ، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ، ادعُ لي بنيّ ، فأتوه فلما رأهم ترقرت عيناه ، وقال : بنفسي فتية تركتهم عالة لاشيء لهم - وبكى - : يا بنيّ إني قد تركت لكم خيراً كثيراً ، لا تمرّون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً ، يا بنيّ إني قد مثّلتُ بين الأمرين : إما أن تستغنوا وأدخل النار ، أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة ، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إليّ ، قوموا عصمكم الله ، قوموا رزقكم الله (١)

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١١٥ - ١١٦ ، وانظر تاريخ دمشق ٣٤٥ / ٢٥٢ ، وحلية الأولياء ٣٣٣ / ٥ .

وقد جاء في إحدى الروايات أن الراوي قال : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر (١) .

في هذا الخبر مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حتى في وصيته لأولاده بعد موته ، حيث لم يرض لنفسه أن يفارق الدنيا وقد حملَ ذمته شيئاً لا يدري على أي وضع يكون تنفيذه ، فربما تصور أنه لو أوصى بهم أحد أقاربه لأعطاهم من مصدر لا يحل ، فيلحقه بذلك شيء من الإثم ، فلجأ إلى الله تعالى وفوض أمرهم إليه .

لقد تصور في معاملة أولاده وقوعه بين أمرين : أن يغنيهم في الحياة الدنيا ، وذلك بمنحهم شيئاً من المال العام للمسلمين فيتعرض بذلك للفحات النار ، أو أن يكتفي بالإنفاق عليهم من المورد القليل الحلال الخالي من الشبهات فيتعرض بذلك لفحات الجنة ، فاختر الطريق الأخير مع ثقته بالله تعالى أنه لن يضيعهم ، وقد أشار إلى أنه ترك لهم السمعة العالية ، حيث سيكونون موضع احترام وعطف جميع المسلمين وأهل الذمة ، وأكرمَ بذلك من تركه !!

إنها تركة عظيمة لا تقدر بها أموال الدنيا عند أصحاب الأفكار النيرة والعقول المبصرة .

وفي قوله « إنما ولد عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فسيغنيه الله وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله » لفظة جليلة إلى معية الله تعالى لأوليائه بالحفظ أخذاً من قول الله تعالى ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ ، وإشارة إلى أن الأمر المهم أن

(١) هامش السيرة المذكورة / ١١٦ .

يبيذل الوالد أقصى جهده في تربية أولاده على الصلاح ليحفظهم الله تعالى ، وليس المهم أن يسعى في جمع المال لهم حتى يغتنوا من بعده ، لأنهم إن لم يكونوا صالحين فسيكون ذلك المال عوناً لهم على معصية الله تعالى .

وصيته لمسلمة بالتحري في الأموال :

ومن أمثلة تحري أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الحلال وبعده عن الشبهات ما ذكره ابن عبد الحكم قال : ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه ، فأوصاه عمر بأن يحضر موته وأن يلي غسله وتكفينه ، وأن يمشي معه إلى قبره ، وأن يكون ممن يلي إدخاله في لحده ، ثم نظر إليه وقال : انظر يا مسلمة بأي منزل تتركني ، وعلى أي حال أسلمتني إليه الدنيا ، فقال له مسلمة : فأوص يا أمير المؤمنين ، قال : مالي من مال فأوصي فيه ، قال مسلمة : هذه مائة ألف دينار فأوص فيها بما أحببت ، قال : أوخير من ذلك يا مسلمة ؟ أن تردها من حيث أخذتها ، قال مسلمة : جزاك الله عنا خيراً يا أمير المؤمنين والله لقد أَلَنْتَ لَنَا قُلُوباً قَاسِيَةً ، وجعلت لنا ذكراً في الصالحين (١) .

ففي هذا الخبر يوجه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ابن عمه مسلمة بن عبد الملك إلى التحري في اكتساب المال ، ويبين له أن إنفاق المال بالصدقة أو الهدية لا يجعله حلالاً ، بل لابد من التحري في كسبه ، فإذا لم يكن للإنسان حق فيه وجب عليه أن يرده إلى مستحقه ، ولا يبرئ ساحتَه أن يتصدق به أو يهديه .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٢٢ - ١٢٣ .

اعتباره بزهد النبي ﷺ :

قال الحافظ ابن الجوزي : وعن عمرو بن مهاجر قال : كان متاع رسول الله ﷺ عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في بيت ينظر إليه كل يوم قال : وكان ربما اجتمعت إليه قريش فأدخلهم ذلك البيت ثم استقبل ذلك المتاع فيقول : هذا ميراث من أكرمكم الله وأعزكم به ، قال وكان سريراً مرمولاً بشريط ومرفقة من آدم محشوة بليف وجفنة وقدحا وقطيفة من صوف كأنها جرمقانية^(١) ، قال : ورَحَى وكنانة فيها أسهم وكان في القطيفة أثر وسخ رأسه ، فأصيب رجل فطلبوا أن يغسلوا بعض ذلك الوسخ فيسعط به ، فذكر ذلك لعمه فسعط فبرأ^(٢) .

من أمثلة زهده :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر مسلمة بن عبد الملك قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه ، فإذا قميص وسخ فقلت لامراته فاطمة : اغسلوا قميص أمير الم فقلت : نفعل ذلك إن شاء الله ، ثم عدت فإذا القميص على فقلت : يا فاطمة ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين ! ف والله ماله قميص غيره^(٣) .

(١) نسبة إلى الجرامقه وهم من العجم يصنعون هذه القطائف .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨٥ .

(٣) تاريخ دمشق ٢١١ / ٤٥ .

تربيته أولاده على التقشف والزهد :

ذكر الحافظ ابن الجوري من خبر يعقوب عن أبيه أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز أتى إلى أبيه وهو خليفة يستكسي أباه ، فقال : يا أبت اكسني ، فقال : اذهب إلى الخيار بن رباح البصري فإن لي عنده ثيابا فخذ منها ما بدا لك ، قال : فذهبت إلى الخيار بن رباح فقلت : إني استكسيت أبي فأرسلني إليك وقال : إن لي عند الخيار بن رباح ثيابا ، فقال صدق أمير المؤمنين ، فأخرج إليه ثيابا سنبلانية أو قطرية ، فقال : هذا ما لأمر المؤمنين عندي فخذ منها ما بدا لك ، قال عبد الله : ماهذا من ثيابي ولا من ثياب قومي ، فقال : هذا ما لأمر المؤمنين عندي ، فرجع عبد الله إلى أبيه عمر فقال : يا أبتاه استكسيتك فأرسلتني إلى الخيار بن رباح فأخرج لي ثيابا ليست من ثيابي ولا من ثياب قومي . قال : فذاك مالنا عند الرجل ، فأنصرف عبد الله حتى إذا كاد يخرج ناداه فقال : هل لك أن أسلفك من عطائك مائة درهم ، قال : نعم يا أبتاه ، فأسلفه مائة درهم فلما خرج عطاؤه حوسب بها فأخذت منه (١) .

موعظة المنصور بسيرة عمر المالية :

قال الحافظ ابن الجوري : وبلغني أن المنصور قال لعبد الرحمن ابن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : عظمي . قال : بما رأيت أو بما سمعت ؟ قال : بما رأيت قال : مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلف أحد عشر ابنا وبلغت تركته سبعة عشر

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٣٥ .

دينارا كُفُن منها بخمسة دنانير واشتري له موضع قبره بدينارين وقُسم الباقي على بنيه ، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهما ، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابنا ، فقسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف . ورأيت رجلا من ولد عمر ابن عبد العزيز قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل ، ورأيت رجلا من ولد هشام يُتصدق عليه (١) .

وإن في هذا الخبر لعبرة للمعتبرين ، حيث تحولت حال أبناء عمر ابن عبد العزيز الذين لا يملك الواحد منهم عشرين درهما إلى أن ملكوا الألف ، بينما تحولت حال أبناء هشام بن عبد الملك الذين يملك الواحد منهم مئاة الألف إلى أسوأ حال ، وذلك من آثار صلاح عمر ابن عبد العزيز ومن بركة دعائه الصالح لأولاده ، فإن صلاح الآباء يكون خيرا وبركة على أبنائهم في الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا فمن أدلة ذلك خبر الغلامين اللذين حفظ الله تعالى لهما رزقهما بسبب صلاح أبيهما كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢] .

وأما في الآخرة فإن الله تعالى يلحق بفضلته وكرمه ذرية الصالحين بهم في الجنة كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٥٤ .

كَسَبَ رَهِينٌ ﴿[الطور: ٢١]﴾ ، وإن في ذلك لبشرى لمن وفقوا بآباء صالحين ، وذلك مما يدفعهم إلى الاستقامة على ما كان عليه آباؤهم حتى يسعدوا في دنياهم وآخرتهم .

دقة موازنته بين الدنيا والآخرة :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر جزيمة أبي محمد بن العابد أن عمر بن عبد العزيز قال : ما أعطيت أحداً مالا إلا وأنا استقله ، وإنني لأستحي من الله عز وجل أن أسأل الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قيل لي : لو كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل (١) .

وهذا يدل على اهتمامه بالجنة وتعظيمه إياها وأنه يرى أن الدنيا لاتساوي شيئاً عندها ، فلذلك يرى أن من تكرم على أخيه بسؤال الجنة له لا ينبغي له أن يبخل عليه بالدنيا مهما كان حجم الطلب منها ، وفي ذلك عبرة للمسلمين الذين يستهينون بطلب نعيم الآخرة الخالد ، بينما يبدون اهتماما كبيرا بطلب متاع زائل .

أمثلة من زهده وإصلاحه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الحكم بن عمر الرعيني قال : شهدت عمر حين جاءه أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمها . قال وكم هي ؟ قالوا هي كذا وكذا . قال أبعث بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يريد وأجعل أثمانها في مال الله عز وجل ، تكفيني بغلتي هذه الشهباء ، وجاءه صاحب الرقيق يسأل أرزاقهم

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٣ .

وكسوتهم وما يصلحهم ، فقال عمر : كم هم ؟ قالوا : هم كذا وكذا ألفا ، فكتب إلى أمصار الشام أن ارفعوا إليّ كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به فالج أو من به رمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة ، فرفعوا إليه ، فأمر لكل أعمى بقائد وأمر لكل اثنين من الزمّنى بخادم ، وفُضِّل من الرقيق فكتب : أن ارفعوا إليّ كل يتيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان ، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعون بينهم بالسوية (١) .

فليُنظر العقلاء وليوازنوا بين عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وعهود من قبله من الأمراء بالنسبة لهؤلاء المملوكين الذين خُصِّصوا للخدمة ونحو ذلك ، كم هي نفقاتهم وهم قد بلغوا عدة آلاف ؟ وكم هو النقص الذي يحصل على بيت مال المسلمين منهم ؟ ثم ليُعتبروا بما قرره عمر بن عبد العزيز من التخلي عنهم وتوزيعهم على المسلمين من أصحاب العاهات واليتامى ليقوموا بخدمتهم ، فهو بهذا وفّر نفقاتهم الكبيرة على بيت المال ، وفي الوقت نفسه نفع بهم أعدادا كثيرة من المسلمين هم بحاجة إليهم ، فهكذا تكون الاستقامة ، وهكذا تكون العدالة !!

مثل من خشيته وموقف لأبي قلابة :

أخرج الإمام أحمد من خبر حميد الطويل أبي عبيدة الخزاعي قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز بكى وقال : يا أبا قلابة هل

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٠ .

تخشى علي ؟ قلت : كيف حبك الدرهم ؟ قال : لأحبه ، قال :
لاتخف إن الله عز وجل سيعينك (١) .

فهذا فهم جيد من أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي رحمه الله تعالى ، فقد ذكر أهم أسباب الفتنة وهو حب المال ، فإن حب المال يحمل صاحبه على اكتسابه من طريق الحرام والشبهات ، وإذا وقع المسئول في ذلك سارع إلى منافسته ومحاولة احتوائه أمثاله من أهل الدنيا ، فيضطر إلى إنفاق المال على الكبراء من هؤلاء الذين هم خبراء به لكيلا يفضحوه أمام الناس ، فيكون الجميع شركاء في نهب أموال الأمة وحرمان أصحاب الحقوق .

نهاية عمر بن عبد العزيز وما في ذلك من مواقف :

ذكر ابن سعد من خبر محمد بن قيس قال : حضرت أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أول مرضه ، اشتكى لهلال رجب سنة إحدى ومئة ، فكان شكوه عشرين يوماً ، فأرسل إلى ذمي ونحن بدير سمعان ، فساومه موضع قبره ، فقال الذمي : يا أمير المؤمنين إنها لخيرة أن يكون قبرك في أرضي ، قد حللتك ، فأبى عمر حتى ابتاعه منه بدينارين ، ثم دعا بالدينارين فدفعهما إليه (٢) .

وقال الحافظ الذهبي في ترجمة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : كان قد شدد على أقاربه وانتزع كثيراً مما في أيديهم فتبرموا وسموه ، فروى معروف بن مشكان عن مجاهد قال قال لي عمر بن عبد

(١) الزهد / ٣٠١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٤٠٦/٥ .

العزیز: ما یقول الناس فی ؟ قلت : یقولون إنک مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاما له فقال له ویحك ما حملک علی أن سقیتنی السم؟ قال: ألف دینار أعطیتها وعلی أن أعتق، قال: هات الألف، فجاء بها . فألقاها عمر فی بیت المال . وقال: اذهب حیث لا یراک أحد^(١) .

فهذا مثل عجیب فی العفو ، حیث عفا أمیر المؤمنین عمر بن عبد العزیز رحمه الله تعالی عن غلامه الذی وضع له السم وتسبب فی قتله وهو قادر علی أن یقتله شر قتلة ، ولكنه یوقن بأن ما عند الله خیر وأنه إن عفا عنه حصل له الثواب من الله تعالی علی العفو، وإن انتصر منه فأقام علیه الحد لم یأثم ولكنه لا یحصل علی أجر العفو، ونظراً إلی أن أغلی شیء عنده فی هذه الحیاة أن یرتفع رصیده من الحسنات فإنه قد فضل العفو علی الانتصار للنفس .

ومما جرى منه فی مرضه ما أخرجه محمد بن سعد من خبر آیوب السخثیانی قال: قیل لعمر بن عبد العزیز : یا أمیر المؤمنین لو أتیت المدینة فإن قضی الله موتا دُفِنْتَ فی الموضع الرابع مع رسول الله ﷺ وأبی بکر وعمر ، قال: والله لأن یعذبني الله بكل عذاب إلا النار فإني لأصبر لی علیه أحب إلی من أن یعلم الله تعالی من قلبي أنني أراني لذلك أهلاً^(٢) .

فهذا مثال علی خشيته العظيمة وتواضعه الكبير رحمه الله تعالی
رحمة واسعة .

(١) تذکرة الحفاظ ١/ ١٢١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٠٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزیز لابن الجوزي / ١٤٨ .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي زيد الدمشقي قال: لما ثمة عمر بن عبد العزيز دُعي له طبيب فلما نظر إليه قال: الرجل قد سُمِّ السم ، ولا آمن عليه الموت . فرفع عمر بصره فقال: ولاتأمن الموات أيضا على من لم يسق السم ؟ قال الطبيب هل أحسست بذلك يأم المؤمنين ؟ قال : نعم قد عرفت حين وقع في بطني ، قال: فتعال يأمير المؤمنين فإنني أخاف أن تذهب نفسك ، فقال ربي خير مذهبوه إليه والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني مارفعت يدي إلى أذني فتناولته . اللهم خِرْ لعمر في لقائك ، قال: فلم يلبث أياما حتى مات (١).

وأخرج ابن سعد من خبر عمرو بن عثمان قال: مات عمر بن عبد العزيز لعشر ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة ، وهو أب تسع وثلاثين سنة وأشهر ، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر ومات بدير سمعان (٢).

سؤال الفقهاء عن حال عمر في بيته :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر وهيب بن الورد قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما توفي جاء الفقهاء إلى امرأته يعزونها به فقالوا لها : جئناك لنعزيك بعمر ، فقد عمت مصيبة الأمة ، فأخبرنا يرحمك الله عن عمر ، كيف كانت حاله في بيته ؟ فإنا أعلم الناس بالرجل أهله ، فقالت : والله ما كان بأكثركم صلاة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٣٩ .

(٢) طبقات ابن سعد ٤٠٧/٥ - ٤٠٨ .

ولاصيما ، ولكني والله مارأيث عبدا لله قط كان أشد خوفا لله من عمر، والله إن كان ليكون في المكان الذي ينتهي إليه سرور الرجل بأهله، بيني وبينه لحاف فيخطر على قلبه الشيء من أمر الله فينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء ثم ينشج ، ثم يرتفع بكأوه حتى أقول: والله لتخرجن نفسه التي بين جنبيه ، فأطرح اللحاف عني وعنه رحمة له، وأنا أقول : ياليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين، فوالله مارأينا سرورا منذ دخلنا فيها (١).

من ثناء العلماء على عمر:

من ذلك ما أخرجه ابن عساكر من خبر حماد بن واقد قال: سمعت مالك بن دينار يقول : يقولون مالك بن دينار زاهد ! (٢) أي زهد عند مالك وله جبة وكساء !! إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها (٣).

ثناء ملك الروم عليه :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر محمد بن معبد أن عمر بن عبد العزيز أرسل بأسارى من أسارى الروم ففادى بهم أسارى من أسارى المسلمين ، قال: فكنت إذا دخلت على ملك الروم فدخلت عليه عظماء الروم خرجت، قال: فدخلت يوما فإذا هو جالس في الأرض مكتئبا حزينا ، فقلت : ما شأن الملك ؟ قال: وماتدري ما حدث؟!

(١) تاريخ دمشق ٢٣٥/٤٥ - ٢٣٦ ، وأخرج نحوه الإمام أحمد في الزهد / ٢٩٩ .

(٢) يعني نفسه .

(٣) تاريخ دمشق ٢٠٩/٤٥ ، وانظر حلية الاولياء ٢٥٧/٥ .

قلت : وما حدث ؟ قال : مات الرجل الصالح ، قلت : من ؟ قال :
عمر بن عبد العزيز . قال : ثم قال ملك الروم : لأحسب أنه لو كان
أحد يحيى الموتى بعد عيسى بن مريم عليه السلام لأحياهم عمر بن
عبد العزيز ، ثم قال : لست أعجب من الراهب أغلق بابه ورفض
الدنيا وترهب وتعبّد ، ولكن أتعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه
فرفضها ثم ترهب (١) .

* * *

(١) حلية الأولياء ٥ / ٢٩٠ ، وأخرج نحوه ابن عساكر - تاريخ دمشق ٤٥ / ٢٦١-٢٦٢ ،
وانظر سير أعلام النبلاء ٥ / ١٤٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوري / ٢٤٩ .

الأمويون والعباسيون والعثمانيون
والدويلات المستقلة

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢
الترقيم الدولي
8 - 151 - 253 - 977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشأ - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضر للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

التَّائِيحُ الْإِسْلَامِيُّ

مَوَاقِفَ وَعِبَر

(١٦)

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المسنقة

الجزء الرابع

دكتور

عبد العزيز بن عبد الحميد

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار النشر والنشر

للنشر والنشر
جدة

دار النشر والنشر

للنشر والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخوارج
ومواقف أئمة المسلمين
وقاداتهم منهم

لم يكن من منهجي في هذا الكتاب التعرض للحروب التي ثارت بين المسلمين ، لأن ذلك يسيء إلى سمعة هؤلاء المتحاربين ، والمقصود من هذا الكتاب هو إبراز مواقف المسلمين ، وتجلية العبر في تاريخهم ، ولكنني رأيت أخيراً أهمية الحديث عن مواقف الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم في معاملة الخوارج ، لأن النبي ﷺ ذكرهم وذمهم ووعد من قاتلهم بالأجر العظيم ، كما سيأتي في ذكر قتالهم مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، ولذلك كان قتالهم يحور على ثناء علماء المسلمين ، فالحديث عن القتال معهم يعتبر إدانة لهم وإشادة بمن قاتلهم .

- الخوارج وماورد فيهم من أحاديث -

الخوارج هم كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه (١).

وبداية وجودهم في عهد رسول الله ﷺ ، وذلك حينما اعترض عليه أحدهم في قسمة الغنائم يوم حنين، وقد أخرج خبر ذلك الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الحويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله ، فقال : ويلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب : دعني أضرب عنقه . قال : دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه ، يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية ، يُنظر في قُدْزِهِ فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر نضيه فلا يوجد فيه شيء ، قد سبقَ الفَرثَ والدم . آيتهم رجلٌ إحدى يديه - أو قال ثدييه - مثل ثدي المرأة ، أو قال: مثل البضعة تدردرُ . يخرجون على حين فرقة من الناس . قال أبو سعيد : أشهدُ سمعتُ من النبي ﷺ ، وأشهدُ أن علياً قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعتِ الذي نعتَه النبي ﷺ (٢) .

وقوله « كما يرق السهم من الرميّة » معناه أن خروجهم من

(١) الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ١٥٥/١ .

(٢) صحيح البخاري ، رقم ٦٩٣٣ ، كتاب استتابة المرتدين ١٢/٢٩٠ صحيح مسلم ، رقم ١٠٦٤ ، كتاب الزكاة ص ٧٤٤ .

الإسلام يتم بسرعة كخروج السهم من الصيد المرمي بقوة وسرعة من قوة الرمي .

وقوله « ينظر في قُذْذه » هي ريش السهم .

وقوله « ثم ينظر إلى نصله » يعني حديدة السهم .

وقوله « ثم ينظر إلى رصافه » يعني إلى مدخل النصل من السهم .

وقوله « ثم ينظر إلى نَضِيّه » هو السهم بلانصل ولاريش .

وقوله « سبق الفرث والدم » أي أن السهم جاوزهما ولم يعلق فيه منهما شيء .

والمقصود هو التعبير عن سرعة خروج الخوارج من الإسلام بتشبيه ذلك بسرعة خروج السهم من الصيد المرمي بحيث لا يعلق بأي جزء من أجزائه شيء منه .

وفي حديث آخر أخرجه الشيخان أن النبي ﷺ قال في وصفهم : « يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » (١) .

وفي رواية لمسلم « يتلون كتاب الله لينّا رطباً » (٢) .

(١) صحيح مسلم ، رقم ١٠٦٤ / ١٤٣ ، الزكاة (ص ٧٤١ - ٧٤٢) .

صحيح البخاري ، رقم ٣٣٤٤ ، الانبياء (٦ / ٣٧٦) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم ١٠٦٤ / ١٤٥ ، الزكاة (ص ٧٤٣) .

وجاء في حديث آخر أخرجه الشيخان « سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة » (١) .

وجاء في رواية لمسلم « يخرجون في فرقة من الناس ، سيماهم التحالق ، هم شر الخلق - أو من أشر الخلق - يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق » .

وفي رواية أخرى لمسلم « يَتِيَهُ قوم قِبَل المشرق ، مُحَلَّقَةٌ رؤوسهم » (٢) .

ففي هذه الأحاديث بيان شيء من صفات الخوارج ، فمن ذلك أنهم يشتهرون بكثرة التعبد بالشعائر التعبدية كالصلاة والصيام، وأن الصحابة رضي الله عنهم على كثرة تعبدهم يحقرون صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم .

ومنها أنهم من قراء كتاب الله تعالى وأنهم يحسنون أداءه، ويحسنون أصواتهم به ، ولكنهم لا يتأثرون به في قلوبهم ولا يؤثر على سلوكهم .

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٩٣٠ ، ٦٩٣٤ ، كتاب استتابة المرتدين (١٢/٢٨٣ ، ٢٩٠) .

صحيح مسلم رقم ١٠٦٦/١٥٤ ، الزكاة ، (ص ٧٤٦ - ٧٤٧) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة رقم ١٤٩ ، ١٦٠ (ص ٧٤٥ ، ٧٥٠) .

ومنها أنهم من صغار السن وأنهم سفهاء العقول لا يفكرون تفكيراً سليماً .

ومنها أنهم ينطقون بالكلام الحسن الذي يجذب انتباه الناس ولكنهم يسيئون الأفعال، وذلك من قول رسول الله ﷺ عنهم «يقولون من خير قول البرية» قال الحافظ ابن حجر: تقدم قول من قال إنه مقلوب وأن المراد من قول خير البرية وهو القرآن، قال قلت: ويحتمل أن يكون على ظاهره والمراد القول الحسن في الظاهر وباطنه على خلاف ذلك، كقولهم «لاحكم إلا لله»، قال: وفي حديث أنس عن أبي سعيد عند أبي داود والطبراني «يحسنون القول ويسيثون الفعل»^(١).

ومنها أنهم يكثرون من الأقوال التي ظاهرها الإيمان ، ولكن قلوبهم بخلاف ذلك « لا يجاور إيمانهم حناجرهم » .

ومنها أنهم يحلقون رؤوسهم على الدوام على خلاف المعتاد من حياة الناس في ذلك الزمن .

ومنها أنهم يعاملون من خالفهم من المسلمين بعنف وقسوة، ويستحلون دماءهم وأموالهم ، بينما يعاملون الكفار من أهل الذمة بلين ولطف ، ويتورعون عن دمائهم وأموالهم .

مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من الخوارج :

كان أول ظهور الخوارج بشكل جماعي في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وذلك بعد معركة صفين حينما دعا أصحاب معاوية رضي الله عنه إلى إيقاف القتال والتحاكم إلى

(١) فتح الباري ٢/ ٢٨٧ .

كتاب الله تعالى ، فكَرِهَ ذلك علي رضي الله عنه لأنه كان قد أوشك على النصر وقَبِلَ ذلك فرقة من جيشه وألزموه بإيقاف القتال وقبول التحكيم ، ثم إن طائفة من هؤلاء غيروا رأيهم واعتبروا أن التحكيم كفر وأن من قبل ذلك فقد كفر ، ثم أظهروا توبتهم من ذلك الكفر ورفضوا قبول التحكيم ، وخرجوا على علي رضي الله عنه .

وقد وردت في ذلك أخبار منها ما أخرجه المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري من خبر الإمام الشعبي قال : لما اجتمع علي ومعاوية على أن يُحكِّمَ رجلين اختلف الناس على علي فكان عظمهم وجمهورهم مقرين بالتحكيم راضين به ، وكانت فرقة منهم - وهم زهاء أربعة آلاف من ذوي بصائرهم والعباد منهم - منكرة للحكومة ، وكانت فرقة منهم وهم قليل متوقفين ، فأنت الفرقة المنكرة علياً فقالوا : عد إلى الحرب - وكان علي يحب ذلك - فقال الذين رضوا بالتحكيم : والله مادعانا القوم إلا إلى حق وإنصاف وعدل ، وكان الأشعث بن قيس وأهل اليمن أشدهم مخالفة لمن دعا إلى الحرب ، فقال علي للذين دعوا إلى الحرب : يا قوم قد ترون خلاف أصحابكم وأنت قليل في كثير ، ولئن عدتم إلى الحرب ليكوننَّ أشدَّ عليكم من أهل الشام ، فإذا اجتمعوا وأهل الشام عليكم أفنوكم ، والله مارضيت ماكان ولاهويته ، ولكني ملت إلى الجمهور منكم خوفاً عليكم . ثم أنشد :

وما أنا إلا من غُزِيَّةٍ إن غَوَتْ غويت وإن ترشد غزية أرشد

ففارقوه ومضى بعضهم إلى الكوفة قبل كتاب القضية ، وأقام الباقون معه على إنكارهم التحكيم ناقلين عليه يقولون : لعلَّ يتوب

ويراجع ، فلما كُتبت القضية (١) خرج بها الأشعث فقال عروة بن حدير : يا أشعث ماهذه الدنية ؟ أشرط أوثق من شرط الله ؟ واعترضه بسيف فضرب عجز بغلته وحكم (٢) فغضب للأشعث أهل اليمن حتى مشى الأحنف ، وجارية بن قدامة ، ومعقل بن قيس ، وشبث بن ربعي ، ووجوه تميم إليهم فرضوا وصفحوا (٣) .

وأخرج أيضا من خبر الإمام الزهري قال : لما قدم علي بن أبي طالب إلى الكوفة من صفين خاصمته الحرورية ستة أشهر وقالوا : شككت في أمرك وحكمت عدوك ووهنت في الجهاد ، وتأولوا عليه القرآن فقالوا : قال الله : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ (٤) الآية : وطالت خصومتهم لعلي ، ثم زالوا برأياتهم وهم خمسة آلاف عليهم ابن الكواء ، فأرسل إليهم علي عبد الله بن عباس وصعصعة بن صوحان فدعواهم إلى الجماعة وناشدهم فأبوا عليهما ، فلما رأى ذلك علي أرسل إليهم إنا نوادعكم إلى مدة نتدارس فيها كتاب الله لعلنا نصطلح ، وقال لهم : أبرزوا منكم اثني عشر نقيبا ، وأبعث منا مثلهم ونجتمع بمكان كذا فيقوم خطباؤنا بحججنا وخطباؤكم بحججكم . ففعلوا ورجعوا فقام علي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإنني لم أكن أحرصكم على هذه القضية وعلى التحكيم ولكنكم وهنتم في القتال ، وتفرقتم علي وخاضمني القوم بالقرآن

(١) أي قضية الصلح بين علي ومعاوية رضي الله عنهما بتحكيم الحكيمين .

(٢) يعني قال : لاحكم إلا لله .

(٣) أنساب الأشراف ١١٢/٣ .

(٤) سورة غافر الآية (٢٠) .

ودعونا إليه ، فخشيت إن أبيت الذي دعوا إليه من القرآن والحكم ، أن يتأولوا عليّ قول الله : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) الآية : ويتأولوا قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصِّيدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لَّيَذُوقُوا وَعَلَى أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (٢) ويتأولوا قوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (٣) الآية فلم آب عليهم التجاكم ، وخشيت أن تقولوا : فرض الله في كتابه الحكومة في أصغر الأمر فكيف الأمر الذي فيه سفك الدماء ، وقطع الأرحام وانتهاك الحريم ، وخفت وهنكم وتفرقكم .

ثم قامت خطباء الحرورية ، فقالوا : دعوتنا إلى كتاب الله والعمل به فأجبناك وبايعناك وقد قُتِلَتْ في طاعتك قتلتنا يوم الجمل وصفين ، ثم شككت في أمر الله وحكمت عدوك ، ونحن على أمرك الذي تركت ، وأنت اليوم على غيره ، فلسنا منك إلا أن تتوب منه وتشهد على نفسك بالضلالة . فلما فرغوا من قولهم : قال علي :

أما أن أشهد على نفسي بالضلالة فمعاذ الله أن أكون ارتبت منذ

(١) سورة آل عمران الآية (٢٣) .

(٢) سورة المائدة الآية (٩٥) .

(٣) سورة النساء الآية (٣٥) .

أسلمت، أو ضللت منذ اهتديت، بل بنا هداكم الله من الضلالة، واستنقذكم من الكفر، وعصمكم من الجهالة، وإنما حكمت الحكمين بكتاب الله والسنة الجامعة غير المفرقة ، فإن حكما بكتاب الله كنت أولى بالأمر في حكمهما ، وإن حكما بغير ذلك لم يكن لهما علي وعليكم حكم .

ثم تفرقوا فأعاد إليهم عبد الله بن عباس وصعصعة فقال لهم صعصعة : أذكركم الله أن تجعلوا فتنة العام مخافة فتنة عام قابل ، فقال ابن الكواء : أستم تعلمون أني دعوتكم إلى هذا الأمر؟ فقالوا: بلى . قال : فإنني أول من أطاع هذا الرجل فإنه واعظ شفيق . فخرج معه منهم نحو من خمسمائة فدخلوا في جملة علي وجماعته ، وبقي منهم نحو من خمسة آلاف رجل فقال علي : اتركوهم حتى يأخذوا ، ويسفكوا دمًا حراما ففعل ذلك .

وأخرج أيضا من خبر الصلت بن بهرام قال: لما قدم علي الكوفة من صفين جعل يخطب الناس وجعلت الخوارج تقول - وهو على المنبر - : قَبِلَتِ الدِّينِيَّةُ بِالْقَضِيَّةِ ^(١) ، وجزعت عن البلية لاحكم إلا لله . فيقول : حكم الله انتظر فيكم . فيقولون : ﴿ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(٢) ، فيقول علي : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ^(٣) .

(١) يعني حينما رضيت بالتحكيم .

(٢) سورة الزمر الآية (٦٥) .

(٣) سور الروم (٦٠) .

وأخرج أيضا من خبر الإمام الزهري قال: أنكرت الحكومة على علي طائفة من أصحابه قدمت إلى بلدانها من صفين، وانحار منهم اثنا عشر ألفاً - ويقال ستة آلاف - إلى موضع يقال له: حروراء بناحية الكوفة فبعث إليهم علي ابن عباس وصعصعة، فوعظهم صعصعة. وحاجهم ابن عباس فرجع منهم ألفان وبقي الآخرون على حالهم حيناً، ثم دخلوا الكوفة، فلما انقضت المدة في القضية وأراد علي توجيه أبي موسى أناه حرقوص بن زهير التميمي وزيد بن حصين الطائي وزرعة بن البرج الطائي في جماعة من الحرورية، فقالوا: اتق الله وسر إلى عدوك وعدونا، وتب إلى الله من الخطيئة، وارجع عن القضية، فقال علي: أما عدوكم فإني أردتكم على قتالهم وأنتم في دارهم فتواكلتم ووهنتم وأصابكم ألم الجراح فجزعتم وعصيتُموني، وأما القضية فليست بذنب ولكنها تقصير وعجز أتيتُموه وأنا له كاره، وأنا استغفر الله من كل ذنب. فقال له زرعة: والله لئن لم تدع التحكيم في أمر الله لأجاهدك، فقال له علي: بؤساً لك ما أشقاك، كأني أنظر إليك غداً صريعاً تسفي عليك الرياح، قال: وددتُ ذلك قد كان، فانصرفوا وهم يظهرون التحكيم^(١) ويدخلون الكوفة، فإذا صلى علي وخطب حكّموا، فيقول علي: كلمة الحق يُعتزى بها باطل.

وبلغ يزيد بن عاصم المحاربي قول علي لزرعة بن البرج، فأثاه فقال: يا علي أتخوفنا بالقتل، إنا لنرجو أن نضربكم بها عن قليل غير

(١) أي يقولون لاحكم إلا لله.

مصفحات (١) ، ثم تعلم أينما أولى بها صلياً ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيا في دينك فإنها إدهان وذل (٢) .

وأخرج الإمام الطبري نحو ذلك في عدة أخبار، وقد جاء في خبر عبد الملك بن أبي حرة الحنفي أن علياً رضي الله عنه خرج ذات يوم يخطب، وأنه لفي خطبته إذ حكمت المحكمة (٣) في جواب المسجد فقال علي : الله أكبر ، كلمه حق يراد بها باطل ، إن سكتوا غممناهم ، وإن تكلموا حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم ، فوثب يزيد بن عاصم المحاربي فقال : الحمد لله غير مودع ربنا ولا مستغنى عنه ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيا في ديننا ، فإن إعطاء الدنيا في الدين إدهان في أمر الله عز وجل وذل راجع بأهله إلى سخط الله .

وفي خبر آخر عن كثير بن بهز الحضرمي ، قال : قام علي في الناس يخطبهم ذات يوم ، فقال رجل من جانب المسجد : لا حكم إلا لله ، فقام آخر فقال مثل ذلك ، ثم توالى عدة رجال يُحكّمون ، فقال علي : الله أكبر ، كلمة حق يُلتمس بها باطل ! أما إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا : لا تمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا تمنعكم الفئ ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدءونا ، ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته (٤) .

(١) يعني نفريكم بحد السيوف .

(٢) أنساب الأشراف ١٢٦/٣ - ١٣٠ .

(٣) يعني قال الخوارج لا حكم إلا لله .

(٤) تاريخ الطبري ٦٤/٥ - ٧٣ .

بعث ابن عباس لمخاورتهم :

هذا وقد أرسل إليهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهم ليجادلهم بالحكمة ويدعوهم بالتي هي أحسن ، وقد ورد الخبر عن ذلك من عدة طرق ، منها ما أخرجه الإمام عبد الرزاق الصنعاني من خبر أبي زميل سماك الحنفي قال : حدثنا عبد الله بن عباس قال : لما اعتزلت الحرورية فكانوا في دارٍ على حدّتهم قلت لعليّ : يا أمير المؤمنين ! أبرد عن الصلاة لعليّ آتي هؤلاء القوم فأكلّمهم ، قال : إني أتخوفهم عليك ، قلت : كلا إن شاء الله تعالى ، قال : فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية ، قال : ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة ، قال : فدخلت على قوم لم أرَ قومًا قطُّ أشدَّ اجتهادًا منهم ، أيديهم كأنها ثفن الإبل ، ووجوههم معلّمة من آثار السجود ، قال : فدخلت ، فقالوا : مرحبًا بك يا ابن عباس ! ما جاء بك ؟ قلت : جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ ، عليهم نزل الوحي ، وهم أعلم بتأويله ، فقال بعضهم : لا تحدّثوه ، وقال بعضهم : والله لنحدّثه ، قال : قلت : أخبروني ما تنقمون على ابن عمّ رسول الله ﷺ وختنه ، وأوّل من آمن به ؟ وأصحاب رسول الله ﷺ معه ؟ قالوا : ننقم عليه ثلاثًا ، وقد قال : قلت : وما هنّ ؟ قالوا : أولهنّ أنّه حكّم الرجال في دين الله ، وقد قال الله : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ ﴾ (١) ، قال : قلت : وماذا ؟ قالوا : وقاتل ولم يَسِبْ ، ولم يغنم ، لئن كانوا كفّارًا لقد حلّت له أموالهم ، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم ، قال : قلت :

(١) سورة الأنعام الآية (٥٧) ، وسورة يوسف الآية (٤٠) والآية (٦٧) .

وماذا ؟ قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين ، قال : قلت : رأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم ، وحدثتكم من سنة نبيه ﷺ مالا تنكرون ، أترجعون ؟ قالوا: نعم ، قال : قلت : أما قولكم : حكم الرجال في دين الله ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ (١) وقال في المرأة وزوجها : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعُثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ (٢) أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم ، وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم ؟ قالوا : اللهم بل في حقن دمائهم ، وإصلاح ذات بينهم ، قال : أخرجت من هذه ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : وأما قولكم : إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم ، أتسبون أمكم عائشة ؟ أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها ، فقد كفرتم ، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام ، إن الله يقول : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٣) فأنتم مترددون بين ضالالتين ، فاختراروا أيتهما شئتم ، أخرجت من هذه ؟ قالوا: اللهم نعم ، قال : وأما قولكم : محا نفسه من أمير المؤمنين ، فإن رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ، فقال : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقالوا :

(١) سورة المائدة الآية (٩٥) .

(٢) سورة النساء الآية (٣٥) .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٦) .

والله لو كُنَّا نعلم أنك رسول الله ماصدّدناك عن البيت ، ولاقاتلناك ،
ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فقال : والله إني لرسول الله حقًا
وإن كذبتُموني . اكتب يا علي ! محمد بن عبد الله ، فرسول الله ﷺ
كان أفضل من علي رضي الله عنه ؛ أخرجتُ من هذه ؟ قالوا : اللهم
نعم ، فرجع منهم عشرون ألفًا ، وبقي منهم أربعة آلاف ، فقتلوا (١) .

وذكر الحافظ الهيثمي أن الإمام الطبراني رواه وأن الإمام أحمد
روى بعضه قال : ورجالهما رجال الصحيح (٢) .

وأخرجه الحافظ البيهقي وذكر نحوه وفيه : فرجع من القوم ألفان
وقُتل سائرهم على ضلالة (٣) .

وما جاء في هذا الخبر من أن عددهم أربعة وعشرون ألفا فيه مبالغة
والصواب ما جاء في الروايات الأخرى من أنهم كانوا أربعة آلاف ثم
زادوا حتى صاروا ستة آلاف أو ثمانية آلاف على اختلاف الروايات .

جرمهم بقتل المسلمين الأمنين :

أخرج البلاذري من خبر أبي مجلز : أن عليًا رضي الله عنه نهى
أصحابه أن يسطوا على الخوارج حتى يحدثوا حدثًا .

قال : وكان الخوارج الذين قدموا من البصرة مع مسعر بن فدكي
استعرضوا الناس في طريقهم ، فلما ذاهم برجل يسوق بامرأته على
حمار له ، فدعوه وانتهروه ورعبوه وقالوا له : من أنت ؟ فقال :

(١) مصنف عبد الرزاق ١٥٧/١٠ - ١٦٠ رقم ١٨٦٧٨ .

(٢) مجمع الزوائد ٢٣٩/٦ - ٢٤١ .

(٣) سنن البيهقي ١٨٠/٨ .

رجل مؤمن قالوا : فما اسمك ؟ قال : أنا عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ . فكفوا عنه ، ثم قالوا له : ماتقول في علي ؟ قال : أقول : إنه أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، وقد حدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ستكون فتنة يموت فيها قلب الرجل فيصبح مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً » . فقالوا : والله لنقتلنك قتلة ماقتلها أحد ، وأخذوه فكتفوه ثم أقبلوا به وبامراته وهي حبلى مُتَمَّ حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت رطبة منها فكدفها بعضهم في فيه ، فقال له رجل منهم : أبغير حلها ولائمن لها؟ فألقاها من فيه واخترط سيفه وجعل يهزه فمرَّ به خنزير لذمي فقتله بسيفه ، فقال له بعض أصحابه : إن هذا لمن الفساد في الأرض . فطلب صاحب الخنزير حتى أرضاه ، فقال ابن خباب : لئن كنتم صادقين فيما أرى وأسمع إني لآمن من شرِّكم . قال : فجاءوا به فأضجعوه على شفير نهر وألقوه على الخنزير المقتول فذبحوه عليه ، فصار دمه مثل الشراك قد امدق^(١) في الماء ، وأخذوا امرأته فبقروا بطنها وهي تقول : أما تتقون الله ؟ وقتلوا ثلاث نسوة كنَّ معها .

فبلغ علياً خبر ابن خباب وامراته والنسوة ، وخبر سوادي لقوه بنفَر فقتلوه ، فبعث علي إليهم ابن الحارث بن مرة العبدي ليتعرف حقيقة مابلغه عنهم ، فلما أتى النهروان وقرب منهم خرجوا إليه فقتلوه ، وبلغ ذلك علياً ومن معه ، فقالوا له : ما تركنا هؤلاء وراءنا يخلفونا في أموالنا وعيالاتنا بما نكره ؟ سر بنا إليهم فإذا فرغنا منهم

(١) أي لم يختلط بالماء .

سرنا إلى عدونا من أهل المغرب^(١)، فإن هؤلاء أحضر عداوة وأنكى حدًا.

وقال : وقام الأشعث بن قيس فكلمه بمثل ذلك فنادى عليّ بالرحيل^(٢).

وقد أخرج الخطيب البغدادي خبر قتلهم عبد الله بن خباب بنحو ذلك^(٣).

وأخرج البلاذري من خبر حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس كان مع الخوارج ثم فارقه قال : وأتى عليّ المدائن وقد قدمها قيس بن سعد بن عباد ، وكان عليّ قدّمه إليها . ثم أتى عليّ النهروان فبعث إلى الخوارج : أن أسلموا لنا قتلة ابن خباب ورسولي والنسوة لأقتلهم ثم أنا تارككم إلى فراغي من أمر أهل المغرب فلعل الله يقبل بقلوبكم ويردكم إلى ما هو خير لكم وأملك بكم . فبعثوا إليه أنه ليس بيننا وبينك إلا السيف إلا أن تقرّ بالكفر وتتوب كما تبنا فقال عليّ : أبعد جهادي مع رسول الله ﷺ وإيماني أشهد على نفسي بالكفر؟ ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾^(٤) ثم قال :

يا شاهداً لله عليّ فاشهد آمنت بالله وليّ أحمد

من شك في الله فإنني مهتد

(١) يعني أهل الشام ، وكانوا يسمون الشام المغرب .

(٢) أنساب الأشراف ١/ ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) تاريخ بغداد ١/ ٢٠٥ .

(٤) سورة الأنعام الآية (٥٦) .

وكتب إليهم : « أما بعد فلاني أذكركم أن تكونوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً بعد أن أخذ الله ميثاقكم على الجماعة ، وألف بين قلوبكم على الطاعة ، وأن ﴿ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ (١) . ودعاهم إلى تقوى الله والبرِّ ومراجعة الحق ، فكتب إليه ابن وهب الراسبي ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢) إن الله بعث محمداً بالحق وتكفل له بالنصر كما بلغ رسالاته ، ثم توفاه إلى رحمته ، وقام بالأمر بعده أبو بكر بما قد شهدته وعايته متمسكاً بدين الله مؤثراً لرضاه حتى أتاها أمر ربه ، فاستخلف عمر ، فكان من سيرته ماأنت عالم به ، لم تأخذه في الله لومة لائم ، وختم الله له بالشهادة ، وكان من أمر عثمان ماكان حتى سار إليه قوم قتلوه لما أثر الهوى وغير حكم الله ، ثم استخلفك الله على عباده فبايعك المؤمنون وكنت لذلك عندهم أهلاً ، لقربابتك بالرسول ، وقَدَمَك في الإسلام ، ووردتَ صفين غير مداهن ولا وان ، مبتذلاً نفسك في مرضاة ربك فلما حَمَيْت الحرب وذهب الصالحون : عمار بن ياسر ، وأبو الهيثم بن التَّيَّهَان ، وأشباههم اشتمل عليك من لافقه له في الدين ولارغبة في الجهاد ، مثل الأشعث ابن قيس وأصحابه واستنزلك حتى ركنت إلى الدنيا ، حين رُفِعَت لك المصاحف مكيدة فتسارع إليهم الذين استنزلك ، وكانت منا في ذلك هفوة ثم تداركنا الله منه برحمته ، فحَكَمْتَ في كتاب الله وفي نفسك ، فكنت في شك من دينك وضلال عدوك وبغيه عليك ، كلا

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٥) .

(٢) سورة الرعد الآية (١١) .

والله يابن أبي طالب ، ولكنكم ﴿ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾^(١) وقلتَ لي قرابة من الرسول وسابقة في الدين فلا يعدل الناس بي معاوية ، فالآن فتب إلى الله وأقرّ بذنبك ، فإن تفعل نكن يدك على عدوك ، وإن أبيت ذلك فالله يحكم بيننا وبينك .

قالوا : وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة فناداهم فقال : يا عباد الله أخرجوا إلينا طلبتُنا وانهضوا إلى عدوكم وعدونا معاً . فقال له : عبد الله بن شجرة السلمي : إن الحق قد أضاء لنا فلسنا متابعيكم أبداً أو تأتونا بمثل عمر . فقال : والله مانعلم على الأرض مثل عمر إلا أن يكون صاحبنا ، وقال : لهم علي : « يا قوم إنه قد غلب عليكم اللجاج والمرء واتبعتم أهواءكم فطمح بكم تزيين الشيطان لكم وأنا أنذركم أن تصبحوا صرعى بأهضام هذا الغائط وأثناء هذا النهر » .

فلم يزل يعظهم ويدعوهم فلما لم ير عندهم انقياداً - وكان في أربعة عشر ألفاً - عباً الناس فجعل على ميمته حجر بن عدي الكندي وعلى ميسرته شيبث بن ربعي وعلى الخيل أبا أيوب خالد بن ريد الأنصاري ، وعلى الرجال أبا قتادة الأنصاري - واسمه النعمان بن ربعي بن بلدمة الخزرجي - وعلى أهل المدينة وهم سبعمائة - أو ثمانمائة - قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري .

ثم بسط لهم عليّ الأمان ودعاهم إلى الطاعة ، فقال فروة بن نوفل الأشجعي : والله ماندرى على مانقاتل عليّاً ؟ فانصرف في خمسمائة فارس حتى نزل البندنيجين^(٢) والدسكرة ، وخرجت طائفة

(١) سورة الفتح الآية (١٢) .

(٢) بلدة في طرف النهروان - معجم البلدان - .

منهم أخرى متفرقين إلى الكوفة، وأتى مسعر بن فدكي التميمي راية أبي أيوب الأنصاري في ألف، واعتزل عبد الله بن الحوساء - ويقال: ابن أبي الحوساء الطائي - في ثلاثمائة وخرج إلى عليّ منهم ثلاثمائة فأقاموا معه، وكانوا أربعة آلاف فارس ومعهم خلق من الرجال. واعتزل حوثة بن وداع في ثلاثمائة، واعتزل أبو مريم السعدي في مائتين، واعتزل غيرهم، حتى صار مع ابن وهب الراسبي ألف وثلاثمائة فارس، ورجالة يقال: إنهم ألف وخمسمائة.

وقال علي لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدأوكم. ونادى جمرة بن سنان: روحوا إلى الجنة، فقال ابن وهب: والله ماندي أنروح إلى الجنة أم إلى النار وتنادى الحرورية: الرواح إلى الجنة معاشر المخبتين وأصحاب البرانس المصلين، فشددوا على أصحاب عليّ شدة واحدة، فانفرت خيل عليّ متفرقين: فرقة نحو الميمنة وفرقة نحو الميسرة. وأقبلوا نحو الرجال فاستقبلت الرماة وجوهمهم بالنبل حتى كأنهم معزى تتقى المطر بقرونها، ثم عطفت الخيل عليهم من الميمنة والميسرة، ونهض عليّ إليهم من القلب بالرماح والسيوف فما لبثوا أن أهدوا في ساعة (١).

خبر ذي الثدية ومعجزة لرسول الله ﷺ:

أخبر النبي ﷺ عن صفة الخوارج الذين يخرجون على جماعة المسلمين، وأخبر عن رجل فيهم في عضده مثل الثدي، وقد وجد في

(١) أنساب الأشراف ١/١٤٤ - ١٤٧، وانظر تاريخ الطبري ٥/٨١ - ٨٧، البداية والنهاية ٧/٢٩٥ - ٢٩٨، الفتح الرباني ٢٣/١٥٤ - ١٥٩، تاريخ بغداد ١/٢٠٥.

هذه الفرقة من الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما أخبر عنه رسول الله ﷺ ، ومما جاء في خبره ما أخرجه الإمام مسلم من حديث سلمة بن كهيل : حدثني زيد ابن وهب الجهني ، أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي رضي الله عنه الذين ساروا إلى الخوارج . فقال علي رضي الله عنه : أيها الناس ! إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول « يخرج قومٌ من أمتي يقرأون القرآن . ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء . ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء . ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء . يقرأون القرآن . يحسبون أنه لهم وهو عليهم . لا تتجاوز صلاتهم تراقيهم . يرقون من الإسلام كما يرق السهم من الرمية » . لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ، ما قضى لهم على لسان نبيهم ﷺ ، لا تكلوا عن العمل . وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضدٌ . وليس له ذراعٌ . على رأس عضده مثل حلمة الثدي . عليه شعراتٌ بيضٌ . فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذرايكم وأموالكم ! والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام . وأغاروا في سرح الناس (١) . فسيروا على اسم الله .

قال سلمة بن كهيل : فنزلني زيد بن وهب منزلاً (٢) . حتى قال :

-
- (١) (وأغاروا في سرح الناس) السرح الماشية . أي أغاروا على مواشيهم التي ترعى .
 (٢) (فنزلني زيد بن وهب منزلاً) هكذا هو في معظم النسخ : منزلاً ، مرة واحدة . وفي نادر منها : منزلاً منزلاً ، مرتين . وهو وجه الكلام . أي ذكر لي مراحلهم بالجيش منزلاً منزلاً حتى بلغ القنطرة التي كان القتال عندها ، وهذا هو الموافق لرواية عبد الرزاق من حديث سلمة بن كهيل نفسه - المصنف رقم ١٨٦٥٠ (١٤٧ / ١٠) .

مررنا على قنطرة . فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبي . فقال لهم : ألقوا الرماح . وسلُّوا سيوفكم من جفونها . فإني أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء . فرجعوا فوحشوا برماحهم (١) . وسلُّوا السيوف . وشجرهم الناس برماحهم (٢) . قال : وقتل بعضهم على بعض . وما أصيب من الناس يومئذ إلا رجلان . فقال علي رضي الله عنه : التمسوا فيهم المُخدج . فالتمسوه فلم يجدوه . فقام علي رضي الله عنه بنفسه حتى أتى ناساً قد قتل بعضهم على بعض . قال : أخروهم . فوجدوه مما يلي الأرض . فكبر . ثم قال : صدق الله . وبلغ رسوله . قال : فقام إليه عبيدة السلماني . فقال : يا أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ فقال : إي . والله الذي لا إله إلا هو ! حتى استحلفه ثلاثاً (٣) . وهو يحلف له .

وأخرج الإمام مسلم أيضا من حديث عبيد الله بن أبي رافع ، مولى رسول الله ﷺ ، أن الحرورية لما خرجت ، وهو مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قالوا : لا حُكم إلا لله . قال علي : كلمة حق أريد بها باطل . إن رسول الله ﷺ وصف ناساً ، إني لأعرف صفتهم في هؤلاء ، « يقولون الحق بالسنتهم لا يجوز هذا منهم » وأشار

(١) (فوحشوا برماحهم) أي رموا بها عن بعد منهم .

(٢) (وشجرهم الناس برماحهم) أي مدوها إليهم وطاعنوهم بها .

(٣) (حتى استحلفه ثلاثاً) قال الإمام النووي : وإنما استحلفه لئسمع الحاضرين ويؤكد ذلك عندهم ويظهر لهم المعجزة التي أخبر بها رسول الله ﷺ ويظهر لهم أن عليا وأصحابه أولى الطائفتين بالحق ، وأنهم محقون في قتالهم .

إلى حلقه « مِنْ أَبْغَضَ خَلَقَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ أَسْوَدُ إِحْدَى يَدَيْهِ طَبِي شَاةٌ^(١) » . فلما قتلهم عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : انظروا . فنظروا فلم يجدوا شيئا . فقال : ارجعوا . فوالله ! ما كذبت ولا كُذبت . مرتين أو ثلاثا . ثم وجدوه في خربة . فأتوا به حتى وضعوه بين يديه . قال عبيد الله : وأنا حاضر ذلك من أمرهم وقول عليٍّ فيهم .

زاد يونس في روايته : قال بُكَيْرٌ : وحدثني رجل عن ابن حنين أنه قال : رأيتُ ذلك الأسود .

كما أخرج أيضا من حديث عبيدة السلماني ، عن علي رضي الله عنه قال : ذكر الخوارج فقال : فيهم رجل مخدج اليد ، أو مُودَنُ اليد^(٢) ، لولا أن تبطروا^(٣) لحدتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ . قال قلتُ : أنت سمعته من محمد ﷺ ؟ قال : إي . وربُّ الكعبة ! إي . وربُّ الكعبة ! إي . وربُّ الكعبة^(٤) .

وأخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر عبد الملك بن أبي حرة ، أن عليًا خرج في طلب ذي الثدية ومعه سليمان بن ثُمَامَةَ الحنفي أبو جبيرة ، والريان بن صبرة ابن هوزة ، فوجده الريان بن

(١) (إحدَى يديه طبي شاة) المراد به ضرع الشاة . وهو فيها مجاز واستعارة . وإنما أصله للكلبة والسباع .

(٢) (مخدج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد) مخدج اليد أي ناقص اليد . ومودن اليد . ومثدون اليد صغير اليد مجتمعها .

(٣) (لولا أن تبطروا) البطر هنا : التجبر والغرور .

(٤) صحيح مسلم رقم ١٠٦٦ ، الزكاة (ص ٧٤٧ - ٧٤٩) .

صبرة بن هوذة في حفرة على شاطئ النهر في أربعين أو خمسين قتيلاً. قال: فلما استخرج نظر إلى عضده، فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة، له حلمة عليها شعرات سود، فإذا مدت امتدت حتى تحاذي طول يده الأخرى، ثم ترك فتعود إلى منكبه كثدي المرأة، فلما استخرج قال عليّ: الله أكبر أو الله ما كذبت ولا كُذبت، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل، لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيه ﷺ لمن قاتلهم مستبصرًا في قتالهم، عارقًا للحق الذي نحن عليه. قال: ثم مرّ وهم صرعى فقال: بؤسًا لكم! لقد ضرّكم من غركم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، من غرهم؟ قال: الشيطان، وأنفس بالسوء أمارة، غرّتهم بالأمانى، وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون. قال: وطُلب من به رمق منهم فوجدناهم أربعمئة رجل، فأمر بهم عليّ فدفعوا إلى عشائهم، وقال: احملوهم معكم فداووهم، فإذا برئوا فوافوا بهم الكوفة، وخذوا ما في عسكرهم من شيء.

قال: وأما السلاح والدواب وما شهدوا به عليه الحرب فقسّمه بين المسلمين، وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم ردّه على أهله (١).

معجزة أخرى لرسول الله ﷺ:

أخرج الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتل على تنزيله (٢).

(١) تاريخ الطبري ٨٨/٥.

(٢) المسند ٣١/٣.

يعني فكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي قاتل مخالفه على تأويل القرآن كما قاتل الكفار على تنزيله ، فوق بذلك ما أخبر به النبي ﷺ .
حكم علي رضي الله عنه عليهم :

أخرج الإمام عبد الرزاق الصنعاني من خبر الإمام الحسن البصري قال : لما قتل علي رضي الله عنه الحرورية ، قالوا : من هؤلاء يا أمير المؤمنين ؟ أكفارهم ؟ قال : من الكفر فروا ، قيل : فمنافقون ؟ قال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا ، وهؤلاء يذكرون الله كثيرا ، قيل : فما هم ؟ قال : قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا (١) .
مثل من ورع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

أخرج الإمام الطبري من خبر المحل بن خليفة : أن رجلا منهم من بني سدوس يقال له العيزار بن الأخنس كان يرى رأي الخوارج ، خرج إليهم ، فاستقبل وراء المدائن عدي بن حاتم ومعه الأسود بن قيس والأسود بن يزيد المراديان ، فقال له العيزار حين استقبله : أسالم غانم ، أم ظالم أثم ؟ فقال عدي : لا ، بل سالم غانم ، فقال له المراديان : ما قلت هذا إلا لشر في نفسك ، وإنك لنعرفك يا عيزار برأي القوم ، فلا تفارقنا حتى نذهب بك إلى أمير المؤمنين فنخبره خبرك . فلم يكن بأوشك أن جاء علي فأخبراه خبره ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إنه يرى رأي القوم ، قد عرفناه بذلك ، فقال : ما يحل لنا دمه ، ولكننا نجسسه ، فقال عدي بن حاتم : يا أمير المؤمنين ، ادفعه

(١) مصنف عبد الرزاق ، رقم ١٨٦٥٦ (١٠ / ١٥٠) .

إليّ وأنا أضمن ألا يأتيك من قبله مكروه . فدفعه إليه (١) .

وهكذا ابتلي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأول حركة قتالية يقوم بها الخوارج ، فكان ذلك من الخير للأمة الإسلامية ، حيث سار في معاملتهم قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها على توجيهات النبي ﷺ ، فكان بذلك أول قائد يطبق منهج الإسلام في قتال الخوارج .

وقد تبين لنا من صفاتهم في هذه الأخبار زيادة على ما جاء في وصفهم في الأحاديث النبوية التي مرّ ذكرها ، أنهم يتأولون آيات الله تعالى التي نزلت في الكفار على غير وجهها ، حيث يطبقونها على مخالفينهم من المسلمين ، وفي ذلك يقول الإمام البخاري وكان ابن عمر رضي الله عنهما يراهم شرار خلق الله ، وقال : إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين (٢) .

ومن ذلك أنهم يتسرعون في تكفير المسلمين ، فيحكمون بالكفر على من وقع في الخطأ في نظرهم ، وبالتالي فإنهم يرون وجوب قتال المسلمين الذين لا يظهرون التوبة من الذنب ، وإن كان هؤلاء المسلمون لا يرون ذلك ذنباً .

هذا ولقد كانت لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه في مواجهة تلك المحنة مواقف جهادية وأخلاقية عالية فمن ذلك أنه تحمل خلافهم وردودهم القاسية واعتراضاتهم الجافية ، وأنه وعدهم بأنه لن يؤاخذهم

(١) تاريخ الطبري ٨٩/٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب استتابة المرتدين باب ٦/ (٢٨٢/١٢) .

بكلامهم مالم يسفكوا دما أو يتتهبوا مالا ، وقد وفى لهم بذلك بالرغم من أنهم اتهموه بالشرك والكفر والمداهنة في أمر الله تعالى واعترضوا عليه وهو يخطب ، فلم يأخذهم بقتل ولا بسجن ولا بتعذيب ، وهذا يعتبر من أروع أمثلة العدل والسماحة والحكمة .

لقد أعطاهم أمير المؤمنين رضي الله عنه الحرية الكاملة والفرصة التامة للتعبير عن آرائهم ، وجادلهم في شبهاتهم - بالتي هي أحسن - بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، فلما أفحمهم ولم يجدوا مجالا للكلام ورأوا أن جدالهم لا يكسبهم أنصارا ، وأن عددهم صار يقل يوما بعد يوم بسبب انقياد عقلائهم للبراهين التي احتج بها عليهم علي وابن عباس رضي الله عنهم ومن ناشدوهم من قادة المسلمين . . لما رأوا ذلك لجؤوا إلى الحرب فاعتدوا على الأمنين ، وسفكوا الدماء المحرمة ، فحلَّ بذلك قتالهم وزالت حرمة دمائهم .

لقد كان الوضع السياسي في ذلك العهد مستقيماً عادلاً ، حيث كانت الكلمة للحجة والبرهان ، لا للسيف والسنان ، فكان أولئك الخوارج يتكلمون كيف شاؤوا ، ويجتمعون كيف شاؤوا ، ويجادلون بقوة وجرأة ، ولكنهم لم يكونوا أهلاً للعدالة ، لأنهم لم يحترموا منطق العقل السليم ، ولم يقتصروا على التعبير بألسنتهم ، ولكنهم لجؤوا إلى التعبير بقوة سلاحهم ، بغياً وغروراً وعدواناً ، فقصوا على أنفسهم بأنفسهم ، وأبادوا بجهلهم جزءاً كبيراً من الأمة ، وغُطيت بسبب رعونهم أرض المعركة بأجساد أبطال لو وجهوا إلى أعداء الإسلام لكانت لهم فيهم نكاية كبيرة .

ولقد كانت الفرصة أمامهم متاحة حتى اللحظات الأخيرة ، حينما

قل عددهم وواجهوا جيشاً أضعاف عددهم ، حيث كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لم ينقطع عن مناشدتهم في العودة إلى الصف ، وكانوا يعلمون صدقه في ذلك ، ولكن قادتهم لما خشوا من تراجع بعض جنودهم أمروهم بالهجوم السريع ، فكان هجومهم انتحارياً حيث قُتلوا أو جُرحوا جميعاً ولم يفلت منهم أحد .

ولقد طبق أمير المؤمنين علي رضي الله عنه سنة الإسلام في قتال البغاة من المسلمين ، حيث أمر جنوده أن لا يجهزوا على جرحاهم ، وأن لا يتبعوا مدبرهم ، وأن لا يسبوا نساءهم ولا ذراريهم ، وأمر بحمل الجرحى وعلاجهم ، ثم إيصالهم إلى أهاليهم .

وقوله ﷺ « يرقون من الدين » هل هو دليل على كفر الخوارج؟ ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى أقوال عدد من العلماء حكموا بكفر الخوارج لظاهر هذا الحديث ، ولقوله « لأقتلنهم قتل عاد » وفي لفظ « ثمود » وكل منهما إنما هلك على الكفر ، ولقوله « هم شر الخلق » وقوله « إنهم أبغض الخلق إلى الله تعالى » ولتكفيرهم أعلام الصحابة رضي الله عنهم وفيهم من شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، ثم ذكر أن أكثر أهل الأصول من أهل السنة على أن الخوارج فساق ، وأن حكم الإسلام يجري عليهم لتلفظهم بالشهادتين ومواظبتهم على أركان الإسلام ، وإنما فسقوا بتكفيرهم المسلمين مستندين إلى تأويل فاسد ، وجرهم ذلك إلى استباحة دماء مخالفينهم وأموالهم والشهادة عليهم بالكفر والشرك (١) .

(١) فتح الباري ١٢/ ٢٩٩ - ٣٠٠ .

ومن العلماء الذين حكموا بعدم كفرهم شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : وأصحاب الرسول ﷺ - علي بن أبي طالب وغيره - لم يكفروا الخوارج الذين قاتلوهم ، بل أول ماخرجوا عليه وتحيزوا بحروراء ، وخرجوا عن الطاعة والجماعة ، قال لهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن لكم علينا أن لا تمنعكم مساجدنا ، ولا حقكم من الفئ . ثم أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نحو نصفهم ، ثم قاتل الباقي وغلبهم ، ومع هذا لم يسب لهم ذرية ، ولا غنم لهم مالا ، ولا سار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين ، كمسيلمة الكذاب وأمثاله ، بل كانت سيرة عليّ والصحابة في الخوارج مخالفة لسيرة الصحابة في أهل الردة ، ولم ينكر أحد على عليّ ذلك ، فعلم اتفاق الصحابة على أنهم لم يكونوا مرتدين عن دين الإسلام .

قال : وقال الإمام محمد بن نصر المروزي : « وقد ولي عليّ رضي الله عنه قتال أهل البغي ، وروى عن النبي ﷺ فيهم ماروى ، وسمّاهم مؤمنين ، وحكم فيهم بأحكام المؤمنين . وكذلك عمار بن ياسر » .

وقال محمد بن نصر أيضا : « حدثنا إسحاق بن راهويه ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن مفضل بن مهلهل ، عن الشيباني ، عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب قال : « كنت عند علي حين فرغ من قتال أهل النهروان ، فقليل له : أمشركون هم ؟ قال : من الشرك فروا . فقليل : فمنافقون ؟ قال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا . قيل : فما هم ؟ قال : قوم بغوا علينا فقاتلناهم » (١) .

(١) منهاج السنة النبوية ٥ / ٢٤١ - ٢٤٢ .

وواضح أن القول بعدم تكفير الخوارج أصوب لأن ذلك هو قول
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد أقره الصحابة
رضي الله عنهم على ذلك ولم يُنقل عنهم خلافه ، والصحابة هم
أعلم المسلمين بتأويل كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

* * *

الخوارج في عهد بني أمية

لقد كثر خروج الخوارج في المشرق والمغرب في عهد بني أمية وماتخلل ذلك من إمامة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وسأكتفي بذكر أمثلة مما جرى من الخوارج في المشرق في عهد معاوية ابن أبي سفيان وعهد عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لأنهما من أئمة الهدى ولأنهما صحابيَّان جليلان ، كما سأذكر مثالا مما جرى من الخوارج في المغرب لأهميته في حماية المسلمين من شر أولئك الخوارج .

ثورة فروة الأشجعي وأصحابه :

كانت فرقة من الخوارج قد اعتزلت بشهرزور أيام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وكانوا خمسمائة مع فروة بن نوفل الأشجعي ، فلما استشهد علي رضي الله عنه خرجوا وهزموا جيش الشام الذي أرسل إليهم فقال معاوية لأهل الكوفة : لأمان لكم عندي حتى تكفوا بوائقكم ، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم فقتلوهم . وذلك في سنة إحدى وأربعين (١) .

وكون أهل الكوفة خرجوا لقتال أبناء قبائلهم دليل على أن النقمة على الخوارج كانت لدى المسلمين عامة ، وذلك لشذوذهم وسوء معتقدتهم ، حيث يعتقدون كفر من خالفهم ، ويستحلون دماءهم وأموالهم، ويتبرؤون ممن شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة كعثمان وعلي رضي الله عنهما .

(١) تاريخ الطبري باختصار ١٦٥/٥ - ١٦٦ .

ثورة المستورد التيمي وأصحابه :

وفي سنة اثنتين وأربعين خرجت فرقة منهم بقيادة المستورد بن علفة التيمي ، وكانوا يجتمعون سرّاً في الكوفة، فعلم بهم أميرها المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، فقام في الناس خطيباً وأنذر رؤساء العشائر ، وحذر من إيوائهم ، فنادى رؤساء العشائر أقوامهم وحذروهم من إيواء الخوارج ، فلما علم بذلك هؤلاء الخوارج تسللوا خفية وخرجوا من الكوفة وتوجهوا نحو « سور » وتجمعوا من أنحاء البلاد حتى اكتمل عددهم ثلاثمائة فساروا نحو « الصراة » .

ثم إن المغيرة بن شعبة علم بهم فعقد جيشاً لقتالهم بقيادة معقل ابن قيس الرياحي وجهاز معه ثلاثة آلاف رجل .

وسار الخوارج حتى مروا بالمدائن فمنعهم أميرها سماك بن عبيد من دخولها ، وعلم أمير الخوارج المستورد بخروج معقل بن قيس من الكوفة على أثرهم فأشار على أصحابه بالرحيل حتى يتقطع جيش الكوفة في ملاحقتهم .

وعلم بذلك معقل بن قيس بعدما وصل المدائن فأمر أصحابه بعدم ملاحقتهم حتى يَفُوتَ عليهم هذه الفرصة ، وقَدَّمَ بين يديه مقدمة بقيادة أبي الرواغ الشاكري في ثلاثمائة فارس ، فلاحق بهم في « المذار » فأمر المستورد أصحابه بالهجوم عليهم وإبادتهم قبل وصول الجيش ، فهجموا عليهم فانهزم أكثر أصحاب أبي الرواغ وثبت هو وقليل من جيشه ، ثم أصبح يراوغيهم بين الكر والفر حتى يقدم معقل بن قيس .

وعلم معقل بما جرى فأسرع في سبعمائة من أهل النجدة حتى

وصلوا إلى أبي الرواغ ، فهجم عليهم الخوارج وانهزم أكثر أهل الكوفة ، وثبت معقل ونزل وقال : الأرض الأرض يا أهل الإسلام ، ونزل معه أبو الرواغ الشاكري وثبت معهم نحو مائتين من أهل النجدة والحفاظ ، فلما غشيهم المستورد وأصحابه استقبلوهم بالرماح والسيوف ، ثم فاء أهل الكوفة بعد أن ناداهم مسكين بن عامر ، فشدوا على الخوارج حتى هزموهم .

وعلم المستورد أن جيشا آخر قد خرج من البصرة بقيادة شريك بن الأعور وكان قد أرسله أميرها عبد الله بن عامر مددا لإخوانهم من أهل الكوفة ، فقرر الخوارج الفرار حتى لا يقعوا بين الجيشين فانسحبوا إلى « جرجيا » .

وعلم بذلك معقل فقرر ملاحقتهم وقدم أمامه أبا الرواغ الشاكري في ستمائة من أصحابه ، أما جيش البصرة فإنهم رجعوا لشعورهم بعدم الحاجة إليهم واحتياج مناطق أخرى لجهادهم .

ولحق أبو الرواغ بالخوارج وجرت بين جيشه وجيش الخوارج مناوشات ، ولما رأى أمير الخوارج ثبات أبي الرواغ وجيشه قرر مباغته جيش معقل ، فانسحب بجيشه نحوهم وهجموا عليهم فانهزم أكثر جيش الكوفة وثبت معقل في طائفة من أصحابه ، وعلم أبو الرواغ بذلك من فلول المنهزمين فأسرع في أصحابه نحو معقل فوجدهم يقاتلون الخوارج قتالا شديداً فشدوا عليهم مع من ثبت من جيش الكوفة مع معقل ، ونادى أمير الخوارج أصحابه بالنزول إلى الأرض وتركوا الخيل ونزل أصحاب معقل أيضا والتحموا بالسيوف في معركة

حامية ، ونادى المستورد معقلا إلى البراز ، فبرز له فطعنه المستورد برمحه وضربه معقل بسيفه فماتا جميعا ، وظل الخوارج يقاتلون حتى قُتلوا جميعا ماعدا عبد الله بن عقبة الغنوي الذي أصبح يخبر عنهم ، وقد قُتل بعد ذلك في موقعة دير الجماجم (١) .

في هذا الخبر مواقف لبعض قادة المسلمين وأمرائهم ، فمن ذلك :

١ - موقف لأمير الكوفة المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، حيث كان يقظا حذرا عارفا بما يُجرى تحت دائرة إمارته ، فقد عرف باجتماع أولئك الخوارج في أحد بيوت الكوفة ، ثم علم بهم لما خرجوا ، ولقد كان حارما حينما وجه لهم ذلك الجيش واختار له القائد الكفاء ، فنجح في القضاء عليهم وهم مازالوا في أول أمرهم قبل أن تنتشر دعوتهم ويكثر أنصارهم .

٢ - مواقف جهادية عالية لقائد جيش الكوفة معقل بن قيس الرياحي ، فهو **أولاً** قد علم بخطة الخوارج حينما انسحبوا ولم يقفوا للقتال مع ما اشتهروا به من الإقدام والثبات ، ثم تصرف بحكمة حينما لم يلاحقهم وبعث مقدمة تتعرف على أحوالهم .

وثانياً : أنه قد ثبت في معركتين حينما فر أكثر جيشه وبقي في قلة من جنوده حتى فاء بقية الجيش ، وهذا دليل على شجاعته وتضحيته في سبيل دينه وإخوانه المسلمين .

وثالثاً : أنه أقدم على مبارزة أمير الخوارج المستورد مع ماعرف عن الخوارج من الإقدام والثبات ، ومع ما حصل على الخوارج من

(١) تاريخ الطبري ١٨١/٥ - ٢٠٩ باختصار .

بوادر الهزيمة والاستئصال ، وماظهر من انتصار جيش معقل ، فكان المستورد على هيئة المستमित لأن أغلب أحواله القتل ، أما معقل فكان أغلب ما يترجح عنده الحياة لإدبار ريح أعدائه وكثرة من يحميه من حوله ، ومع ذلك أقدم على المباشرة رجاء الحصول على الشهادة التي هي أسمى أمانى المسلمين .

٣ - مواقف جهادية لقائد المقدمة أبي الرواغ الشاكري ، حيث ثبت للخوارج في أول معركة وهو في المقدمة فقط ، ولما علم بأن جنوده لا يستطيعون الثبات للخوارج صار يهجم ثم يحجم ويقرب ثم يبعد ، لأنه لا يريد أن يلتحم معهم التحاماً كاملاً فينهزم جيشه ، ولا يريد أن ينسحب منهم لأن الانسحاب انهزام ، وذلك يعطي الأعداء قوة وجرأة على القتال ، حتى قدم عليهم معقل بن قيس ببقية الجيش .

وحينما انهزم جيش الكوفة وثبت قائدهم معقل بقلعة من الجيش ثبت معه أبو الرواغ حتى فاء أهل الكوفة بعد ذلك .

وحينما غير الخوارج خططهم فانسحبوا عنه ليباغتوا معقلاً وجيشه وعلم بذلك أبو الرواغ سارع لنجدتهم فوصل في الوقت المناسب ، حيث اجتمع أفراد الجيش كلهم في قتال الخوارج حتى استأصلوهم ، فهذه المواقف تدل على أن أبا الرواغ بطل مغوار وقائد محنك .

وهكذا انتهت حياة ثلاثمائة من المسلمين على هذا الوضع السيئ مع ما اشتهروا به من الصلاح والعبادة ، فكم يفقد المسلمون من الأبطال المغاوير بسبب سوء المعتقد واتباع الهوى ، وتحويل الطاقة القتالية إلى جسم أمتهم !!

خبر الخوارج مع ابن الزبير :

أخرج ابن جرير الطبري من خبر أبي المخارق الراسبي ، قال : لما ركب ابن زياد من الخوارج بعد قتل أبي بلال ماركب ، وقد كان قبل ذلك لا يكفّ عنهم ولا يستبقيهم غير أنه بعد قتل أبي بلال تجرد لاستئصالهم وهلاكهم ، واجتمعت الخوارج حين ثار ابن الزبير بمكة ، وسار إليه أهل الشام ، فتذاكروا مأتى إليهم ، فقال لهم نافع بن الأزرق : إنّ الله قد أنزل عليكم الكتاب ، وفرض عليكم فيه الجهاد ، واحتج عليكم بالبيان ، وقد جرد فيكم السيوف أهل الظلم وأولو العدا والغشم ، وهذا من قد ثار بمكة ، فاخرجوا بنا نأت البيت ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا . فخرجوا حتى قدموا على عبد الله ابن الزبير ، فسر بمقدمهم ، ونبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف و لا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة . ثم إن القوم لقى بعضهم بعضا ، فقالوا : إن هذا الذي صنعتم أمس لغير رأي ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ينادي : يال ثارات عثمان ! فأتوه وسلوه عن عثمان ، فإن برئ منه كان وليكم ، وإن أبي كان عدوكم فمشوا نحوه فقالوا له : أيها الإنسان ، إنا قد قاتلنا معك ، ولم نُفتشك عن رأيك حتى نعلم أمنا أنت أم من عدونا ! خبرنا مامقالتك في عثمان ؟ فنظر فإذا من حوله من أصحابه قليل ، فقال لهم : إنكم أتيتموني فصادفتموني حين أردت القيام ، ولكن رُوحوا إلى

العشية حتى أعلمكم من ذلك الذي تريدون . فانصرفوا ، وبعث إلى أصحابه فقال : البسوا السلاح ، واحضروني بأجمعكم العشية ، ففعلوا ، وجاءت الخوارج ، وقد أقام أصحابه حوله سماطين عليهم السلاح ، وقامت جماعة منهم عظيمة على رأسه بأيديهم الأعمدة ، فقال ابن الأرق لأصحابه : خشى الرجل غائلتكم ، وقد أزمع بخلافكم واستعدّ لكم ، ماترون ؟

فدنا منه ابن الأرق ، فقال له : يابن الزبير ، اتق الله ربك ، وأبغض الخائن المستأثر ، وعاد أول من سن الضلالة ، وأحدث الأحداث ، وخالف حكم الكتاب ، فإنك إن تفعل ذلك تُرض ربك ، وتُنَج من العذاب الأليم نفسك ، وإن تركت ذلك فأنت من الذين استمتعوا بخلافهم ، وأذهبوا في الحياة الدنيا طياتهم .

ياعبيدة بن هلال ، صف لهذا الإنسان ومن معه أمرنا الذي نحن عليه ، والذي ندعو الناس إليه ، فتقدم عبيدة بن هلال ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن الله بعث محمداً ﷺ يدعو إلى عبادة الله ، وإخلاص الدين ، فدعا إلى ذلك ، فأجابته المسلمون ، فعمل فيهم بكتاب الله وأمره ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه ، واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فكلاهما عمل بالكتاب وسنة رسول الله ، فالحمد لله رب العالمين . ثم إن الناس استخلفوا عثمان بن عفان ، فحمى الأحماء ، وأثر القُربى ، واستعمل الفتى ورفع الدرّة ، ووضع السوط ، ومزق الكتاب ، وحقر المسلم وضرب منكري الجور ، وآوى طريد الرسول ﷺ ، وضرب السابقين بالفضل ، وسيرهم وحرّمهم ، ثم أخذ في الله الذي أفاءه

عليهم فقسمه بين فساق قريش ، ومُجان العرب ، فسارت إليه طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته ، لا يبالون في الله لومة لائم ، فقتلوه ، فنحن لهم أولياء ، ومن ابن عفان وأوليائه بُراء ، فما تقول أنت يا ابن الزبير ؟ قال : فحمد الله ابن الزبير وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فقد فهمتُ الذي ذكرتم ، وذكرت به النبي ﷺ ، فهو كما قلت ﷺ وفوق ما وصفته ، وفهمتُ ما ذكرت به أبا بكر وعمر ، وقد وفقت وأصبت ، وقد فهمتُ الذي ذكرت به عثمان بن عفان رحمة الله عليه ، وإني لا أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره مني ، كنتُ معه حيث نقم القوم عليه ، واستعصبوه فلم يدع شيئاً استعصبه القوم فيه إلا أعتبهم منه . ثم إنهم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه فيهم ، يأمر فيه بقتلهم فقال لهم : ما كتبته ، فإن شئتم فهااتوا بينتكم ، فإن لم تكن حلفتُ لكم ، فوالله ما جاءوه ببينة ، ولا استحلفوه . ووُثبوا عليه فقتلوه ، وقد سمعتُ ما عتبته به ، فليس كذلك ، بل هو لكل خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضر أني وليُّ لابن عفان في الدنيا والآخرة ، وولي أوليائه ، وعدو أعدائه ، قالوا : فبرئ الله منك يا عدو الله ، قال : فبرئ الله منكم أعداء الله (١) .

تفرق الخوارج إلى فرق :

بعد محاورة الخوارج مع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما تفرقوا ، فذهبت فرقة منهم إلى الإمامة واجتمعوا على نجدة بن عامر

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٥٦٤ - ٥٦٦ .

الحنفي، أما أهل البصرة فإنهم انقسموا إلى ثلاث فرق، فرقة تبعت نافع بن الأزرق الحنظلي وهي أقوى الفرق، وفرقة تبعوا عبد الله بن صفار السعدي، وفرقة تبعوا عبد الله بن إياض، وكان مخالفا لبقية الخوارج، حيث كان يرى أن كفر المخالفين من المسلمين كفر نعمة وأنه لايجوز قتالهم، وإليه تنسب فرقة الإباضية المشهورة.

مواقف أهل البصرة في قتال الأزارقة :

الأزارقة هم فرقة من الخوارج يتسببون إلى نافع بن الأزرق الحنظلي، وأهم ما جاؤوا به من البدع في الدين أنهم كفروا مخالفهم من المسلمين وأباحوا دماءهم وأموالهم، وأنهم أباحوا قتل أطفال المخالفين لهم من المسلمين ونساءهم، وأنهم كفروا القاعدين عن القتال معهم ومن لم يهاجر إليهم وإن كانوا من الخوارج (١).

وقد اشتدت شوكة الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق بسبب اشتغال أهل البصرة بالاختلاف الذي كان بين قبائلهم، وكانت دولة الخلافة غير مستقرة، حيث كان النزاع بين عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وبني أمية، وكان أهل البصرة قد اختاروا عبد الله بن الحارث الهاشمي أميرا عليهم، فبعث إلى الخوارج جيشا بقيادة مسلم بن عبيس القرشي في أهل البصرة، فاقتتلوا قتالا لم ير مثله، وقُتل أمير أهل البصرة عبد الله بن الحارث وقُتل رأس الخوارج نافع بن الأزرق، وأمر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب الحميري، وأمرت الأزارقة عليهم عبد الله بن الماحور، ثم عادوا فاقتتلوا أشد قتال فقتل الحجاج

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٢٠ .

ابن باب الحميري وقُتل عبد الله بن الماحور ، ثم إن أهل البصرة أمروا عليهم ربيعة بن الأجدم التميمي ، وأمرت الخوارج عليهم عبيد الله اصبن الماحور ، ثم عادوا فاقتتلوا حتى أمسوا، وقد كره بعضهم بعضا وملأوا القتال ، فإنهم لمواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية لهم جامعة لم تكن شهدت القتال ، فحملت على الناس من قبل عبد القيس فانهزم الناس ، وقاتل أمير أهل البصرة ربيعة الأجدم فقتل ، وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر ، فقاتل ساعة وقد ذهب الناس عنه ، فقاتل من وراء الناس في حمايتهم وأهل الصبر منهم ، ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلا بالأهواز (١) .

المهلب بن أبي صفرة والأزارقة :

تولى إمرة البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي من قبل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، فاتفق الحارث مع أشرف أهل البصرة على تولية المهلب بن أبي صفرة الأزدي قتال الخوارج ، وكان ذلك بإشارة من الأحنف بن قيس التميمي ، وذلك في عام خمسة وستين .

وجاءت الخوارج حتى انتهت إلى الجسر الأصفر عليهم عبيد الله ابن الماحور ، فخرج إليهم المهلب في أشرف الناس وفرسانهم فحارهم عن الجسر ودفعهم عن البصرة وقد كادوا أن يدخلوها ، ثم لم يزل يلاحقهم وهم ينحارون عنه حتى وصلوا إلى منزل من منازل الأهواز يقال له « سَلَى وَسَلْبَرَى » فأقاموا به .

(١) تاريخ الطبري ٦١٣/٥ - ٦١٤ باختصار .

ولما بلغ حارثة بن بدر الغداني أن المهلب قد أُمر على قتال
الأزارقة قال لمن معه من الناس :

كَرِّبُوا وَدَوِّبُوا (١) وحيث شئتم فاذهبوا
قد أُمر المهلب

فأقبل بمن كان معه نحو البصرة فصرفهم الحارث بن عبد الله بن
أبي ربيعة إلى المهلب .

ولما نزل المهلب بالقوم خندق عليه ، ووضع الجواسيس والحراس
والمسالح الذين يحملون السلاح بالتناوب لصد الأعداء إذا أتوا على
غرة ، فكان الخوارج إذا أرادوا الهجوم ليلا وجدوا أمرا محكما
فرجعوا ، فلم يقاتلهم إنسان قط كان أشد عليهم ولا أغبط لقلوبهم من
المهلب .

فلما أصبح الناس أخرجهم المهلب لقتال الخوارج ، وكان الخوارج
أفضل من أهل البصرة من ناحية السلاح ، وذلك لأنهم قد أغاروا
على بلاد فارس ، فانتقوا أفضل السلاح وأجود الخيول ، فالتقى
الناس فاقتتلوا كأشد القتال وصبر بعضهم لبعض ، ثم إن الخوارج
شدوا شدة منكرة فانهزم بعض أهل البصرة وأسرع المهلب فأنحاز في
مكان على غير طريق المنهزمين ، ثم نادى الناس : إلهي عباد الله ،
فثاب إليه بعضهم واجتمع إليه نحو من ثلاثة آلاف ، فحمد الله تعالى
وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإن الله تعالى ربما يكلل الجمع الكثير إلى
أنفسهم فيُهْزَمُونَ ، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون ،

(١) الأمر موجه للخوارج وهو للتحدي ، أي تقبلوا حيث شئتم واجمعوا من شئتم .

ولعمري ما بكم الآن من قلة ، إني لجماعتكم لراضٍ ، وإنكم لأنتم أهل الصبر وفرسان أهل المصر ، وما أحب أن أحداً ممن انهزم معهم ، فإنهم لو كانوا فيكم مارادوكم إلا خبالا ، عزمت على كل امرئ منكم لَمَّا أخذ عشرة أحجار معه ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو أن لا ترجع إليهم خيلهم حتى تستيبحوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم ، ففعلوا ، ثم أقبل بهم راجعا ، فلا والله ما شعرت الخوارج إلا بالمهلب يضاربهم بالمسلمين في جانب عسكرهم ، ثم استقبلوا عبيد الله بن الماحور وأصحابه وعليهم الدروع والسلاح كاملا ، فأخذ الرجل من أصحاب المهلب يستقبل الرجل منهم فيستعرض وجهه بالحجارة فيرميه حتى يثخنه ، ثم يطعنه بعد ذلك برمح أو يضربه بسيفه ، فلم يقاتلهم إلا ساعة حتى قُتل عبيد الله بن الماحور ، وضرب الله وجوه أصحابه ، وأخذ المهلب عسكر القوم وما فيه ، وقُتل الأزارقة قتلا ذريعا .

وأقبل من كان في طلب أهل البصرة منهم راجعا وقد وضع لهم المهلب خيلا ورجالا في الطريق تختطفهم وتقتلهم ، فانكفؤوا راجعين مفلولين محروبين مغلوبين (١) .

ففي هذا الخبر مواقف جهادية عالية لهؤلاء المجاهدين ، وخاصة قائدهم المهلب بن أبي صفرة الأردني ، حيث قاتلوا الخوارج وقضوا على فتنة تلك الطائفة منهم وأراحوا المسلمين من شرهم .

(١) تاريخ الطبري ٦١٦/٥ - ٦١٩ .

ولقد ظهرت في هذا الجهاد مواهب المهلب القيادية ، فمن ذلك تخطيطه الجيد لحماية جيشه في الليل ، وذلك بعمل الخندق على المعسكر ووضع الحراس وبث الجواسيس وإعداد الحماة الذين يحملون سلاحهم بالتناوب لصد أي هجوم ليلي من الخوارج .

ومن ذلك تصرفه الحكيم حينما انهزم بعض جيشه ، حيث انحاز في مكان آمن ، ونادى من ثبتوا من جيشه ، ثم هجم بهم على معسكر الخوارج بشكل مباغت ، فكسب بذلك المعركة بعد أن حقق الخوارج انتصاراً كبيراً ، وقد كانت كثير من المواجهات السابقة تنتهي بانتصار الخوارج ، ولكن هذا التصرف الحربي البارع من المهلب أحال انتصار الخوارج إلى هزيمة ساحقة عليهم وانتصار حاسم لجيش المهلب .

ولقد كان لابتكاره سلاح الحجارة أثر واضح في إرباك الأعداء ، لأنه قد خطط لالتحامهم وجهاً لوجه معهم ، فلن يكون هناك إمكانية لاستعمال سلاح النبال ، فكان وقع الحجر على الوجه مربكاً لمن وقع عليه ، وفي تلك الحال يكون الهجوم بالرمح أو بالسيوف حسب بُعد العدو أو قربه .

كما أنه قد أمّن جيشه المهاجم من الخلف حيث وضع فرسانا يواجهون فرسان العدو العائدين من المطاردة ، وكل تلك الترتيبات الحربية تدل على براعة المهلب بن أبي صفرة في التخطيط الحربي .
مثل من فتنة الخوارج في المغرب :

قال الحافظ الذهبي في بيان حوادث سنة خمس وعشرين ومائة :

وكانت الفتن شديدة بالمغرب ، ونيران الحرب تستعر ، وعليها الأمير حنظلة بن صفوان ، فزحف إليه عكاشة الخارجي في جمع ، فالتقوا فكانت بينهم وقعة لم يسمع بمثلها وانهزم عكاشة وقتل من البربر من لا يحصى ثم تناخوا وسار رأسهم عبد الواحد الهواري بنفسه فجهز حنظلة للقتال أربعين ألفاً فانكسروا وولّوا الأدبار وقتل منهم عشرون ألفاً ، ونزل عبد الواحد بجيوشه على فرسخ من القيروان ، وكان فيما قيل في ثلاثمائة ألف ، فبذل حنظلة الأموال والسلاح وعباً عشرة آلاف فخرجوا ومعهم القراء والوعاظ وكثر الدعاء والاستغاثة بالله وضجّ النساء والأطفال وكانت ساعة مشهودة ، وسار حنظلة بين الصفوف يحرض على الجهاد ، واستسلمت النساء للموت لما يعلمن من رأي هؤلاء الصفرية (١) ، ثم كبر المسلمون وصدقوا الحملة وكسروا أعماد سيوفهم ، والتحم الحرب وثبت الجمعان ثم انكسرت ميسرة الإسلام ثم تراجعوا وحملوا فهزموا العدو وقتل عبد الواحد الهواري وأُتي برأسه ، وقتل البربر مقتلة لم يسمع بمثلها ، وأسر عكاشة وأُتي به فقتله حنظلة ، وأمر بإحصاء القتلى بالقصب بأن طُرح على كل قتيل قصبه ثم جمع القصب فبلغت مائة ألف وثمانين ألفاً . وهذه ملحمة مشهودة ما سمعنا بمثلها قط ، وهؤلاء الكلاب يستبيحون سبي نساء المسلمين وذريّتهم ودماءهم ويكفّرون أهل القبلة ، وتعرف بغزوة الأصنام باسم قرية هناك .

(١) الصفرية هم أتباع زياد بن الأصفر ، وقد أنشأ مذهبه الخارجي في العراق ثم انتقل مذهبه إلى المغرب .

وعن الليث بن سعد قال : ماغزوة كان أحب إليّ أن أشهدها بعد غزوة بدر من غزوة الغرب بالأصنام (١) .

فهذه معركة عجيبة مدهشة لأمرين : أولهما أن عدد الأعداء من الخوارج أضعاف جيش حنظلة بن صفوان ، وثانيهما أنه قد اشتهر أن الخوارج يستमितون في القتال وأنهم - مع قلتهم - ينتصرون على الجيوش الكبيرة ، ولكن الموازين في هذه المعركة قد تبدلت ، فأصيب الخوارج بالفشل والانتكاسة على كثرتهم ، وفار أهل السنة بالنصر على قلتهم .

ولإننا حينما ندرس واقع هذه المعركة وواقع المعارك الأخرى التي كان الخوارج ينتصرون فيها نجد أن العامل القوي في انتصار الخوارج أنهم يقاتلون عن عقيدة راسخة ، فهم إنما يقاتلون ليفوزوا بالشهادة فيتعجلوا للوصول إلى الجنة ، وهم وإن كانوا ضالين في منهجهم ويرتكبون العظائم في قتل المسلمين فإن ذلك لا يؤثر على مستوى يقينهم لأنهم يعتقدون بأنهم على حق وأن الذين يقاتلونهم من المسلمين على الضلال والكفر ، ولكنهم في هذه المعركة قد واجهوا قوما قد ارتفع مستوى اليقين عندهم إلى أعلى مما هم عليه بكثير ، وقد اصطحب هؤلاء المجاهدون من أهل السنة معية الله تعالى لهم بالنصر والتأييد ، وتوكلوا عليه حق التوكل وضجوا بدعائه وطلب النصر منه ، بينما اتكل أعداؤهم على كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا لأن الله جل وعلا كان مع أوليائه المؤمنين الذين لا يعتدون على الأمنين

(١) تاريخ الإسلام / حوادث ووفيات ١٢١ - ١٤١ ص ١٢ - ١٣ .

ولا يخيفون السبل ، ففشل الأعداء أمامهم وأتاهم القتل من حيث لا يحتسبون .

وفي آخر هذا الخبر دلالة على إعجاب علماء الإسلام بموقف المجاهدين من أهل السنة في هذه المعركة ، حيث شبهها عالم مصر الإمام الليث بن سعد بمعركة بدر .

* * *

مواقف وعبد

فى

جهاد المسلمين مع الصليبيين

إن من أهم أسباب الحروب الصليبية أن المسلمين امتد نفوذهم حتى استولوا على أكثر بلاد الأناضول ، وخشي الروم من سقوط القسطنطينية بأيديهم ، خصوصا بعد معركة ملاذكرد الناجحة الحاسمة حيث حطم السلطان ألب أرسلان قوات الروم التي تصل إلى مائتي ألف بجيش لا يبلغ عشرين ألفا كما تقدم ، فخاف الروم إن هو جمع قواته البعيدة وانضم إليه مجاهدون من الإمارات الإسلامية الأخرى أن تسقط بلادهم بيد المسلمين ، فاستنجدوا بالصليبيين ، حيث قدموا إلى بلاد الإسلام من الدول الأوربية .

وقد كان المسلمون آنذاك متفرقين إلى إمارات صغيرة فانتهاز الصليبيون الفرصة واستولوا على مدن وحصون في بلاد الشام وماجاورها .

١ - بداية الغزو الصليبي وجهاد بعض أمراء المسلمين -

قد ذكر المؤرخ ابن الأثير أن بداية الغزو الصليبي لبلاد الإسلام كانت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، حيث استولوا على مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس ، وأنهم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية واستولوا عليها ، وأنهم استولوا على بعض أطراف أفريقية ، وأنهم خرجوا إلى بلاد الشام سنة تسعين وأربعمائة فاستولوا على أنطاكية بعد حصار دام تسعة أشهر أبدى فيه واليها باغيسيان شجاعة عظيمة ، وفي ذلك يقول ابن الأثير : « وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره ، فهلك أكثر الفرنج موتاً ، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام » ولكن أنطاكية سقطت بيد الصليبيين بسبب خيانة أحد المستحفظين للأبراج بعد أن بذل له الأعداء مالا وإقطاعاً ففتح البرج لهم ودخلوا منه واستولوا على المدينة (١) .

حال المسلمين آنذاك :

كانت حال المسلمين يوم أن غزا الصليبيون بلادهم سيئة للغاية ، فالخلافة في بغداد ضعيفة وليس للخليفة إلا الاسم ، والعبيديون يحكمون مصر وهم ليس عندهم أي حماس للدفاع عن الإسلام ، والشام يحكمه عدد من الأمراء الضعفاء ، والحرب قائمة بينهم ، وحينما اجتمع بعضهم تحت قيادة كربوقا في عام واحد وتسعين وأربعمائة اتفق الأمراء على الانهزام أمام الصليبيين ليوقعوا كربوقا

(١) الكامل في التاريخ ٨ / ١٨٥ - ١٨٦ .

الذي تكبر عليهم ، وكان الصليبيون في أنطاكية في حال شديدة من الضعف والجوع والخوف حيث طلبوا الأمان في مقابل أن يخرجوا من البلد ، ولكن كربوقا رفض ذلك ، فلما كانت المعركة انهزم الأمراء من غير قتال حتى ظن الصليبيون أنها خدعة ، فلما تبين لهم أنهم جادون في الهزيمة شدوا على من بقي من المسلمين وقتلوا منهم ألفا وتقووا بالغنائم ، وواصلوا رحفهم نحو بيت المقدس (١) .

سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين :

لما سقطت أنطاكية بيد الصليبيين وانتصروا على الأمراء الأتراك انتهز العبيديون في مصر تلك الفرصة وساروا إلى بيت المقدس وكان واليه سقمان بن أرتق التركماني ، فحاصروه ونصبوا عليه نيفا وأربعين منجنيقا إلى أن استولوا عليه وأنابوا في حكمه رجلا يعرف بافتخار الدولة ، فقصده الصليبيون وحاصروه نيفا وأربعين يوما إلى أن استولوا عليه يوم الجمعة لسبع بقين من شوال عام اثنين وتسعين وأربعمائة فلبثوا فيه أسبوعا يقتلون المسلمين ، وقتلوا بالمسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم ورهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف (٢) .

ولقد عبر عن هذه المأساة الشاعر أبو المظفر الأبيوردی بقوله :

مزجنا دمانا بالدموع السّواجم فلم يبقَ منا عرضةٌ للمَراجِم (٣)

(١) الكامل في التاريخ ١٨٦/٨ - ١٨٧ .

(٢) الكامل في التاريخ ١٨٩/٨ .

(٣) السواجم : المدروفة والمراجِم : من الرجم وهو الرمي بالأحجار .

وشرُّ سلاح المرء دمعٌ يريقه إذا الحرب شبتْ نارُها بالصوارم
فأيها بني الإسلام إن وراءكم وقائعٌ يلحقنَ الذرى بالمناسم^(١)
وكيف تنامُ العينُ ملءَ جفونها على هفواتٍ أيقظتْ كلَّ نائم
وإخوانكم بالشام يُضحى مقلهم ظهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعم^(٢)
تسومهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ تجرُّونَ ذيلَ الخفضِ فعلَ المسالم
ومنها قوله :

وبين اختلاس الطعن والضرب وقفةٌ
تظلُّ لها الولدانُ شيبَ القوادم
وتلكَ حروبٌ من يغبُ عن غمارها
ليسلم يقرعُ بعدها سنٌّ نادم
سَلَّكَ بأيدي المشركينَ قواضبًا
ستُغمدُ منهم في الكلى والجماجم^(٣)
يكادُ لهنَّ المستجيرُ بطيبةٍ
ينادي بأعلا الصوتِ يا آلَ هاشم
أرى أمتي لا يُشرعونَ إلى العدا
رماحهم والدينُ واهي الدعائم

(١) المناسم : جمع منسم وهو خفّ البعير .

(٢) المذاكي : الجياد ، والقشاعم : النسور .

(٣) القواضب : القواطع من السيوف .

ويجتنبون النارَ خوفاً من الردى
ولا يحسبون العارَ ضربةً لازم
أيرضى صناديدُ الأعراب بالأذى
ويُغضى على ذلِّ كماء الأعاجم (١)
فليتهموا إذ لم يلذودوا حميةً
عن الدين ضنواً غيرةً بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذ حمسَ الوغى

فهلا أتوه رغبةً في المغنم (٢)
وهكذا يظهر لنا الضرر الفادح من بُعد المسلمين عن الحياة
الجهادية ، وضعف الوعي الإسلامي فهؤلاء العلماء والعباد والزهاد
الذين فضلوا الرباط في المسجد الأقصى وحوله لم يفهموا شمول
العبادة في الإسلام ، حيث فهموا أن العبادة هي المبالغة في أداء
الشعائر التعبدية والاشتغال بالعلم القاصر، ولم يهتموا بالاستعداد
للجهاد والمشاركة فيه وإعداد العدة التي أمرهم الله تعالى بها في قوله
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] ،
فداهمهم الأعداء الخاقدون وذبحوهم كما تذبح الشياه .

(١) الكماة : الأبطال .

(٢) البداية والنهاية ١٦٧/١٢ .

إن هؤلاء السبعين ألفاً الذين قتلهم الصليبيون في المسجد الأقصى لو كانوا قد تدربوا على الجهاد، وأصبح كل واحد منهم يملك السلاح لاستطاعوا وحدهم أن يهزموا الصليبيين - بإذن الله تعالى - لأنهم لا يملكون القوة الروحية بتوكلهم على الله جل وعلا واستمدادهم النصر منه، فإذا اجتمع مع هذا العامل المعنوي المهم العامل المادي، من التدريب على القتال وحمل السلاح فإن أصحاب ذلك لا يغلبون بإذن الله جل وعلا .

جهاد سقمان وجكرمش مع الصليبيين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث عام سبعة وتسعين وأربعمائة أنه لما استطال الفرنج - خذلهم الله - بما ملكوه من بلاد الإسلام ، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وأمرائه بقتال بعضهم بعضاً وتفرقت كلمة المسلمين رحف الصليبيون نحو حران ليأخذوها ، وكان بين الأمير معين الدولة سقمان الأرتقي وشمس الدولة جكرمش نزاع وكان كل واحد منهما يعد العدة لقتال الآخر ، فلما علما بتحرك الصليبيين شرقاً أرسل كل واحد منهما إلى صاحبه يدعوهُ إلى الاجتماع معه لقتال الصليبيين وتلافي أمر حران ويعلمه بأنه قد بذل نفسه لله تعالى ، فكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه ، وسارا فاجتمعا على الخابور وتحالفا ، وسارا إلى لقاء الصليبيين ، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان ، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد ، فالتقوا على نهر البليخ وكان المصاف بينهم هناك ، فاقتتلوا فظهر المسلمون الانهزام فتبعهم الصليبيون نحو فرسخين، فعاد

عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا ، وامتلات أيدي التركمان من الغنائم ، ووصلوا إلى الأموال العظيمة لأن مؤن الأعداء كانت قريبة منهم .

وكان ييمند صاحب أنطاكية ، وطنكري صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم إذا اشتدت الحرب ، فلما خرجا رأيا الصليبيين منهزمين فأقاما إلى الليل وهربا بجنودهما ، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيرا وأسروا كذلك ، وأفلتا في ستة فرسان .

وكان بردويل صاحب الرها قد انهزم مع جماعة من رؤسائهم ، وخاضوا نهر البليخ فوصلت خيولهم ، فجاء تركماني من أصحاب سقمان فأخذهم وحمل بردويل إلى مخيم صاحبه ، وكان سقمان قد سار فيمن معه لاتباع ييمند .

وسار سقمان إلى حصون الفرنج فاستولى على عدد منها ، أما جكرمش فقد سار إلى حران فاستولى عليها .

وبلغ عدد القتلى من الصليبيين ما يقارب اثني عشر ألف قتيل (١) .

وهكذا انتصر المسلمون على الصليبيين انتصارا كبيرا لما اجتمع أميران منهم وصدقا في جهادهما ، ولقد كان موقفاً عالياً يذكر لهذين الأميرين سقمان وجكرمش حينما تناسيا ما كان بينهما من خلاف وتوجهها معا للخطر المشترك عليهما ، ولو أن أمراء المسلمين آنذاك فعلوا فعلهما لم يبق في أرض المسلمين أحد من الأعداء ، ولا استطاعوا

(١) الكامل في التاريخ ٢٢١/٨ - ٢٢٢ .

أن يُخضعوا أمم الأرض لحكم الإسلام ، وإنما يُؤتَى المسلمون من الشقاق والتناحر فيما بينهم .

جهاد طغتكين مع الصليبيين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وتسعين وأربعمائة أنه في شهر صفر جرت معركة بين أمير دمشق طغتكين والصليبيين بقيادة بغدوين أمير القدس وعكا وغيرهما ، وذلك بعد معارك جرت بينهما ، ثم إن بغدوين بنى حصناً بينه وبين دمشق نحو يومين فخاف طغتكين من شرور ذلك ، فسار إلى الصليبيين والتقوا واقتتلوا أشد قتال ، فانهزم أميران من عسكر دمشق فتبعهما طغتكين وقتلهما ، وانهزم الصليبيون إلى حصنهم فاحتماوا به ، فقال طغتكين : من أحسن قتالهم وطلب مني أمرا فعلته له ، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير ، فبذل الرجال نفوسهم وصعدوا إلى الحصن وخرّبوه ، وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم ، وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي ، وأسروا من بالحصن ، فأمر بهم فقتلوا كلهم ، واستبقى الفرسان أسراء ، وكانوا مائتي فارس ، ولم ينج من كان في الحصن إلا القليل (١) .

هذا وإننا لنجد في هذا الخبر صورا من الحزم الذي اتصف به الأمير طغتكين ، وذلك في الاهتمام بجهاد الصليبيين لإزالة ذلك الحصن الذي اتخذوه وقاية لهم ليحتماوا به إذا أغاروا على دمشق فقام بجهاد ذلك الأمير الصليبي حتى هزمه ، وهدم ذلك الحصن ، ثم

(١) الكامل في التاريخ ٨ / ٢٣٠ .

فيما أقدم عليه من قتل ذينك الأميرين الذين خانا الأمانة وفراً إلى دمشق، وهذه الصورة قل أن يوجد لها نظير في تاريخ الحروب، وهي تعطي دروساً قوية بليغة للقادة والجنود حتى لا يفرّوا يوم الزحف فيحدثوا الفشل والخلل في صفوف الجيش .

واخيراً في الطريقة التي سلكها ذلك الأمير في هدم ذلك الحصن، حيث إنه لم يكن فيما يظهر عنده شيء من آلات الرمي الثقيلة كالمجانيق فوجه أفراد جيشه بالإغراء المذكور ليقوموا بهدم ذلك الحصن، فأنجزوا تلك المهمة بكثرة العدد و تظافر الجهود ، وهذا يدل أيضاً على حزم هذا الأمير وعلو تفكيره الحربي .

* * *

٢ - جهاد عماد الدين زنكي مع الصليبيين -

هو عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان من قبائل « الساب يو » التركمانية ، وقد كان أبوه مقدما عند ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي ، ولما تولى مُلك السلاجقة بركيا روق بن ملكشاه عيّن آق سنقر على إمارة حلب وكان حازما عادلا ، وبعد أن قُتل آق سنقر انتقل ابنه عماد الدين إلى الموصل في رعاية حاكمها القائد السلجوقي كربوقا الذي كان صديقا لوالده وكان عماد الدين في العاشرة من عمره ، ومازال بعد أن بلغ سن الشباب موضع الثقة عند حكام السلاجقة لما رأوا فيه من النبل والشجاعة ، واشترك مع الأمير مودود بن التونتكين في حروبه مع الصليبيين .

وفي عام واحد وعشرين وخمسمائة صار أميراً على مدينة الموصل من قبل السلاجقة ، وقد دفعه طموحه بعد ذلك إلى ضم منطقة الجزيرة وشمال الشام إلى سلطته وكان ذلك بداية قوته وتوجهه لجهاد الصليبيين (١) .

معركته مع الصليبيين حول حمص :

كان من أبرر مواجهاته معهم ماقام به من مواجهة جيش لهم كبير، أرادوا به مباغتته وهو محاصر حمص، وكانوا قد شعروا بتزايد قوته مع اتساع إمارته فانسحب من حمص وأظهر عزمه على حصار حصن « بعرين » المنيع الذي استولى عليه النصارى ، وقد استدرجهم

(١) عماد الدين زنكي للدكتور عماد الدين خليل / ٣١ - ١١٥ .

وكان حكم عماد الدين زنكي ما بين عامي واحد وعشرين وواحد وأربعين وخمسمائة .

بذلك لاختيار الموقع المناسب ، وما أن بدأ رحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم إليه الصليبيون بقيادة «فولك» ملك بيت المقدس ، وريموند ملك طرابلس ، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، وقُتل وأسر عدد كبير من جند العدو وأمرائه وقادته ، وكان ريموند من بينهم، أما فولك فقد تمكن من الهروب إلى حصن بعرين^(١) .

وهكذا أظهر عماد الدين براعة حربية حيث استدرج الصليبيين بعيداً عن مدينة حمص وقلعة بعرين حتى لا يأتيهم منهما مدد، فاستطاع - بتوفيق الله تعالى - أن ينتصر عليهم وأن يأسر أمراءهم وقادتهم مع اجتماعهم لقتاله .

فتح حصن بعرين :

ثم تقدم عماد الدين زنكي لحصار حصن « بعرين » ، ونظراً لأهمية هذا الحصن فإن الصليبيين استنجدوا بملك الروم ويدوك أوروبا قائلين إن عماد الدين إن استولى على هذا الحصن سهل عليه القضاء على الممالك الصليبية في الشام ، وإن المسلمين لهم نية في استعادة بيت المقدس ، وقد جاء ملك الروم ومعه الأمداد الأوربية وأمراء النصارى في الشام ، ولكن بعدما تم استيلاء عماد الدين على ذلك الحصن .

(١) عماد الدين زنكي ، للدكتور عماد الدين خليل ، عن ذيل تاريخ دمشق ، والكامل ، والباهر / ١٤٢ .

مواجهة بينه وبين الصليبيين والروم :

وقد أرسل عماد الدين أمراء المسلمين لإمداده فأمدوه، ولدهائه ودقة تخطيطه الحربي استطاع أن يفرق جمع الأعداء، وكان قد اتجه بقواته شمالاً وعسكر قرب حماة والأعداء يحاصرون « شيزر » التي تقع شمال حماة، وكان عماد الدين يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار .

ثم أرسل إلى أولئك الحلفاء يقول لهم : إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال - المحيطة بشيزر - فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها ، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم .

وهكذا نجح عماد الدين في خداعهم وإرهابهم ، حيث ظنوا أن معه جيشاً كبيراً وأن الذين يغيرون عليهم كل يوم إنما هم سرية من سرايا عماد الدين .

هذا إضافة إلى استعماله المكائد للتفريق بين أولئك الحلفاء، حيث حذر صليبي الشام من استيلاء إمبراطور الروم على بلادهم، كما أوهم هذا الإمبراطور بأن نصارى الشام قد تحالفوا معه ، فلذلك كله قرر ملك الروم الانسحاب ، وفك الحصار عن شيزر في التاسع من رمضان عام اثنين وثلاثين وخمسمائة، واستولى عماد الدين على آلاتهم الحربية الثقيلة ، كما أرسل بعض قواته لملاحقتهم فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً منهم (١) .

(١) عماد الدين زنكي / ١٤٣ - ١٤٧ ، عن عدد من المصادر القديمة والحديثة .

فتح مدينة الرها :

أما أهم عمل قام به في جهاد الصليبيين فهو فتح مدينة « الرها » وذلك في السادس من جمادى الآخرة من عام تسعة وثلاثين وخمسمائة ، وهي من أكبر مدن الجزيرة ، وفيها إمارة للنصارى قوية ، ويتبعها عدد من قرى الجزيرة ، وهي تحت إمرة « جوسلين » أقوى الصليبيين آنذاك وأشدّهم دهاءً ومكراً ، وقد كان بلاؤه على المسلمين من حوله عظيماً .

وقد كان عماد الدين يعلم أنه إذا قصد حصارها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة ، فأظهر أنه سائر إلى ديار بكر ليوهم الفرنج أنه لا يريد بلادهم ، فلما علم بذلك جوسلين اطمأن وفارق الرها إلى بلاد الشام ، فجاءت عيون عماد الدين فأخبروه الخبر ، فنادى بالعسكر بالرحيل ، وجمع الأمراء ، وقدم لهم الطعام ، وقال : لا يأكلُ معي على مائدتي هذه إلا من يطعن غداً معي بباب الرها ، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب . وسار والعساكر معه ووصل إلى الرها ، وكان هو أول من حمل على الفرنج ، وحمل فارس من خيالة الفرنج على عماد الدين فاعترضه ذلك الأمير الذي سار معه فطعنه فقتله .

وقاتل أهل البلد ثمانية وعشرين يوماً ، وقدم النقبّاء ، فنقبوا سور البلد ، حتى أسقطوا جزءاً منه ، فاستولى على البلد عنوة وحاصر قلعته حتى ملكها ، وجعل في البلد عسكرياً يحفظه ، ثم أغار على

القرى التي تحت سلطان الصليبيين فاستولى عليها، ويسقوط الرها
زالت دولة الصليبيين في الجزيرة .

وبهذا الفتح علت سمعة عماد الدين زنكي عند المسلمين، وأضفى
عليه الخليفة ألقاباً عالية ، وخاف منه الصليبيون والروم، وكان من أثر
ذلك أن اتفقوا وقاموا بحملتهم الثانية التي تصدى لها ابنه نور الدين
محمود بعد استشهاد أبيه رحمه الله (١) .

* * *

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/٨-٩ ، وانظر « عماد الدين زنكي ٧/١٤٩ .

٣ - جهاد نور الدين محمود مع الصليبيين -

هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، تولى إمارة حلب ، ثم اتسعت سلطنته حتى شملت بلاد الشام والجزيرة ومصر والحجاز واليمن ، وقد اشتهر بالعدل في الحكم ، حتى قال عنه المؤرخ ابن الأثير : وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحرياً منه للعدل (١) .

كما أنه قد اشتهر بالشجاعة وحب الجهاد ، وقد ذكر ابن الأثير من شجاعته أنه كان في الحرب يأخذ قوسين ليقاتل بهما ، وأن الفقيه القطب التساوي قال : بالله عليك لاتخاطر بنفسك وبالإسلام فإنك إن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، فقال نور الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ، من قبلي من حفظ البلاد والإسلام ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو (٢) .

ولقد ظل رحمه الله تعالى يجاهد الصليبيين حتى أضعفهم وقلص من وجودهم في الشام ، وكان حُلُمه الكبير أن يفتح بيت المقدس ويظهرها من الصليبيين ولكن وافته المنية في سنة تسع وستين وخمسمائة قبل أن يتحقق ذلك ، ولكن فتحها تم بعد ذلك على يدي صلاح الدين الأيوبي .

(١) الكامل في التاريخ ١٢٥/٩ .

وقد استمر حكمه ما بين عامي واحد وأربعين وتسعة وستين وخمسمائة .

(٢) الكامل في التاريخ ١٢٥/٩ .

معركة يغرَى :

ومن أخبار جهاده مذكره العلامة المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة حيث قال: في هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكي الفرنج بمكان اسمه « يغرَى » من أرض الشام، وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها، فعلم نور الدين فسار إليهم في عسكره، فالتقوا بـيغرَى ، واقتتلوا قتالا شديداً انجلت المعركة عن انهزام الفرنج ، وقُتل منهم كثير ، وأُسر جماعة من مُقدّمِيهم ، ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل (١) .

استيلاؤه على حصن عزاز وماحوله :

وذكر في حوادث سنة ست وأربعين وخمسمائة أن نور الدين استطاع أن يأسر جوسلين الذي كان أعظم ملوك الفرنج شجاعة ودهاء، وكان قد استولى على قرى وحصون شمالي مدينة حلب لما فقد إمارة الرها ، وكان نور الدين قد وضع عليه العيون، فلما خرج للصيد أبلغوا أبا بكر بن الداية نائب نور الدين على حلب فجاء بفرقة معه فأسره ، وقد فرح المسلمون كثيراً بأسره لشدة أذاه عليهم، وأصيب النصاري به لشدة غنائه فيهم ، واستولى بعد ذلك نور الدين على قلاع وحصونه ومنها عَزَّار .

وقد مدحه الشعراء على ذلك ، ومما قيل فيه قصيدة للقيصري يقول فيها مُعرّضاً بجوسلين :

طغى وبغى عدواً على غلوائه فأوبقه الكُفْرانِ عدّواه والكفرُ

(١) الكامل في التاريخ ٢٢/٩ .

وَأَمْسَتْ عَزَّازُ كَاسِمَهَا بِكَ عَزَّةً تَشْقُ عَلَى النَّسْرَيْنِ^(١) لَوَأْنَهَا وَكَر
فَسِرُوا وَأَمْلِكِ الدُّنْيَا ضِيَاءً وَبِهَجَّةً فَبِالْأَفْقِ الدَّاجِي إِلَى ذِي السَّنَا فَقَر
كَأَنِّي بِهَذَا الْعِزْمِ لَأُقِلَّ حَدَّهُ وَأَقْصَاهُ بِالْأَقْصَى^(٢) وَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
وَقَدْ أَصْبَحَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ طَاهِرًا وَلَيْسَ سِوَى جَارِي الدِّمَاءِ لَهُ طَهْرٌ^(٣)
مَعْرَكَةُ دُلُوكُ وَفَتْحُهَا :

ثم ذكر ابن الأثير في حوادث سنة سبع وأربعين وخمسمائة أن
الفرنج تجمععت وحشدت الفارس والراجل ، وساروا نحو نور الدين
وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه من مُلْكِهَا ، فوصلوا إليه وهو بدُلُوكُ ،
فلما قربوا منه رجع إليهم ولقيهم ، وجرى المصاف بينهم عند دُلُوكُ ،
واقْتَتَلُوا أَشَدَّ قِتَالٍ رَأَى النَّاسُ ، وصبر الفريقان ، ثم انهزم الفرنج وقُتِلَ
منهم وأسر كثير ، وعاد نور الدين إلى دُلُوكُ فاستولى عليها ، ومما قيل
في ذلك :

أَعْدَتْ بَعْصَرُكَ هَذَا الْآنِيَّ	قِ فَتُوحِ النَّبِيِّ وَأَعْصَارَهَا
وَكَانَ مُهَاجِرُهَا تَابِعِيَّ	لَكَ وَأَنْصَارُ رَأْيِكَ أَنْصَارَهَا
فَجَدَّدَتْ إِسْلَامَ سَلْمَانِهَا	وَعَمَّرَ جَدُّكَ عَمَّارَهَا ^(٤)

فَتْحُ قَلْعَةِ حَارِمٍ :

ثم ذكر ابن الأثير أن نور الدين عزم على فتح قلعة حارم المنيرة

(١) النسران كوكبان وسميا بذلك تشبيها بالنسر الطائر .

(٢) أي المسجد الأقصى .

(٣) الكامل في التاريخ ٢٩/٩ - ٣٠ .

(٤) الكامل في التاريخ ٣٢/٩ .

وهي قرب أنطاكية ولها أهمية كبيرة عند النصارى ، وحاصرها وضيق عليها ، وقد اجتمعت الفرنج لترحيله عنها ولكن أحد عقلائهم في القلعة أشار عليهم بعدم مواجهة نور الدين لعدم مقدرتهم على قتاله ، ثم حاصرها مرة أخرى فصالحوه على تسليمه نصف أعمال القلعة .

ثم في المرة الثالثة عزم على فتح القلعة ، واستنجد بأخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل والجزيرة ، وبفخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وبنجم الدين ألبى صاحب ماردين ، فأما قطب الدين فإنه سار مُجِدًّا وفي مقدمته زين الدين علي أمير جيشه ، وأما فخر الدين صاحب الحصن فإنه استشار خواصه فقالوا : على أي شيء عزمتم ؟ فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصوم والصلاة ، وهو يُلقي نفسه في المهالك ، فكلهم وافقه على هذا الرأي ، فلما كان من الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له خواصه : فارقناك أمس على حالة فنراك اليوم على ضدها ! فقال : إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أُنَجِّدْهُ خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه قد كاتب زهادها وعبَّادها والمنقطعين عن الدنيا يذكُرُ لهم مالقي المسلمون من الفرنج ومانالهم من القتل والأسر ، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب أن يحشُّوا المسلمين على الغزاة ، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويكون ويلعنونني ويدعون علي ، فلا بد من المسير إليه ، ثم تجهز وسار بنفسه .

وأما نجم الدين فإنه سير عسكرا .

فسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد هلكوا، وبقوا في الوسط قد أحرق بهم المسلمون من كل جانب ، فاشتدت الحرب، وكثر القتل في الفرنج، وتمت عليهم الهزيمة ، فعدل حينئذ المسلمون عن القتل إلى الأسر ، فأسروا مالا يُحَدّ، وفي جملة الأسرى صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس « القمص » وكان شيطان الفرنج وأشدّهم شكيمة على المسلمين ، والدُّوك مقدّم الروم، وابن جوسلين ، وكان عدد القتلى يزيد على عشرة آلاف .

وقد فادى نور الدين بالأسرى عدداً كبيراً من أسرى المسلمين .
وكان للشعراء دور طيب في الشناء على نور الدين وتأيينه في حصار تلك القلعة وفتحها ، ومن ذلك قصيدة لأحد الشعراء أكتفي بذكر أبيات منها يقول فيها :

أَلْبَسْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ يَانُورَهُ	عِزّاً لَهُ فَوْقَ السُّهَى آسَادُ
مَارَلْتَ تَشْمَلُهُ بِمَيَّادِ الْقَنَا	حَتَّى تَثَقَّفَ عَوْدَهُ الْمَيَّادُ
لَمْ يَبْقَ مَذْأَرُهُ قَتَّ عِزْمَكَ دُونَهُ	عَدَدُ يُرَاعُ بِهِ وَلَا اسْتِعْدَادُ
إِنْ الْمَنَابِرَ لَوْ تَطِيقُ تَكَلُّمًا	حَمَدْتُكَ عَنْ خُطْبَائِهَا الْأَعْوَادُ
مَنْ مُنْكَرٍ أَنْ يَنْسِفَ السَّيْلَ الرِّبَا	وَأَبُوهُ ذَاكَ الْعَارِضَ الْمَدَّادُ
لَا يَنْفَعُ الْأَبَاءَ مَا سَمَكُوا مِنْ أَلْ	عَلِيَاءَ حَتَّى يَرْفَعَ الْأَوْلَادُ (١)

(١) الكامل في التاريخ ٤٩/٩ ، ٧٩ ، ٨٦ - ٨٧ .

وذلك في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وسبع وخمسين وخمسمائة وتسع وخمسين وخمسمائة .

وهكذا سعد المسلمون بهذه الانتصارات الكبيرة على الصليبيين بعد أن لقي منهم المسلمون عتتا شديداً فجادت قرائح الشعراء بالقصائد العصماء في مدح الإمام العادل والمجاهد البطل نور الدين محمود، وإن هناك ما هو أعظم من المدائح الشعرية مما لا يسطر في الكتب إلا قليلاً ، ألا وهو لهج السنة الصالحين بالدعاء ، وهذا عند نور الدين وأمثاله أهم كثيراً وأعظم .

ولقد أثبتت هذه الوقائع وغيرها أن نور الدين مع ما اتصف به من الشجاعة والإقدام كان ذا رأي مسدد في الحرب ، وإلى ذلك ترجع بعض انتصاراته على الأعداء .

فتح قلعة بانياس :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وخمسمائة أنه في ذي الحجة من هذه السنة سار نور الدين إلى قلعة بانياس ، وهي بالقرب من دمشق ، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ولما فتح « حارم » أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقي من الفرنج همّهم حفظها وتقويتها ، فسار محمود إلى « بانياس » لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ، فنارل أهلها وضيق عليهم وقتلهم ، وكان في جملة عسكره أخوه نُصْرَةُ الدين أمير أميران ، فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه ، فلما رآه نور الدين قال له : لو كُشِفَ لك عن الأجر الذي أعدُّ لك لتمنيت ذهاب الأخرى .

وجد في حصارها ، فسمع الفرنج فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم

حتى فتحها، على أن الفرنج قد ضعفوا بقتل رجالهم في حارم وأسْرِهِم ، فملك القلعة وملأها ذخائر وعُدَّة ورجالا، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية ، وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرها عليها مالا في كل سنة .

ووصل خبر استيلاء نور الدين على حصن حارم وحصن بانياس إلى الفرنج بمصر ، فصالحوا شيركوه (١) وعادوا ليدركوا بانياس ، فلم يصلوا إلا وقد استولى عليها نور الدين (٢) .

فهذا الخبر فيه مواقف عالية لنور الدين محمود رحمه الله تعالى، فمن ذلك تخطيطه الحربي البارِع، وذلك حينما أوهم أعداءه بأنه سائر إلى طبرية ، ثم عاد إلى بانياس، فكان استعداد الأعداء في غير المكان الذي قصد، وترتب على هذه الخدعة الحربية نجاحه في الاستيلاء على بانياس .

وما عمَلَهُ نور الدين من خداع الأعداء داخل في قول رسول الله ﷺ « الحرب خدعة » (٣) .

ومن ذلك عزاؤه البليغ لأخيه الذي فُتِنَتْ عينه في الحرب، وهذا العزاء يدل على عمق إيمان نور الدين ورسوخ يقينه ، وعظمة استحضاره لمشاهد الحياة الآخرة .

(١) شيركوه هو أسد الدين الأيوبي وهو عم صلاح الدين الأيوبي ، وهو من أكبر قادة نور الدين ، وقد وجهه للاستيلاء على مصر وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين .

(٢) الكامل في التاريخ ٨ / ٨٧ .

(٣) صحيح البخاري ، الجهاد ، رقم ٣٠٣٠ (١٥٨/٦) ، صحيح مسلم الجهاد، رقم ١٧٣٩ (١٣٦١/٣) .

فتح حصن المنيطرة وصافيثا وعريمة :

وهذه خدعة حربية أخرى يقوم بها نور الدين محمود، فقد ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة إحدى وستين وخمسمائة أنه سار إلى حصن المنيطرة - وكان بيد الفرنج - بعدد قليل من جيشه على غرة منهم ، وهو يعلم أنه لو جمع عساكره حذرُوا ، فسار إليهم وانتهاز فرصة غفلتهم ، فحاصره وجدَّ في قتال أصحابه فأخذه عنوة وقتل بعض رجاله وسبى بعضهم ، ولم يجتمع الفرنج للدفاع عنه إلا وقد استولى عليه ، فتفرقوا وأيسوا من رده (١) .

وهكذا تكونُ إدارة الحروب الناجحة : مكاسبٌ كبيرة في مقابل خسائر قليلة .

وقد استمر نور الدين في غزو الصليبيين في بلاد الشام ، فقد غزا بلادهم سنة ثلاث وستين وخمسمائة فاستولى على بعض قلاعهم وحصونهم ومنها « صافيثا وعريمة » (٢) .

القضاء على حملة صليبية :

على إثر انتصارات نور الدين المتتالية في الشام واستيلائه على مصر بعث الصليبيون إلى دول أوروبا يطلبون لمجدهم ، ويخوفونهم من استيلاء نور الدين على بيت المقدس ، فأرسلوا لهم حملة وصلت إلى دمياط ، ولما علم بهم الصليبيون في الشام أمدوهم بالجيوش ، وكان أسد الدين شيركوه قد مات وخلفه على ولاية مصر ابن أخيه صلاح

(١) الكامل في التاريخ ٩٤/٩ ، وانظر البداية والنهاية ٢٦٩/١٢ .

(٢) الكامل ٩٦/٩ .

الدين الأيوبي ، فأرسل الجيوش إلى دمياط ، واستمد نور الدين فأمدّه بالجيوش أرسلًا وانتهاز فرصة خروج جيوش الصليبيين إلى مصر فأغار على بلادهم في الشام واستولى على كثير منها وخرب كثيرًا من حصونهم ، وقد قاومهم صلاح الدين في مصر حتى هزمهم ، ورجعت الحملة الصليبية إلى أوروبا خاسئة حسيّرة ، ورجع الصليبيون إلى الشام فوجدوا نور الدين قد استولى على كثير من بلادهم ، فخسروا الشام ولم يكسبوا مصر (١) .

وهذا يعتبر نجاحًا كبيرًا لنور الدين الذي وفقّ برجال أكفاء أقوياء من أمثال أسد الدين وصلاح الدين .

حصار حصن الكرك ولقاء مع الصليبيين :

ذكر ابن الأثير حصار نور الدين حصن الكرك ، وهو من أمتع المعاقل على طرف البر ، فحاصره وضيق على أهله ، ونصب عليه المنجنيقات ، فأتاه الخبر أن الصليبيين قد جمعوا له وساروا إليه ، وقد جعلوا على مقدمتهم ابن هنغري وفليب بن الرقيق ، وهما فارسا الفرنج في وقتها ، فرحل نور الدين نحو هذين المقدّمين ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق بهما باقي الفرنج ، فلما قاربهما رجعا القهقري واجتمعا بباقي الفرنج ، وسلك نور الدين وسط بلادهم يفتح القرى ، وأقام ينظر حركة الفرنج فلم يبرحوا مكانهم .

لكن إحدى سرايا نور الدين انتصرت على سرية من سرايا الصليبيين ، وكانت هذه السرية بقيادة شهاب الدين إلياس ، وكان قد

(١) الكامل ١٠٥/٩ ، وانظر البداية والنهاية ٢٧٩/١٢ .

سار إلى نور الدين ومعه مئتا فارس فصادف ثلاثمائة فارس من الصليبيين ، فاقتتلوا واشتد القتال ، وصبر الفريقان وكثر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الصليبيون ، وعمهم القتل والأسر ، ولم يفلت منهم إلا من لا يعتد به (١) .

حملة تأديبية للصليبيين :

ومن أعمال نور الدين الجهادية تلك الحملة التأديبية التي قام بها لتأديب الفرنج لما استولوا على مركبين تجاريين للمسلمين ، فقد قام بحملة واسعة فيما تبقى من أملاكهم حتى خضعوا وسلموا ما أخذوا بذلة وصغار (٢) .

وهذا موقف جليل في إظهار عزة دولة الإسلام وحماية مصالح المسلمين .

مواقف نور الدين الأخلاقية :

أما مواقف السلطان نور الدين الأخلاقية في مجالات العدل والورع وخشية الله تعالى فهي كثيرة مشهورة فمن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن الأثير في بيان ورع السلطان نور الدين حيث يقول : حكى لي من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل عنه ، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله ، وهو من جهة كذا وكذا ، فقال : إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة

(١) الكامل ١٠٦/٩ .

(٢) الكامل ١١٣/٩ .

إلى كمال الدين ، فرده إلى الخزانة مرة أخرى وقال : إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني : إنه له ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب وقال : ألم أقل لكم : يعاد هذا المال إلى أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين فرده إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال ، وأما أنا فربتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يُعاد قولاً واحداً^(١).

فهذا الخبر فيه مثل مما كان يتصف به السلطان نور الدين من الورع وخشية الله تعالى والتحري في الأموال واتقاء الشبهات ، فبالرغم من أن ذلك المال قد أتى من طريق القاضي كمال الدين الشهرزوري - وهو المعروف بعلمه وتقواه - فإن نور الدين قد رفض قبوله ، لأنه قد دخل مجال الشبهات فخاف من أن يحاسب عليه يوم القيامة .

ومن أخبار عدل السلطان نور الدين وتواضعه أنه طُلب مرة من أحد المدَّعين عليه فقال أحد كبار موظفيه مستهزئاً : يقوم المولى إلى مجلس الحكم !! فأنكر نور الدين على الرجل سخريته وقال : تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ ثم قال : يُحضّر فرسي حتى نركب عليه ، السمع والطاعة قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١] ، ثم نهض وركب حتى دخل باب

(١) نور الدين محمود / ١٠٣ للدكتور عماد الدين خليل نقلا عن التاريخ الباهر لابن

الاثير / ١٦٧ .

المدينة ، واستدعى أحد أصحابه وقال : امض إلى القاضي وسلم عليه
وقل له : إني جئت ههنا امتثالاً لأمر الشرع (١) .

وهذا موقف عالٍ من نور الدين بين فيه إخلاصه وتجرده من حظ
النفس وخضوعه التام لشريعة الله تعالى ، فهو لم يستنكف عن
الحضور بين يدي القاضي حينما قامت عليه الدعوى ، بل استسلم
لأمر الله جل وعلا وأمر رسوله ، وقد أعاد بذلك سيرة الصحابة رضي
الله عنهم ، حيث كان أمراؤهم يحضرون مع خصومهم عند القاضي
كأي إنسان آخر .

ولقد كان في يوم من الأيام يلعب بالكرة في دمشق فرأى رجلاً
من أتباعه يحدث آخر ويومئ يده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله ،
فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك ، وطلب
حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة ، فتردد الغلام في
عرض الموضوع على نور الدين ولكن هذا ألح عليه ، فلما تبين له
الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضي كمال
الدين وقال له : إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ماتسلكه مع
غيري ، فلما حضر المدعي ساوياً كمال الدين بينه وبين خصمه ، وإذا
لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور ، هل ثبت له عندي
حق؟ قالوا : لا ، قال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي
حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي ، وإنما حضرت
معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه .

(١) نور الدين محمود / ٧٩ ، نقلاً عن الروضتين لأبي شامة ١/ ٢٦ - ٢٧ .

قال ابن الأثير : تلك هي غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان ، وهي درجة وراء العدل (١) .

وهكذا رأينا السلطان نور الدين يضرب مثلاً عالياً في الخضوع لشريعة الله تعالى ، وذلك بسرعة الحضور عند القاضي حينما دعاه ، وقد كلل هذه المأثرة العالية في العدل بمأثرة أخرى في الإحسان حينما تنارل عن الحق الذي خوصم فيه لمخاصمه مع ثبوت حقه فيه ، وهذا مثل جيد في النزاهة والعفة .

ومن روائع السلطان نور الدين في القضاء وإجراء العدالة والإنصاف من الأمراء والقادة إنشاء « دار العدل » في دمشق ، وكان سبب إنشائها تزايد سلطان عدد من كبار الأمراء وتجاوز بعضهم حقوق بعض وعدم خضوع بعضهم لسلطة الحاكم الشرعي ، فلما علم بذلك نور الدين أمر ببناء دار العدل ، يقول ابن الأثير : فلما سمع شيركوه (٢) ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم : اعلموا أن نور الدين مأمور ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي ، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين (٣) والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته ، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي ،

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ ، وانظر « نور الدين محمود / ٧٩ عن الباهر لابن الأثير ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) هو أسد الدين شيركوه كبير أمراء نور الدين وهو الذي استولى على مصر وقضى فيها على الصليبيين والعبيديين .

(٣) هو قاضي القضاة كمال الدين الشهرذوري .

فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب ، فقال :
خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعينٍ أني
ظالم ، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة - أي القضاء - ،
فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا
عليهم ، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات
فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين ، فعرفه الحال فقال : الحمد
لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا (١) .

وهكذا كان نور الدين موفقا في إنشاء محكمة عليا يتولى هو فيها
الحكم على أمرائه الذين قد لا يتمكن الحاكم الشرعي من السير في
إجراءات الحكم عليهم .

لقد كان التفكير في إنشاء دار العدل في غاية الروعة والسمو ،
حيث أصبح بإمكان نور الدين أن ينصف جميع المظلومين من ظالمهم
وإن كانوا من أصحاب المناصب الكبيرة ، وكان مجرد إنشاء هذه الدار
كافيا لإيقاف الظالمين من الولاة عن الظلم خشية أن يُستدعوا إلى تلك
الدار فيوقفوا مع أصحاب الحقوق .

وهكذا يكون العدل الكامل ، إن كمال العدل لا يكون بإنصاف
المظلومين من الظالمين الضعفاء أو المتوسطين فقط ، وإنما يكون بشمول
العدالة والإنصاف من جميع الناس وإن كانوا من الكبراء المتجبرين .

ويقول أبو شامة في بيان عدالة السلطان نور الدين : « وكان نور
الدين يجلس في دار العدل . . ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، حتى

(١) نور الدين محمود / ٧٦ نقلا عن الباهر لابن الأثير / ١٦٨ :

يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني ، ويكلمهم بأحسن الكلام ، ويستفهم منهم بأبلغ النظام ، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ، ولا القوي في دفع الضعيف بالقول ، ويحضر في مجلسه العجور الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكاملة معه ، فتغلب خصمها طمعا في عدله ، ويعجز الخصم عن دفعها من عدله ، فيظهر الحق عنده ، فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشرعية ، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة ، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة » (١) .

وهكذا كانت إشاعة العدل سببا في تقوية الضعفاء حتى يأخذوا حقهم غير متعتين ولا خائفين ، كما أنها كانت سببا في إضعاف الأقوياء الذين تميل نفوسهم نحو الظلم ، فيحصل من ذلك ارتداعهم عن التفكير في الظلم ، وبهذا تنقلص قضايا الاعتداءات ، ويعيش الناس في أمن وأمان .

ومن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن الأثير عن رضيع الخاتون روجة نور الدين قال : إنها قلت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرره لها ، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها [أي مخصصاتها المالية] ، فلما قلت له ذلك تنكر وأحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها أما يكفيها مالها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن !! إنما هي أموال

(١) نور الدين محمود للدكتور عماد الدين خليل / ٧٦ - ٧٧ عن الروضتين ٣٣/١/١

والباهر / ١٦٨ والبداية ٢ / ٢٨٠ .

المسلمين ومُرصدة لمصالحهم ومعدّة لفتق - إن كان - من عدو الإسلام، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا قد وهبتها إياها فلتأخذها .

قال الرضيع : وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين دينار^(١) .

فهذا مثل من ورع السلطان نور الدين وعدله ، فهو يشبهه بعدله وورعه وزهده بأمر المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، فقد غضب نور الدين لما سألته زوجته ريادةً في مخصصاتها المالية ، وتذكرُ حالاً نار جهنم ، وهذا دليل على قوة إيمانه وعظمة خشيته من الله جل وعلا .

ولقد كان عظيم الاهتمام بالعدل وتمكين المظلومين من إنهاء قضاياهم إليه ، ذكر ابن قاضي شهبة أنه كان يقول : حرام على كل من صحبني ولا يرفع إليّ قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليّ ، ويقول خادمه شاذ بخت الطواشي الذي كان أحد نوابه في حلب : كنت يوما أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكرا عظيما ، وجعل ينكش بإصبعه الأرض ، فعجبنا من فكره وقلنا : في أي شيء يفكر ، في عائلته أو في وفاء دينه ؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال : ماتقولان ؟ فأجبناه بعد تردد ، فقال : والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وإخواني ، وأخاف المطالبة بذلك أمام الله ، فيالله عليكم - وإلا فخبزي عليكم حرام - لاتريان قصة مظلوم

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥ وانظر « نور الدين محمود / ٤٠ نقلا عن الباهر / ١٦٤ .

لاترفع إليّ ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعها إلي (١) .

ففي هذا الخبر نجد نور الدين يستغرق طويلا في التفكير في أمور رعيته ، ويخشى من الله جل وعلا أن يحاسبه على الظلم الذي يقع على أفراد رعيته من ولاته ، وهذا يعني أنه قد تحرى العدل في حكمه المباشر ، ولكنه يخشى أن لا يستقيم على ذلك ولاته ، فيكون مشاركا لهم فيما يقع منهم من ظلم ، فكان لذلك همه الكبير واستغراقه في التفكير ، وهذا يجعله في الطريق المستقيم نحو النجاة من عذاب الله تعالى والظفر بنعيمه .

وكان رحمه الله عظيم الشوق إلى الجهاد ، يحب أن يظل دائما مرابطا في سبيل الله تعالى ، وحينما ذهب إلى الموصل غادرها بعد عشرين يوما من دخولها عام ستة وستين وخمسمائة فقال له أصحابه : إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود ؟ فقال : قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت !! ويعنني أيضا أنني ههنا لا أكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد (٢) .

ويقول أبو شامة : سمعت ابن شداد يقول : بلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه - يعني نور الدين - كان أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلا بوجهه عليه ، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها . وكان كفار القدس يقولون : إن نور الدين له مع الله سر ، فإنه

(١) نور الدين محمود / ٧٥ نقلا عن الكواكب الدرية / ٢٥ .

(٢) نور الدين محمود / ٤٥ ، نقلا عن الباهر لابن الأثير ١٥٣-١٥٤ .

ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، والله يستجيب دعاءه ويعطيه سؤلّه وما يردّ يده خائبة فيظفر علينا (١) .

وهكذا كان اهتمام نور الدين موجهًا إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، فهو يسعد ببقائه في البلاد التي يعتبر نفسه فيها مرابطًا للجهاد ، ولا يحب البقاء في البلاد التي تحول بينه وبين الجهاد وإن كان في قرارة نفسه يحبها .

وفي الخبر الثاني تبين لنا سرّ من أسرار نجاح نور الدين في أكثر الحروب التي خاضها ، ولقد أدرك الأعداء هذا السر لأنهم لهم خلفية دينية ، فهم من أهل الكتاب وقد ورثوا من أنبيائهم عليهم السلام بيان أهمية الصلاة ودعاء الله عز وجل في حصول النصر ، فعزّوا سبب انتصار نور الدين الحربي إلى كثرة عبادته واتصاله بالله جل وعلا ، والحق ما شهدت به الأعداء .

ومما يبين اهتمام نور الدين بالدعاء أن أصحابه قالوا له يوما : إن لك إدارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فأجابهم غاضبا : والله إنني لأرجو النصر إلا بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلوات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأيته بسهام قد تخطئ وقد

(١) نور الدين محمود / ٤٥ عن الروضتين ٣٤ / ١ / ١ .

تصيب ؟ ! ثم إن هؤلاء القوم لهم نصيب من بيت المال أصرفه إليهم فكيف أعطيه لغيرهم ؟ (١) .

فهذا الخبر يدل على فهم السلطان نور الدين الشامل لمقاصد الإسلام ، وعلمه الراسخ بأسباب النصر الحقيقية ، فهو يجيب مستشاريه الذين أشاروا عليه بمنع المخصصات المالية عن العلماء والعباد وصرفها إلى الجهاد والمجاهدين . . يجيبهم بأن الصرف على أولئك المتقين إنما هو بالدرجة الأولى صرف على الجهاد لأن أولئك المتقين يملكون سلاح الليل الذي لا يملكه غيرهم من الغافلين ، ألا وهو الدعاء .

والدعاء المشروع إذا صدر من قلوب مخلصة مخبئة إلى الله تعالى فإنه يَمْضِي في الأعداء أشد من السيوف البواتر والسهام المسددة ، والقادة من أصحاب التوفيق المسدد من الله تعالى والفكر الثاقب والوعي العميق لا يُغفلون سلاح الدعاء ، بل يجعلونه في مقدمة عوامل النصر الحقيقية ، فيكثرون من الدعاء ، ويرغبون من الصالحين أن يدعوا لهم بالنصر على أعدائهم ، فيصلون بإذن الله تعالى إلى النتائج الباهرة من النجاح في مقاصدهم .

ومما يدل على اهتمام السلطان نور الدين بالاعتداء بسنة رسول الله ﷺ في الأمور الجهادية ما ذكره الشيخ أبو البركات : أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث ، فمرَّ أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلدا سيفاً ، فاستفاد نور الدين

(١) نور الدين / ١٠٩ ، نقلا عن الباهر ١١٨ ، والكامل لابن الأثير ٢٩٦/١١ .

أمرنا لم يكن يعرفه وقال : كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف !! يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم ، فلما كان من الغد مرَّ وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان ، فوقفنا ننظر إليه ، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك .

ويقول ابن قاضي شهاب في التعليق على هذه الحادثة : رحم الله هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة ، بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعا لما بلغه عن نبيه ﷺ ، فما الظن بغير ذلك من السنن ١٩ (١) .

هذا وإن الاقتداء بالنبي ﷺ في هذا الأمر الصغير من السلطان نور الدين يدلنا على كمال اقتدائه به في الأمور الكبيرة ، ومن هذا الخبر نلمح شدة اهتمام نور الدين بالعمل الصالح وتطبيق السنة ، فهو يستمع للدروس العلمية لآمن أجل متعة الفكر ولآمن أجل الذكر بين الناس ، وإنما ليستفيد العلم من أجل العمل ، وهذا هو منهج الصحابة رضي الله عنهم في طلب العلم وتعليمه .

* * *

(١) نور الدين محمود / ٨٩ نقلا عن الكواكب الدرية / ٤٠ - ٤١ .

٤ - جهاد أسد الدين شيركوه -

في عهد السلطان العادل نور الدين محمود كان للأمير أسد الدين شيركوه بن شادي الأيوبي في جهاد الصليبيين في مصر جهود طيبة .

وكان سبب ذلك - على ما ذكره المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وخمسمائة - أن شاور بن الخياط وزير العاضد لدين الله العبيدي صاحب مصر ، نازعه في الوزارة ضرغام وغلبه عليها ، فجاء شاور إلى نور الدين وطلب منه أن يمدّه بجيش يستعيد به وزارته في مقابل أن يكون تابعا له ويبيّث له ثلث دخل البلاد ، وأن يبقى أسد الدين عندهم بجيشه ، فشجعه على الاستجابة رغبته في التقوي على الصليبيين حينما يحيط بهم جيش من الشام وجيش من مصر ، وقد كان أسد الدين راغبا في ذلك لما عرف عنه من الشجاعة والإقدام ، فوجهه نور الدين إلى مصر ، فكانت مواجهةً بينه وبين ناصر الدين أخي ضرغام فانهزم ناصر الدين وعادت الوزارة لشاور ، إلا أن شاور غدر بأسد الدين ولم يف بشيء مما وعد به ، فانهز أسد الدين إلى بلبس ، وأرسل شاور إلى الصليبيين يستمدّهم ويخوفهم من نور الدين إن استولى على مصر ، فجاؤوا من بلاد الشام وأحاطوا بهم وجيش المصريين بأسد الدين في بلبس ، ولكنه استطاع أن يتحصن منهم بتلك المدينة رغم ضعف أسوارها ، وكان يخرج لقتالهم بجيشه ثم يتحصن ، وقد بقي على ذلك ثلاثة أشهر إلى أن بلغ الصليبين أن نور الدين قد استولى على قلعة حارم التي هي من أمنع حصونهم ، فطلبوا الصلح مع أسد الدين على أن يسلم ما بيده إلى المصريين ، ولم

يكن يعلم بما جرى لهم في الشام ، إضافة إلى أن الأقوات والذخائر
قلَّت عنده كثيرا .

قال ابن الأثير: وخرج من بليس في ذي الحجة ، فحدثني من رأى
أسد الدين حين خرج من بليس قال: أخرج أصحابه بين يديه ، وبقي
في آخرهم وبيده لَت من حديد، يحمي ساقاتهم، والمسلمون والفرنج
ينظرون إليه ، قال: فأتاه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر
(١) فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد
أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية !! فقال شيركوه: ياليتهم
فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله، كنت والله أضع السيف فلا يُقتل منا
رجل حتى يقتل منهم رجال، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين
وقد ضعفوا وفني شجعانهم فنملك بلادهم ونهلك من بقي .

قال الفرنجي : كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في
صفتك وخوفهم منك ، والآن فقد عذرناهم .

ثم رجع عنه وسار شيركوه إلى الشام فوصل سالما ، وكان الفرنج
قد وضعوا له في الطريق رسداً ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا ، فعلم بهم
فحاد عن ذلك الطريق ، ففيه يقول عمارة :

أخذتم عن الإفرنج كل ثنية

وقلت لأيدي الخيل مُرِّي على (مُرِّي)

لئن نصبوا في البر جسرا فإنكم

عبرتم ببحر من حديد على الجسر

(١) وهم الذين جاؤوا لزيارة بيت المقدس فاستعان به الصليبيون على القتال .

ولفظه (مَرِّي) في آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج (١).

فهذا الخبر فيه مثل من خيانة بعض أمراء المسلمين آنذاك ووزرائهم حيث كانوا يتحالفون مع الصليبيين ضد المسلمين ، وقد كان هؤلاء أشد بلاء على الأمراء المخلصين للإسلام من الصليبيين أنفسهم ، وهذا الوزير وأمثاله كانوا من حكام الدنيا ، ولم يكن يهمهم أمر الدين .

أما موقف أسد الدين فقد كان مجيدا حيث ثبت للصليبيين وحلفائهم من المسلمين ثلاثة شهور ، ولم يستسلم لهم ولم يطلب منهم الصلح .

وفي حواره مع ذلك الصليبي تصوير رائع لشجاعة المسلمين ، واستهانتهم بالمهالك في سبيل خدمة دينهم .

وفي آخر الخبر مثل من دقة الرصد الحربي عند المسلمين ، حيث أراد الأعداء إهلاك المسلمين أو إضعافهم بالكمين الذي وضعوه لهم ليأخذوهم على غرة ، ولكن طلائع المسلمين اكتشفوهم فسلكوا طريقا آخر ، وفوتوا على الصليبيين تلك الفرصة .

معركة البابين :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وستين وخمسمائة خبر مسير أسد الدين شيركوه إلى بلاد مصر حيث قال : فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الأول في جيش قوي ، وسير معه نور الدين جماعة من الأمراء ، فبلغت عدتهم ألفي فارس ، وكان كارها

(١) الكامل ٨٤/٩ - ٨٦ .

لذلك ، ولكن لما رأى جدَّ أسد الدين في المسير لم يمكنه إلا أن يُسير معه جمعا خوفا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الإسلام ، فلما اجتمع معه عسكره سار إلى مصر على البر وترك بلاد الإفرنج على يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية ، فقصده طفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، وتصرف في البلاد الغربية ، وحكم عليها ، وأقام نيفا وخمسين يوما .

وكان شاور [ابن الخياط] لما بلغه مجيء أسد الدين إليهم قد أرسل إلى الإفرنج يستمدهم فأتوه على الصعب والذلول طمعا في ملكها ، وخوفا أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين ، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم .

فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد ، فبلغ مكانا يعرف بالباين ، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فأدركوه بها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى .

قال ابن الأثير في سياق روايته : وكان [يعني أسد الدين] أرسل إلى المصريين والفرنج جواسيس فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجددهم في طلبه ، فعزم على قتالهم إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المقام الخطر الذي عَطَّبهم فيه أقرب من سلامتهم ، لقلّة عددهم وبُعدهم عن أوطانهم وبلادهم وخطر الطريق ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا -

وهو الذي يغلب على الظن - فالى أين نلتجئ وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ؟

فقام أمير من ممالك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعا . . . ثم ذكر كلامه في الحث على الثبات والإقدام على قتال الأعداء .

قال : فقال أسد الدين : هذا الرأي وبه أعمل ، وقال ابن أخيه صلاح الدين مثله ، وكثر الموافقون لهم ، واجتمعت الكلمة على القتال .

فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنجة وهو على تعبئة ، وجعل الأثقال في القلب يتكثر بها ، وجعل صلاح الدين في القلب ، وقال له ولمن معه : إن المصريين والفرنجة يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم أنني فيه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ، ولا تهلكوا نفوسكم ، واندفعوا قدامهم بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم ، واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ، ووقف بهم في المينة ، فلما تقابلت الطائفتان فعل الفرنجة ما ذكره وحملوا على القلب ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ، ومعهم الفرنجة ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معهم على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنجة ، الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر ، فلما عاد الفرنجة من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والأرض منهم قفرا فانهزموا أيضا .

وكان هذا من أعجب ما يُؤرَّخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر
وفرنج الساحل (١).

في هذا الخبر مثل من الشجاعة الفائقة والخطط الحربية الناجحة،
فقد صمد ألفان لجيش يفوقهم عدة أضعاف في العدد والعدد وتغلبوا
عليهم ، ولقد كان من أسباب هذا التفوق أن جيش أسد الدين كانوا
يقاتلون عن إخلاص لقضيتهم ، فكانوا يذلون قدرًا كبيرًا من
طاقاتهم.

ومن أسباب ذلك ما قام به أسد الدين من إعداد تلك الخطة
الحربية الرائعة التي فرقت قوة الأعداء وشلت من حركتهم ، فقد كان
لها الأثر الأكبر في انتصاره وخذلان أعدائه .

ولا يغبين عن البال أن الذين حضروا المعركة من المصريين كانوا من
النفعيين الذين رضوا بأن يقفوا مع الصليبيين في صف واحد ، أما
أهل الاستقامة فإنهم مبعدون عن إدارة الأمور والمشاركة في الحروب
لفساد الحكم آنذاك ، وما يدل على ذلك أنه لما توجه أسد الدين إلى
الاسكندرية ساعده أهلها وتسلمها بدون قتال ، لأنهم يتمنون حكمه
بدلاً من حكم عملاء الصليبيين ، وحينما حاصرها الصليبيون
وعملائهم صمد أهلها مع صلاح الدين ثلاثة أشهر وكان أسد الدين
قد أنابه عليها (٢).

ولقد كان للمسلمين المصريين الصادقين مواقف عالية في نصره

(١) الكامل ٩٤/٩ - ٩٥ .

(٢) الكامل ٩٥/٩ .

الإسلام والمسلمين ، فعلى يد جيشهم - بالدرجة الأولى - تم دحر التتار الذين عاثوا فساداً في بلاد الإسلام بقيادة قطز في معركة عين جالوت ، وبمشاركتهم الفعالة تم القضاء على الصليبيين في الشام بقيادة صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين .

ومع هذا الانتصار الكبير لأسد الدين فإنه قد رحل بجيشه عن مصر ، ولعل سبب ذلك قلة جيشه حيث لا يمكن من إبقاء حوامي في البلاد التي يستولي عليها ، لكنه عاد بجيشه بعد ستين إلى مصر لما قوي أمر الصليبيين فيها ، وكانوا قد أبقوا بعض شجعانهم في مصر يشرفون على الحكم فيها ويتولون جباية الأموال المقررة لهم على أهل مصر ، وقد حكموا على المسلمين حكماً جائراً وأذوهم أذى شديداً .

ولما رأى هؤلاء النصارى ضعف الحكم في مصر كاتبوا أمير النصارى في الشام وهو « مَرِي » وهو من أشدهم شجاعة ومكرًا ودهاء ، فزينوا له غزو مصر لخلوها من المدافعين عنها ، وقد فهم لدهائه أن ذلك خطر على النصارى في الشام ، لأن ذلك يُحرّض نور الدين عليهم ، وأنه لو أرسل أسد الدين إليها لكان هلاك النصارى في الشام لأن نور الدين سيغزوهم من الشمال والشرق وأسد الدين سيغزوهم من الجنوب ، ولكنه لم يستطع إقناع كبراء دولته الذين أصرّوا على غزو مصر بحجة أنهم سيملكونها قبل أن يتحرك نور الدين . وَجَدَ النصارى في السير إلى مصر ، واستولوا على بعض بلادها ، وكان أمير مصر العاضد العبيدي ، ووزيره شاور وهو الذي بيده الحكم .

وأرسل العاضد إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع النصارى ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهم من الفرنج ، فشرع في تسيير الجيوش وكان قبل ذلك قد علم بتحرك الفرنج فبدأ يضم جيوشه إليه .

أما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على أهلها ، فراسلهم شاور وذكر للملك الفرنج مودته لهم وخوفه من أن يقدم جيش نور الدين فيستولي على مصر ، واتفقا على الصلح على أن يدفع شاور للفرنج ألف ألف دينار ويرجعون إلى بلادهم ، فاستطاع أن يعطيهم مائة ألف واستمهلهم في البقية حتى يجمعه من الناس ولكنه لم يستطع ذلك لأنه كان قد أحرق بلادهم حتى لا يستولي عليها الفرنج فذهبت أموالهم .

وقد توالى كتب أهل مصر إلى نور الدين يستمدونه ويطلبون منه إنقاذهم من الصليبيين ، فبعث إلى أسد الدين ليولّيه على جيش مصر وكان في حمص حيث كان واليا عليها ، فما شعر به نور الدين إلا وهو على أبواب حلب ففرح نور الدين بقدومه وتفاءل من ذلك ، وكان أسد الدين قد وصلتته أيضاً كتب استغاثة من مصر ، فأمر نور الدين بتجهيز الجيش ، وأعطى أسد الدين مائتي ألف دينار للإنفاق على الجيش سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك ، وأعطاه حرية التصرف في إدارة الجيش ومواجهة الأعداء ، واختار من العسكر ألفي فارس إلى جانب ستة آلاف من غيرهم ، وبعث معه نور الدين

عددًا من الأمراء ، ومنهم صلاح الدين بن يوسف ابن أخي أسد الدين وكان صلاح الدين كارها لذلك المسير لما واجهه من الأهوال حينما حوَّصر في الإسكندرية ، ولكن نور الدين ألزمه بالمسير مع عمه .

وسار أسد الدين مُجدًا مُتصِفَ شهر ربيع الأول ، من عام أربعة وستين وخمسمائة ، فلما قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم بخُفْيٍ حين خائبين ، وسمع بذلك نور الدين وفرح به وأمر بضرب البشائر في البلاد ، واعتبر رحيلهم فتحًا وهزيمة كبرى لهم .

ووصل أسد الدين إلى القاهرة واجتمع بأمرها العاضد وفرح به أهل مصر .

أما شاور بن الخياط وزير حاكم مصر فإنه ساءه مجيء أسد الدين شيركوه وعزم على دعوته ثم القبض عليه ، فنهاه ابنه الكامل وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ شيركوه ، فقال له أبوه : والله لئن لم نفعل هذا لنُقتلَنَّ جميعًا ، فقال : صدقت ولأن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نُقتل وقد ملكها الفرنج ، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارسًا واحدًا ويملكون البلاد ، فترك شاور ماكان عزم عليه .

ولعل أمراء أسد الدين عرفوا بما عزم عليه شاور فعزم بعضهم على قتله وعلى رأسهم صلاح الدين فنهاهم عن ذلك أسد الدين ، ولكنهم ظلوا على عزمهم ، وانتهزوا فرصة مجيئه مع حاشيته يسأل عن أسد الدين فأخبروه أنه ذهب لزيارة قبر الإمام الشافعي فسايره صلاح الدين

ومن معه وألقوه عن فرسه وهربت حاشيته فأخذوه أسيراً ولم يمكنهم قتله إلا بعد إذن أسد الدين فحضر ولم يمكنه إلا إتمام مابدؤوا به .

وسمع بذلك أمير مصر العاضد فطلب رأس شاور وتابع الرسل في ذلك فقتل وأرسل إليه رأسه في السابع عشر من ربيع الآخر، وتجمهر الناس فأمرهم العاضد بنهب دار شاور فانتهبوها .

وسار أسد الدين إلى قصر العاضد فقلده الوزارة ولقب المنصور أمير الجيوش ، وصار هو صاحب الأمر والنهي في مصر، ولكنه لم يمهل طويلاً حيث توفي في يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام (١) .

ففي هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولاً : أن الحاكم الصالح يحفظ الله تعالى به البلاد والعباد، ويحميهم بحسن تديره من شرور الأعداء ، ويتحقق على يديه الأمن والرخاء ، وذلك لأنه يختار لمؤازرته وتدبير أموره أهل الاستقامة والشجاعة والرأي السديد ، فيستخلص أفضل عناصر الأمة ليكونوا هم الذين يدبرون أمورها ويحمونها ، ففي السلم أمن ورخاء ، وحماية للضعفاء من ظلم الأقوياء ، فإذا دهم العدو البلاد قام الرجال الأكفاء لحمايتها وقدّوا أمتهم بأرواحهم وأموالهم .

أما الحاكم النفعي الذي لا يهتم إلا بمصالحه الخاصة فإنه يخشى من أهل الكمال والفضل لأنهم لا يوافقونه على تجاوزاته ، فيقرب النفعيين من أمثاله الذين لا يهتمهم إلا بمصالحهم ، ويستوي عندهم أن يحكمهم

(١) الكامل لابن الأثير ٩٩/٩ - ١٠١ .

حاكم مسلم أو كافر، ففي السلم ظلم واعتداء على الأمنين، وتسلب من الأقوياء على الضعفاء ، فإذا دهم البلاد عدو فإن هؤلاء النفعيين لا يستطيعون حمايتها لأنهم متفرقون حيث لا يجمعهم هدف واحد مشترك ، بل هدف كل واحد منهم تأمين مصالحه الخاصة .

وهكذا كان وضع بلاد مصر في ذلك الزمن ، حيث استولى عليها الصليبيون دون مقاومة .

هذا الشعب العظيم الذي لم يستطع حماية بلاده من الصليبيين هو الذي كان له إسهام كبير في القضاء على الصليبيين في الشام بعد سنوات معدودات ، وكان الفارق بين الأمرين هو تغيير السلطة الحاكمة، حيث انتقلت إدارة البلاد من العبيديين إلى الأيوبيين، وذلك بما قام به صلاح الدين الأيوبي من إبعاد النفعيين وتقريب أهل الكفاءة والأمانة .

ثانيًا : من حسنات نور الدين محمود أنه اختار أسد الدين شيركوه الأيوبي لقيادة جيوشه في عدة وقائع مع الصليبيين ، وكان شجاعًا مقداما ، ومع ذلك فإنه كان ذا رأي حصيف في تدبير الحروب، وقد طارت له سمعة عالية بين أعداء الإسلام من النصارى حتى صار اسمه مرعبا لهم ، ولا أدل على ذلك من قول الكامل بن شاور إنك إذا قبضت على شيركوه عاد الفرنج واستولوا على البلاد، فقد كان معلوما لدى المجتمع آنذاك أن جلاء الفرنج من مصر كان بسبب رعبهم من أسد الدين لشجاعته وطاعة جيشه له .

ثالثًا : موقف جليل للكامل بن شاور حيث نهى أباه عن تدبير

خطة للقبض على أسد الدين شيركوه وأبان له بأن مصلحة مصر
والإسلام في بقاء أسد الدين حتى لا يرجع الصليبيون إلى مصر،
وهذا يدل على إخلاصه للإسلام ولأُمته .

* * *

٥ - جهاد صلاح الدين الأيوبي -

هو صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي ، ولد بتكريت في
لعراق ، وانتقل به أبوه إلى الشام حيث أصبح أبوه من أمراء نور الدين
محمود ، ثم أصبح صلاح الدين من قادته وشارك عمه أسد الدين
شيركوه في القضاء على الصليبيين والعبيديين في مصر ، إلى أن آل إليه
حكم مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه .

ولما توفي السلطان نور الدين محمود صار بين صلاح الدين وأبناء
ور الدين نزاع حتى آل الأمر إلى ظهور صلاح الدين وشملت سلطنته
مصر والشام والجزيرة وغيرها .

وكان رحمه الله عادلاً كريماً حليماً صبوراً على ما يكره ، ومن
خبر رده وكرمه أنه مات ولم يخلف إلا ديناراً وأربعين درهماً ، مع
سعة سلطانه (١) .

نزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة :

ذكر المؤرخ ابن الأثير أن صلاح الدين الأيوبي سار في عام ستة
ستين وخمسمائة من مصر وأغار على أعمال عسقلان وغزة وأتاه
ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم
هزمهم ، وأفلت ملك الفرنج بعد أن كاد أن يؤخذ أسيراً .

(١) الكامل ١٠٢/٩ ، ١٣٠ ، ٢٢٥ ، وكانت إمرته على مصر بعد وفاة عمه أسد الدين
شيركوه ، وذلك في عام أربعة وستين وخمسمائة وذلك في أواخر حكم العاضد
الحاكم العبيدي الذي كان حاكماً بالاسم فقط ، ثم ضم صلاح الدين إلى حكمه الشام
وغيرها بعد وفاة نور الدين إلى أن توفي في عام تسعة وثمانين وخمسمائة .

وعاد صلاح الدين إلى مصر فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعاً على الجمال في البر ، وقصد أيلة ، فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر ، وحصر أيلة براً وبحراً وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر (١) .

موقف لأهل الإسكندرية في صد حملة صليبية :

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة سبعين وخمسمائة أن أسطولاً بحرياً خرج من صقلية لغزو مصر ، وهو مكون من مائتي سفينة تحمل الرجال وست وثلاثين تحمل الخيل ، إضافة إلى ستة مراكب كبار تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الأرواد ، وأن عدد المقاتلين خمسون ألفاً من الرجال وألف وخمسمائة من الفرسان ، وكانت تلك الحملة بقيادة ابن عم صاحب صقلية ، فوصلوا إلى الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة عام تسعة وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها وطمأنينة .

فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوا من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ، ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة ، وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات ، وقاتلوا أشد قتال ، وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم مارأعهم .

وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو

(١) الكامل ٩ / ١١٠ .

عنهم ، ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور ، ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر ، فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته، ولم يزل القتال إلى آخر النهار ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثر القتل والجراح في رجالتهم .

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره، وسير مملوكا له ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها إلى الإسكندرية يشر بوصله، وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفا عليها واحتياطا لها، فسار ذلك المملوك فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله .

وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسقط في أيديهم وزادوا تعباً وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى

خيامهم فغنموا بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة ، وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب ، وغرق بعضهم ، وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هارين ، واحتفى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم (١) .

في هذا الخبر صورة جيدة للحروب الدفاعية الناجحة ، حيث استطاع أهل الإسكندرية بمعونة بعض أهل القرى المجاورة لهم أن يصدوا حملة بحرية كبيرة مجهزة بأقوى وأضخم العتاد الحربي .

ولقد كان أهل الإسكندرية في غاية الشجاعة والإقدام حينما خرجوا لقتال جيش يفوقهم كثيرا في العدد والعدد ، ولقد أجادوا الخطة الحربية حينما باغتوا العدو وهم آمنون ، حيث لم يكن الأعداء يتوقعون أن أهل الإسكندرية يستطيعون مقاومتهم أو يتجرؤون على الخروج لقتالهم .

ونجد في هذا الخبر موقفا فدائيا في غاية الروعة حينما غاص في البحر بعض المغاوير من المسلمين وخرقوا بعض سفن الأعداء من تحتها فغرقوها ، فهذه عملية في منتهى الخطورة لما يتوقع من هجوم الأعداء بسلاح الرماية من فوق السفن .

(١) الكامل في التاريخ ١٢٩/٩ - ١٣٠ .

وهكذا استطاع هؤلاء الأبطال من المسلمين أن يشرّدوا حملة بحرية كبيرة كان الأعداء قد خططوا لها ليستولوا بها على مصر بعد أن أبادوا كثيراً من جنودها وعدداً كبيراً من الأسلحة الثقيلة ووسائل النقل .

وفي هذا الخبر مثل من تطبيق المسلمين لجهاد الفرض العيني ، وذلك فيما إذا دهم العدو دار الإسلام ، فإن الجهاد يجب على كل قادر في ذلك البلد ومن حوله حتى تحصل الكفاية في صد الأعداء .
موقعة حطين (١) :

خرج صلاح الدين من مصر إلى الشام ومعه جيش من مصر ومن قدموا معه من الشام ، فلما وصل أرسل إلى بقية أطراف الشام وإلى المشرق يطلب اجتماع الجيوش لغزو الصليبيين ، فاجتمع لديه اثنا عشر ألف فارس من الجند الذين يتقاضون الرواتب سوى المتطوعة ، وذلك في عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة .

واستشار صلاح الدين أمراءه في كيفية قتال الأعداء ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يُضعف الصليبيين بشن الغارات وإخرااب الولايات مرة بعد مرة ، فقال صلاح الدين : الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ، ولانعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد والجهاد .

ثم سار بجيشه حتى خلف طبرية خلف ظهره ، وتقدم حتى قارب

(١) هي قرية قرب طبرية وقعت حولها المعركة .

الصلبيين وهم في خيامهم لم يفارقوها، فأمر العسكر بالنزول، فلما جئ الليل جعل في مقابل الصليبيين من يمنعهم من القتال، وسار بطائفة من الجيش إلى طبرية وقاتل أهلها ونقب بعض أبراجها، وأخذ المدينة عنوة في ليلة، ولجأ من بها إلى القلعة التي لها فامتنعوا بها، وفيها أميرتها النصرانية ومعها أولادها .

فلما سمع الصليبيون بذلك اجتمعوا للمشورة فاستقر رأيهم على التقدم لقتال المسلمين، وهذا هو الذي أراد صلاح الدين من مهاجمة طبرية، وتقدموا حتى قربوا من معسكر المسلمين .

فلما سمع بذلك صلاح الدين عاد من طبرية، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء، والزمان قيظ شديد الحر، فوجد الصليبيون العطش، ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين، وكانوا قد أفنوا ما هناك من الصهاريج، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم .

أما المسلمون فإنهم باتوا يحرض بعضهم بعضا، وقد وجدوا ريح النصر والظفر، وكلما رأوا الصليبيين على خلاف عاداتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم، فأكثروا التكيير والتهليل طول ليلتهم، وكان السلطان صلاح الدين قد عبى جيشه ونظمه وجعل الرماة في المقدمة .

يوم المعركة :

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، فركبوا وتقدموا إلى الصليبيين، فركب الصليبيون ودنا بعضهم

من بعض ، وأمر السلطان الرماة أن يرشقوا الأعداء بنبالهم ، وتبارز الشجعان ، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة فحمل المسلمون على أعدائهم فاقتتلوا أشد قتال، وصبر الفريقان ، وأثخن رماة المسلمين في الأعداء فقتلوا كثيرا من خيولهم .

وتوجه الصليبيون نحو طبرية لعلهم يرذون الماء، فلما علم صلاح الدين بمقصدهم صدهم عن مرادهم ، ووقف بالعسكر في وجوههم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم، والناس مطيعون له .

وقد حمل مملوك من ممالك صلاح الدين على الأعداء حملة قوية فقاتل قتالا عجب منه الناس، ثم تكاثر الأعداء عليه فقتلوه ، فعند ذلك حمل المسلمون حملة قوية ضعضعوا بها الكفار وقتلوا منهم كثيرا .

ولما اشتد القتال عليهم أدرك « القمص » حاكم طرابلس أنه لا طاقة لهم بقتال المسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم، وكان المقدم في تلك الناحية تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين، فأدرك أنهم منهزمون يريدون الفرار فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه .

فلما انهزم القمص فت ذلك في أعضادهم وكادوا يستسلمون ، ثم علموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ، فحملوا حملات متوالية كادوا يزيلون المسلمين - على كثرتهم - عن مواقفهم لولا لطف الله تعالى بهم .

وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض نارا وكان الحشيش

كثيراً فاحترق ، وكانت الريح فحملت حر النار والدخان إلى الأعداء ،
فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال .

ولم ينفع الأعداء إقدامهم ومحاولة كسب المعركة لأنهم في كل
حملة يفقدون عدداً كبيراً منهم لشدة ثبات المسلمين وبسالتهم ، فوهن
الأعداء لذلك وهنا عظيم ، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة
بقطرها ، فارتفع من بقي منهم إلى تل بناحية حطين ، وأرادوا أن
ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر
الجهات ، ومنعهم المسلمون عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة إلا
خيمة ملكهم .

وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم ، الذي يسمونه صليب
الصلبوت ، ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح
عليه السلام بزعمهم ، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم ،
وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك .

وقد واجه المسلمون مقاومة عنيفة من الصليبيين ، يقول الأفضل
ابن صلاح الدين الأيوبي : كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ،
وهو أول مصافٍ شاهده ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك
الجماعة حملوا حملة منكراً على من يراهم من المسلمين حتى
ألقوهم بوالدي ، قال : فنظرت إليه وقد عكته كآبة واربد لونه
وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان ، قال : فعاد
المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج
قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي : هزمناهم ، فعاد

الفرننج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بالوادي، وفعل مثل ما فعل أولا ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا أيضا هزمناهم ، فالتفت والدي إلي وقال : اسكت ، مانهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي إذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى فبكى من فرحه ، وكان سبب سقوطها أن الفرننج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرياط صاحب الكرك ولم يكن في الفرننج أشد منه عداوة للمسلمين، وأسروا أيضا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية ، وكان من أعظم الفرننج شأنا .

وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين وانهزام ساحق للصليبيين، وقد كثر فيها القتلى والأسرى منهم حتى إن من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا ، وما أصيب الفرننج منذ خرجوا إلى الساحل سنة إحدى وتسعين وأربعمائة بمثل هذه الواقعة ، وقد بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفا وبلغ عدد الأسرى منهم ثلاثين ألفا .

فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده والبرنس صاحب الكرك ، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب وأعطى فضله البرنس

صاحب الكرك، فشرب ، فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أمانني ، ثم كلم البرنس وقرّعه بذنوبه وعدّد عليه عوراته ، ومن ذلك أنه سب الرسول ﷺ ، وعزم على غزو مكة والمدينة ، وقتل الحجاج غدرا ، وكان صلاح الدين قد نذر مرتين أن يقتله إن ظفر به ، فقام إليه بنفسه فقتله ، فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت فرائص ملك الصليبيين فسكن السلطان جأشه وأمنه (١).

هذه المعركة العظيمة تعتبر من المعارك الفاصلة في حياة المسلمين ، حيث ترتب عليها فتح القدس وكثير من المدن والحصون التي كان الصليبيون قد استولوا عليها .

وهذا اللقاء الكبير هو الذي كان يخطط له نور الدين محمود حينما بذل جهودا كبيرة في توحيد بلاد الشام ومصر حيث كان لا يستطيع في بلاد الشام وماجاورها أن يجمع نصف هذا الجيش ، فكانت كل حروبه تقليصا لوجود الصليبيين وإضعافا لهم ، ولكن حينما انضمت مصر إلى سلطنته خطط لحرب شاملة يطوق بها الصليبيين من الشمال والجنوب ، ولكن وافته المنية قبل أن يتم ذلك ، فاستثمر صلاح الدين تلك الجهود الكبيرة وأكمل مابدأه نور الدين ، وكانت على يديه هذه المعركة الكبيرة الفاصلة .

وقد ظهرت لصلاح الدين وجيشه مواقف عالية ، منها أولا : رأيه في مواجهة الأعداء الذي خالف فيه قاداته حيث كان رأيهم تفريق

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٧٦/٩ - ١٧٩ .

والبداية والنهاية لابن كثير ٣٤١/١٢ - ٣٤٣ .

الجيش في سرايا تهاجم حصون الأعداء حتى يتم إضعافهم، بينما كان رأيهم مواجهة جمع الأعداء بجمع المسلمين، فكان رأيهم أسد من آرائهم وأعظم نفعا للمسلمين ونكاية في أعدائهم.

ثانيًا : إغارته على طبرية ليلجئ الأعداء إلى مغادرة مكانهم ومواجهته في المكان الذي أراد أن تكون المعركة فيه، فكان له ما أراد، وكان ذلك من عوامل انتصار المسلمين واندحار أعدائهم.

ثالثًا : أن أفراد الجيش الإسلامي ظلوا طوال ليلة المعركة يكبرون الله تعالى ويهللون، وقد جاء في بعض الأخبار أن صلاح الدين كان يتفقد جيشه تلك الليلة فوجدهم مابين ذاكر ومصل وتال لكتاب الله تعالى ماعدا أصحاب خيمة واحدة وجددهم نياما، فقال : إن أئينا غدا فإنما سنؤتي من هذه الخيمة فأيقظ أهلها وسرحهم إلى دمشق.

وهذا يدل على وعي السلطان صلاح الدين وفهمه الثاقب لعوامل النصر الأساسية، كما يدل على صلاح أفراد ذلك الجيش الذي تم على يده النصر الحاسم للإسلام والمسلمين.

رابعًا : في تلك المعركة انتصر المسلمون على عدو يبلغ أضعافهم، حيث جاء في نهاية خبر المعركة أن عدد قتلى الصليبيين ثلاثون ألفا وعدد أسراهم ثلاثون ألفا، وقد استطاع ثلاثة آلاف منهم الفرار، وهذا يعني أنهم كانوا ثلاثة وستين ألفا، بينما كان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفا سوى المتطوعين الذين لم يذكر عددهم، والظاهر أن عددهم قليل لا يلفت النظر إذ لو كانوا كثيرين لكان هناك اهتمام ببيان عددهم، فالمسلمون إذا واجهوا أضعافهم، إضافة إلى

عامل مهم ظاهره أنه لصالح المسلمين وحقيقته أنه لصالح الأعداء ، وهو كون الأعداء قد حيل بينهم وبين الماء ، وليس بينهم وبينه إلا جيش المسلمين ، وهذا عادةً يكون دافعا إلى استماتة المقاتلين وإقدامهم ليخترقوا صفوف أعدائهم حتى يصلوا إلى الماء ، وقد كان ذلك من الصليبيين ، ولكنهم وُجِّهوا بثبات قوي وبسالة عالية من المسلمين ، حيث استطاعوا صد هجماتهم وإعادتهم إلى الوراء أكثر من مرة .

وقد جرى على المسلمين قديما - بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه - موقف مشابه ، حيث واجهوا أعداءهم وليس معهم ماء وكان الأعداء على الماء ، فشكى المسلمون هذا الأمر لخالد فأفادهم بأن الماء سيصير لأصبر الفريقين ، وصار للمسلمين الذين صبروا وهزموا أعداءهم من الفرس .

خامساً : من المواقف العالية للسلطان صلاح الدين الأيوبي أنه لما حمل الأعداء حملة شديدة على المسلمين وتراجع المسلمون حتى لحقوا به قال : « كذب الشيطان » فهذا دليل على أنه لم يعتمد على الأسباب المادية وإنما كان حاضر القلب مع الله تعالى مدركا أنه هو ولي المؤمنين وأن الشيطان ولي الكافرين ، فهو بهذا الكلام يدحر الشيطان الرجيم الذي يفرح بما ينال المسلمين من هزيمة ، ويشعره بأن ظنونه كاذبة وأن ما حصل للمسلمين إنما هو أمر عارض ، وأن المسلمين سيثبتون وستكون نهاية المعركة لصالحهم .

إن أول ماتبادر إلى ذهنه من هول ذلك المشهد هو دحر الشيطان وتكذيب ظنونه ، وهذا يعني أن فكره مرتبط برجاء نصر الله تعالى

وتأييده ، ليخيب ظن الشيطان وجنوده ، وهذا يكشف لنا عاملا مهما من عوامل نجاح السلطان صلاح الدين في إقامة دولة كبرى تحكم بالإسلام وتتحاكم إليه وتنصره وتدافع عنه .

فتح بيت المقدس :

كان فتح بيت المقدس هو الهدف الأعظم من كل الجهاد الذي قام به السلطان نور الدين محمود ومن بعده السلطان صلاح الدين الأيوبي .

ولقد كان من براعة صلاح الدين وتخطيطه الحربي العبقري أنه بدأ بالاستيلاء على المدن الساحلية التي بيد الصليبيين حتى لا تكون محطات لنزول حملة صليبية جديدة ، ولقد كان الاستيلاء على بيت المقدس من قبل المسلمين أمراً كبيراً على النصارى في العالم ، فقد كان هناك احتمال أن يقوم المنكوبون في حطين بطلب النجدة من الممالك الأوربية ، فبدأ صلاح الدين بأقرب بلد إليه وهي طبرية فاستولى عليها ، ثم فتح مدينة عكا بعد حصارها والصلح مع أهلها ثم راسل أخاه العادل نائبه على مصر ليغزو المدن الساحلية القريبة منه ففتح «مجدل يابا» و « يافا » .

ثم فرق صلاح الدين عسكره مدة إقامته بعكا ، ففتح قاداته الناصرة وقيسارية وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلدان المجاورة لمدينة عكا .

ثم تولى صلاح الدين فتح مدينة بيروت وصيدا وتبنين وجبيل ، وبقي من المدن الساحلية الشمالية مدينة صور التي تجمع بها أكثر من

خرجوا من بلادهم من النصارى وولّوا أمرهم « المريكش » أحد التجار القادمين عليها ، فكان أمرها يحتاج إلى مرابطة طويلة فتركها صلاح الدين حتى لا تشغله عن فتح بيت المقدس .

وقد رجع السلطان جنوباً إلى القدس ولكنه قدّم عليها عسقلان فحاصرها بعد أن التقى بأخيه العادل نائبه على مصر ومعه جيش من مصر ، ففتحها صلحاً بعد حصار دام أربعة عشر يوماً ، ثم بث السرايا ففتح غزة والرملة والداروم وغيرها (١) .

ولما تم فتح ماحول القدس وتم تأمين الساحل توجه السلطان صلاح الدين بجيشه نحو بيت المقدس وكان بها جمع كثيف من النصارى إلى جانب من لجأ إليها من موقعة حطين ومن عسقلان وغير ذلك ، وكانوا جميعاً يرون الموت أهون من أن يملك المسلمون بيت المقدس وحصنوا سوره ونصبوا عليه المجانيق ليمنعوا من يريد الدنو منه ، وصعدوا على سوره بحدّهم وحديدهم وقد عزموا على حفظه والذب عنه .

وقد وصل جيش المسلمين إلى القدس في منتصف رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فرأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم ، وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج داخل المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع .

وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتل لأن السور في غاية التحصين ، فلم يجد عليه موضع قتال إلا

(١) الكامل في التاريخ ١٧٩/٩ - ١٨٢ .

من جهة الشمال ، فانتقل إلى هذه الجهة ونصب المنجنيقات ، وبدأ القتال بالرمي من الطرفين ، وتقاتلوا أشد قتال رآه الناس ، كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً حتماً واجباً فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني .

وكان خيالة الأعداء يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون ، فيُقتل من الفريقين ، وعمن استشهد الأمير عز الدين عيسى ابن مالك ، وهو من أكابر الأمراء وكان أبوه صاحب قلعة جعبر ، وكان يقاتل بنفسه كل يوم ، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقعهم فأدخلوهم إلى القدس .

ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوروه والتصقوا بالسور فنقبوه ، وزحف الرماة يحمونهم ، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ، حتى يتمكن المسلمون من نقب السور ، فلما نقبوه حشوه بالمواد وفجروه فسقط السور والبرج الذي عليه .

فلما رأى ذلك الفرنج اجتمع مُقدّموهم فتشاوروا واجتمع رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس لصالح الدين ، فأرسلوا جماعة من أعيانهم في طلب الأمان فامتنع السلطان من إجابتهم وقال : لا أفعل بكم إلا ما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة من القتل والسبي ، وجزاء سيئة بمثلها .

فلما رجعت رسلهم خائبين لم يظفروا بالصلح أرسل كبيرهم يالان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في أمر

الصلح فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب في الأمان فلم يجبه واستعطفه فلم يعطف عليه ، فلما أيس من ذلك قال له : أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمه إلا الله تعالى ، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنا منهم أنك تجهيهم إليه كما أجبته غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة ، فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغتمون منها ديناراً واحداً ولأدرهما ، ولا تسبون ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة ، وإذا فرغنا من ذلك خربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه ، وحيث لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ، وغوت أعزاء أو نظفر كراما .

فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان ، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج ، فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنائير يستوى فيه الغني والفقير ويؤخذ من المرأة خمسة دنائير ومن الطفل ذكراً أو أنثى ديناران ، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجح ، ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا .

فبذل ياليان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، فأجيب إلى ذلك وسلّمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وكان يوماً مشهوداً ورُفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها .

ودخل صلاح الدين المسجد الأقصى فأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس ، ففعل ذلك ، وأمر أن يُعمل له منبر فقيل له : إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصنائع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه ، وقال : هذا عَمَلُنَاهُ لِنُصَبَ بِالْبَيْتِ المقدس ، فعمله النجارون في عدة سنين ، ولم يعمل في الإسلام مثله ، فأمر بإحضاره فحُمِلَ من حلب ونُصِبَ بالقدس ، وهذا من حسنات نور الدين وبعدهمته وطموحه رحمه الله تعالى (١) .

وهكذا فُتِحَ بيت المقدس للمرة الثانية في الإسلام وقد حاز شرف المرة الأولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وحاز شرف الثانية السلطان صلاح الدين الأيوبي وهو شرف كبير أن يُقرن الثاني بالأول .

ومن المواقف الجليلة في هذا الحصار إقدام أبطال المسلمين على الزحف إلى سور المدينة وتجاوزهم الخندق الذي وضعه الأعداء لحمايتهم ، ثم قيامهم بنقب السور مع كثرة الرماة الذين هم فوق السور ، وإقدام هؤلاء الأبطال تم فتح بيت المقدس وانتصار المسلمين .

وبعد هذه الرحلة الجهادية التي تم فيها الانتصار الحاسم على الصليبيين في حطين وفتح بيت المقدس وعدد من المدن والقلاع . . بعد ذلك عاد صلاح الدين إلى دمشق ليستريح جيشه ثم يواصل الجهاد بعد ذلك ، وكتب إلى البلاد جميعا باجتماع العساكر بدمشق .

ولما عاد إلى دمشق وجد وكيل الخزانة الصفيّ بن الفايض قد بنى

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٨٢ - ١٨٥ ، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٤ - ٣٤٧ .

له داراً بالقلعة هائلة مطلّة على الشرف القبلي، فغضب عليه وعزله وقال: إنا لم نُخلّق للمقام بدمشق ولا بغيرها من البلاد، وإنما خلقنا لعبادة الله عز وجل والجهاد في سبيله، وهذا الذي عملته مما يثبط النفوس ويُقعدّها عما خلقت له (١).

وهكذا نرى السلطان صلاح الدين يسمو عن متطلبات النفوس القريبة، إلى متطلبات النفوس الطموحة العالية.

إنه لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار وهو يرى بقايا الصليبيين مازالوا في بلاد الإسلام.

فكيف يسعد بالإقامة في القصر المنيف والجنان الوارفة وعُباد الصليب ينتهكون بلاد الإسلام ويُدُلُّون المسلمين ١٩

إن الإقامة في القصور والنعيم تعتبر بالنسبة لهذا البطل الطموح سجنًا للقلب الحي، وإعاقة للفكر الثواب.

إنه لا يسعد بسماع لحن مطرب ولا كلام مُعجب، ولا ثناء منمّق، ولا تستجيشه رؤية القصور المنيعة وما تحتوي عليه من شهوات ونعيم، وإنما يسعد بسماع صهيل الخيل، وقعقة السلاح، ومقارعة الأقران، والنصر المؤزر على الأعداء.

فلذلك غضب على وكيل الخزانة الذي قصرت همته، وتَدانَى طموحه إلى بناء قصر يستقبل به السلطان.

أو ليس خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول: ماليلة تُهدى إليّ

(١) البداية والنهاية ٣٥١/١٢.

فيها عروس أنالها محبٌ بأحب إلي من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد
أصبح فيها العدو بسرية من المهاجرين !

إنه وأمثاله سلف صالح عظيم لخلف مبدع طموح من أمثال هذا
السلطان الكبير .

فتح قلعة برزية :

قام صلاح الدين برحلة جهادية نحو الساحل الشمالي للشام
وذلك في عام أربعة وثمانين وخمسمائة حيث فتح بعض المدن والقلاع
الحرية . فمن هذه القلاع قلعة « برزية » وكان أهلها يقطعون الطريق
على المسلمين ويبالغون في أذاهم ، فوصلها في الرابع والعشرين من
جمادى الآخرة ، ونزل غريبها ، وهي الجهة التي يمكن قتالها منها ،
وليس معه إلا قلة من جيشه لضيق مسالكها ، ونصب المسلمون
المنجنيقات ، ونصب أهل القلعة منجنيقا أبطل منجنيقات المسلمين لعلو
مكانه ، فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به عزم على
الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه ، فقسَّم عسكره ثلاثة أقسام ، يزحف
قسم فإذا تعبوا عادوا ، وزحف القسم الثاني ، ثم الثالث ، ثم يدور
الدور مرة أخرى حتى يتعب الفرنج حيث إنهم لم يكن عندهم من
الكثرة ما ينقسمون كذلك فإذا تعبوا سلّموا القلعة .

فتقدم القسم الأول وزحفوا إلى الأعداء ، وخرج الفرنج من
حصنهم فدافعوا وكان يساعدهم ارتفاعهم فكانوا إلى جانب السلاح
يدحرجون الحجارة الكبيرة على المسلمين ، فلما تعبوا نزلوا وخلفهم
القسم الثاني وكان الزمان حراً فاشتد الكرب على الناس ، وكان صلاح

الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقي الدين أخوه كذلك ، وكانت تلك نوبة القسم الخاص بصلاح الدين ، فقاتلوهم إلى الظهر ، ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم إليهم وردّهم وصاح بالقسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبّين وساعدوا إخوانهم ورحفوا معهم ، وجاء الفرنج مالا قبل لهم به ، وكان أصحاب القسم الأول قد استراحوا فقاموا أيضاً معهم ، فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر ، فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح فخالطهم المسلمون فدخل الفرنج حصنهم فدخل معهم المسلمون .

وكان طائفة قليلة من المسلمين في الخيام شرقي الحصن فأروا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لا يروا فيه مقاتلا . وليكثروا في الجهة التي فيها صلاح الدين ، فصعدت تلك الطائفة من العسكر ، فلم يمنعهم مانع ، فصعدوا أيضاً الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج ، فملكوا الحصن عنوة ودخل الفرنج «القلّة»^(١) التي للقلعة وأحاط بهم المسلمون، وأرادوا نقبها، وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلعة وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب، فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبروا في سطح القلعة، وظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا إلى السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر فملكها المسلمون عنوة، وأخذوا مافيها وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله .

ذكر ذلك المؤرخ ابن الأثير وكان قد حضر ذلك الحصار ثم قال :

(١) يعني أعلى القلعة وهو مكان محصّن .

ومن أعجب ما يُحكى من السلامة أنني رأيت رجلا من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالي القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبي القلعة ، وهو يعدو في الجبل عرضا ، فألقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه ، فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه ، فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عشرة ، فاسترجع الناس وجاء الحجر إليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الأرض فوق الرجل فضربه المنحدر فارتفع عن الأرض ومَرَّ من فوق الرجل ثم سقط على الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر ، وقام يعدو حتى لحق بأصحابه ، فكان سبب نجاته ، فتعسّت أم الجبان ! (١) .

فهذا الخبر فيه مواقف وعبر فمنها :

أولا : أن هؤلاء الصليبيين الذين انخدعوا بحصنهم الحصين فصاروا يقطعون الطريق وينهبون أموال الناس لم يمهكوا بل سلط الله تعالى عليهم هذا السلطان القوي فأخذهم شر أخذة وأصبحوا أذلة مملوكين بعد أن كانوا يملكون أموال الناس بالقوة ، فلا ينخدعن مبطل مفسد فإن هناك أيدٍ قوية عادلة قد أعدت له إلى جانب عذابه في الآخرة .

ثانياً : فيه مثل من حزم السلطان صلاح الدين وابتكار الطرق الحربية غير المألوفة إذا تعذر استعمال المألوفة ، فحينما بطل استعمال المنجنيق عوض ذلك باستثماره كثرة جيشه فجعلهم أقساماً يتناوبون ،

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٩٣ - ١٩٤ .

وحول الوقت كله إلى قتال حتى استنفد كل طاقة الأعداء فسلموا أنفسهم ، وهكذا يفعل القائد المبدع حيث يضع الأمور مواضعها ويجعل لكل حال لبوسها .

ثالثًا : مثلٌ من إقدام المجاهدين على المغامرة وإن كان هناك من يكفيهم ولم تصدر لهم أوامر ، وقد تمثل ذلك في مشهدين : الأول حينما قام أصحاب القسم الأول الذين انتهت نوبتهم فقاتلوا مع إخوانهم ، والثاني : حينما قام الذين خلّفوا في الخيام فتسوروا الحصن من جانب آخر وساعدوا إخوانهم في القتال ، وهذا دليل على إخلاصهم وسمو مقاصدهم .

رابعًا : بركة التكبير ورفع الصوت به ، فلقد كان سببا في فتح الملجأ الذي كان داخل القلعة حينما كبر أسرى المسلمين الذين كانوا فوقه فتوهم الأعداء أن المسلمين صعدوا إلى سطحه ، والتكبير دائما له أثر مُزلزل في الأعداء ، فطالما انخلعت له قلوبهم وتحطمت بسماعه معنوياتهم .

خامسًا : عبرة بليغة في نجاة ذلك المسلم الذي دحرج عليه الأعداء صخرة حيث هيا الله له أن يسقط على الأرض وأن تقفز الصخرة من فوقه دون أن تمسه بأذى ، والله سبحانه إذا أراد سلامة عبده هيا أسباب ذلك ، وفي هذا درس للجبناء الذين يقعدون في مأمنهم خوفا من المهالك ويضيعون بسبب ذلك طاقات كثيرة تبقى معطلة لا يستفيدون منها هم ولا إخوانهم المسلمون .

فتح حصن الشجر :

بعد أن استولى صلاح الدين على حصن برزية توجه إلى حصن الشجر ، وكان لا يصل إليه حجر المنجنيق من ارتفاعه ووعورة مسالكه ، فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة وإعمال الحيلة في الوصول إليها قال بعضهم : هذا الحصن كما قال الله تعالى ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف : ٩٧] ، فقال صلاح الدين : أو يأتي الله بنصر من عنده ، فبينما هم في هذا الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين ، فأجيب إلى ذلك ، ونزل رسول وسأل إنظارهم ثلاثة أيام فإن جاءهم من يمنعهم وإلا سلّموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك ، فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به ، فلما كان اليوم الثالث سلموها إليه ، واتفق أنه يوم الجمعة سادس عشر من جمادى الآخرة - يعني من سنة أربع وثمانين وخمسمائة - وكان سبب استمھالهم أنهم أرسلوا إلى صاحب أنطاكية وكان هذا الحصن له يُعرفونه أنهم محصورون ويطلبون منه أن يُرحّل عنهم المسلمين ، فإن فعل وإلا سلّموه ، وإنما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليه أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضاً (١) .

وفي هذا الخبر مثل من نصر الله تعالى أوليائه بالرعب الذي

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٩٢ .

يقذفه في قلوب أعدائهم ، فيسلكون معهم على خلاف السلوك المعتاد مع غيرهم .

كما أن فيه إشارة إلى قوة تعلُّق قلب صلاح الدين بالله عز وجل وثقته البالغة بنصره ، فمع تعدُّر السبل الموصلة إلى تلك القلعة قال :
أو يأتي الله بنصر من عنده ، فكان النصر هو ذلك الرعب الذي ألقاه الله تعالى في قلوب الأعداء فخرجوا للتفاوض وتسليم الحصن دون أن يمسه أي أذى من الحرب .

حصار مدينة صور :

استطاع صلاح الدين تطهير بلاد الشام من أكثر معاقل الصليبيين ، ولكن شذاذهم ومن أمَّنهم صلاح الدين تجمعوا في مدينة صور الساحلية ، وقد قصدها صلاح الدين ولكن استعصى عليه فتحها لخصائنها الطبيعية حيث أنها أشبه بجزيرة ومدخلها من البر محاط بالبحر ، فكان المسلمون يقاتلونهم من جهة واحدة والأعداء يقاتلونهم براً من جهة ويحراً من جهتين حيث كانت سفنهم ترمي جيش المسلمين ، وقد أدرك صلاح الدين عدم إمكانية فتحها إلا باحضار سفن تمنع خروج سفنهم من الميناء فأحضر عشر سفن ، وقد قامت بالمهمة وحصرت سفن الأعداء إلا أنهم باغتوا سفن المسلمين فاستولوا على خمس منها ، فلم تعد الخمس الباقية كافية فأرسلها صلاح الدين إلى بيروت ، ورحل صلاح الدين عن صور لعدم إمكانية قتالهم بغير سفن (١) .

(١) الكامل في التاريخ ١٨٦/٩ - ١٨٧ .

استجداد صليبي الشام بأهل أوربا :

وقد رحل زعماء النصارى الدينيون من صور إلى بلاد أوربا ، وقاموا بدعوة مكثفة لغزو المسلمين واسترجاع بيت المقدس ، وصاروا يستنجدون بأهل أوربا ويحثونهم على الأخذ بشأر البيت المقدس ، وصوروا المسيح عليه السلام ، وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام ، وقالوا لهم : هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين [صلى الله عليه وسلم وحاشاه مما يقول الظالمون] وقد جرحه وقتله ، فعظم ذلك على الفرنج فحشدوا رجالهم ونساءهم ، ومن لم يستطع الخروج يستأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حالهم ، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء .

وقد كان من أثر هذه الحملة الدعائية الكبرى قيام الحملة الصليبية الثالثة ، حيث استجاب لها ملوك أوربا ، فجندوا عشرات الألوف من الصليبيين عن طريق البحر ، وخرج ملك ألمانيا ومعه مائة ألف عن طريق البر .

وقد كان خروج ملك الألمان في سنة ست وثمانين وخمسمائة من بلاده ، وهم نوع من الفرنج من أكثرهم عددا وأشدهم بأسا ، وقد أُرْعِجَهُ مُلْكُ الْمُسْلِمِينَ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ فَجَمَعَ عَسَاكِرَهُ وَسَارَ عَنْ طَرِيقِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَقَدْ كَتَبَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَى صَلاَحِ الدِّينِ يُعَرِّفُهُ بِذَلِكَ وَيَعِدُّهُ بِمَنْعِهِ مِنَ الْعُبُورِ ، وَلَكِنَّهُ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ مَنَعَ عَنْهُمْ الْمِيرَةَ . وَسَارُوا حَتَّى مَرُّوا عَلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ ، وَذَلِكَ فِي مَمْلَكَةِ قَلْجِ

أرسلان السلجوقي ، فثار بهم التركمان فمازالوا يسايرونهم ويقتلون من انفراد ، وعصف بهم البرد وكان الثلج متراكما فأهلكهم البرد والجوع والتركمان قتل عددهم ، ومع ذلك خافهم الملك السلجوقي فهادنهم وسمح لهم بالتزود من بلاده بما يشاؤون . ثم مروا ببلاد الأرمن فأظهر لهم صاحبها الطاعة وأمدهم بما شاؤوا ، ثم ساروا نحو أنطاكية .

وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم ليغتسل وكان النهر شديد الجري فحملة الماء إلى شجرة فشجت وجهه وأخمدت أنفاسه وكفى الله شره ، وقد اختلف أصحابه على ولده فرجع عنه طائفة إلى بلادهم ، وسار فيمن بقي وهم يزيدون على أربعين ألفا ، ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا إلى أنطاكية فحسن لهم صاحبها المسير إلى عكا ، فساروا على ساحل بلاد الشام فخرج لهم أهل حلب وغيرها وأخذوا منهم خلقا كثيرا ومات أكثر من أخذ .

وبلغوا طرابلس فكثرت فيهم الموت فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل ، فركبوا إلى عكا ، ولما رأوا ما فيه أهلها من الاختلاف عادوا إلى بلادهم ففرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد (١) .

وهكذا أنقذ الله تعالى المسلمين من مائة ألف مقاتل ، وذلك بعدة عوامل ، منها غارة بعض المسلمين عليهم ، ومنها موت ملكهم وتفرقهم من بعده ، وهذا أهمها ، ومنها إصابتهم بالوباء وموت كثير منهم ، ولو أنهم سلموا ووصلوا لكانت محنة كبرى على المسلمين ،

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠١ ، ٢٠٧ ، البداية والنهاية ١٢/ ٣٥٨ .

وفي ذلك يقول ابن الأثير : ولولا لطف الله بالمسلمين ، وأهلكَ ملك
الألمان وإلا كان يقال : إن الشام ومصر كانتا للمسلمين (١) .

وصول الصليبيين إلى عكا :

تقدم لنا أن الصليبيين خرجوا بأعداد كبيرة من أوروبا قاصدين
بلاد الشام ، وقد وصلوا إلى ميناء صور فضاقت بهم فقصدوا عكا،
وساروا إليها مع من اجتمع بها من صليبي الشام عن طريق البر،
وسفنهم تحاذيهم في البحر، وكان رأي صلاح الدين اقتطاعهم وهم
سائرون في البر، ولكن لم يوافق على ذلك قاداته وطلبوا الأسهل
لهم، وكان قد جعل جزءاً من الجيش يناوشونهم، ومع قتلهم فإن
الأعداء هابوا قتالهم ، فكيف لو كان كل الجيش الإسلامي يناوشهم؟!
ووصلوا إلى عكا قبل المسلمين فأحاطوا بها من البحر إلى البحر،
ولم يتمكن المسلمون من الوصول إليها، وجرت بينهم وقائع كثيرة،
أبرزها معركة في أول شهر شعبان باكرهم فيها صلاح الدين بحده
وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم ، واستمر القتال إلى الظهر،
وصبر الفريقان صبراً حاراً له من رآه، فلما كان وقت الظهر حمل
عليهم تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين حملة قوية من الميمنة
على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقعهم ، وركب بعضهم بعضاً
والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم وأخلّوا نصف البلد، وملك تقي
الدين مكانهم ، وصار المسلمون يدخلون البلد وأدخل فيه صلاح
الدين الرجال والمؤن (٢) .

(١) الكامل في التاريخ ٢٠١/٩ .

(٢) الكامل في التاريخ ٢٠١/٩ - ٢٠٢ .

في هذه المعركة موقف يذكر لابن أخي صلاح الدين تقي الدين
ومن ثبتوا وأثخنوا في العدو من أبطال المسلمين .

هذا وقد جرت معركة كبرى بينهم ، وذلك أن الصليبيين رأوا قلة
جيش المسلمين حيث إن بعض جيش صلاح الدين مرابط حول
الثغور ، وجيش مصر لم يصل ، فانتهاز الصليبيون الفرصة قبل أن
تأتي أمداد المسلمين ، فخرجوا من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر قد
ملؤوا الأرض طولا وعرضا ، وهجموا على ميمنة المسلمين وفيها تقي
الدين عمر ابن أخي صلاح الدين ، فأمدهم صلاح الدين برجال من
القلب ، فلما رأى الصليبيون قلة من في القلب عطفوا عليه عطفة
رجل واحد فتقهقر كثير من المسلمين وانهزموا وثبت بعضهم واستشهد
بعض أمرائهم وشجعانهم فقصده الأعداء التل الذي فيه خيمة صلاح
الدين ، فقتلوا من مروا به ، وانحدروا إلى جانب التل الآخر ، ثم
خشوا أن يُقتطعوا فرجعوا ، وكان صلاح الدين يحث المسلمين على
الثبات ويناديهم ويأمرهم بالكرّة فاجتمع حوله جماعة صالحة فتقدم
بهم ، وكانت ميمنة المسلمين قد ثبتوا وحملت ميسرة المسلمين على
من يليهم فقطعوا المدد عن الذين حملوا على القلب ، فلما رجع
هؤلاء كانت لهم ميسرة المسلمين ، وحمل عليهم صلاح الدين بمن معه
من خلفهم فلم يفلت منهم أحد ، وكان النصر للمسلمين على قلتهم
بالنسبة للأعداء (١) .

فهذه المعركة فيها مثل من ثبات صلاح الدين ورباطة جأشه

(١) الكامل في التاريخ ٢٠٢/٩ - ٢٠٣ .

وحسن تصرفه عند الشدائد، وفيها مواقف كريمة للمسلمين الذين ثبتوا معه في عدم التأثر بموقف من انهزموا، وبقاء معنويتهم عالية مع ماأحرره الأعداء في البداية من إجلاء أصحاب القلب عن مواقفهم .

معركة الأصبول :

كان السلطان صلاح الدين قد أرسل إلى البلاد الإسلامية بطلب الإمداد العسكري فوصلت إليه الجيوش من بعض البلاد، ومنها أصبول خرج من مصر ، وقد وصل الأصبول قرب مدينة عكا، فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولا ليلقاه ويقاتله، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جميع جهاتهم ليستغلوا بقتاله عن قتال الأصبول ليتمكن من دخول عكا ، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء فكان القتال برا وبحرا ، وكان يوما مشهودا لم يؤرخ مثله ، وأخذ المسلمون من الفرنج مركبا فيه من الرجال والسلاح ، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين ، ووصل الأصبول الإسلامي سالما (١) .

وهذا يعتبر نجاحا كبيرا لأولئك المجاهدين حيث سيطروا على الميناء ودافعوا عن الأصبول الإسلامي بالرغم من وجود الصليبيين القوي في البحر .

وقبل ذلك كان السلطان قد أمر بتجهيز سفينة كبيرة من بيروت فيها طعام كثير وأسلحة، فقام من فيها من التجار المسلمين بالتزوي بزِيَّ الفرنج خدعة لهم وكانت السفينة مما غنمه المسلمون منهم،

(١) الكامل في التاريخ ٢٠٦/٩ .

فوصلت ولم يشكّ الأعداء أنها لتجارهم وأفرغت حمولتها فاكتفى بها المسلمون حتى قدم الأبطال المصري (١) .

وكان النصر حليف المسلمين في كل المعارك التي خاضوها مع الصليبيين حول عكا، وإن حصل لبعضهم انهزام في أول المعركة، إلا أن معاركهم معهم لم تكن حاسمة نظراً لكثرة الصليبيين ، ولكونهم سبقوا إلى سور عكا وعملوا لأنفسهم تحصينات يلجؤون إليها عند الانهزام ، ولمّا كان يعتري صلاح الدين من المرض الذي يحمله على مغادرة الميدان مدة قد تطول فيستفيد الأعداء من ذلك ، ولكون بعض قادة صلاح الدين لا يأخذون برأيه أحياناً فتفتوت على المسلمين فرص جيدة للنصر الحاسم ، ولأن الإمدادات من أمراء المسلمين تعتبر قليلة جداً بالنسبة لما يصل إلى الصليبيين من إمدادات (٢) .

وقبل ذلك وأهمّ منه أن من أسباب تأخر النصر وقوع المسلمين أو بعضهم في المعاصي ، وقد نبه القاضي الفاضل السلطان بعدة كتب لهذا المعنى ، ومما جاء فيها : إن ما عند الله تعالى من النصر لأئمال إلا بطاعته ، وإننا لو صدّقناه لعجّل لنا عواقب صدقنا ، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا ، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به ، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا ، فلولا أنها تسدّ طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخاشعين قد غسّل ، ولكن في الطريق عائق (٣) .

(١) البداية والنهاية ٣٦٠/١٢ .

(٢) ينظر الكامل في التاريخ ٢٠٢/٩ - ٢٠٣ .

(٣) البداية والنهاية ٣٦١/١٢ ، والقاضي الفاضل من العلماء الكبار وكان وزير صلاح الدين ومستشاره ، وكان يحبه كثيراً ويأخذ بأرائه .

ابتكار علمي حربي موفق :

كان الصليبيون في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً ، طول كل برج منها خمس طبقات ، كل طبقة مملوءة من المقاتلة ، وقد غَشَوْها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات ، وزحفوا بها فأشرفت على السور ، وقاتل من بها من عليه فأنكشفوا وشرعوا في طمّ خندقها ، فكادوا أن يملكوا البلد عنوة ، فقاتل صلاح الدين الصليبيين ثمانية أيام وخفف ذلك عن حامية البلد ، وقد قاوم المسلمون الأبراج بالنفط الطيار فلم يصنع فيها شيئاً فأيقنوا بالهلاك .

ولما أراد الله تعالى إنقاذ المسلمين من تلك الأبراج وفق شاباً نحاساً من أهل دمشق يُعرف بعلي بن عريف النحاسين وكان مولعاً بآلات النفط وتحصيل العقاقير التي تقوّي عمل النار ، وكان بعكا لأمر يريده الله ، فلما رأى الأبراج قد نُصبت على عكا شرع في عمل مايعرفه من الأدوية المقوية للنار ، بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما ، فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش حاكم عكا ، وقال له يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه ، وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه مايكاد يقتله فازداد غيظاً بقوله فقال له : قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا ، فقال له من حضر : لعل الله تعالى يجعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله فأجابه إلى ذلك ، وأمر المنجنيقي بامتثال أمره ، فرمى

عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار ، وكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج ، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكن من البرج فألقى قدراً مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج ، وألقى قدراً ثانية وثالثة فاضطربت النار في نواحي البرج ، وأعجبت من في طبقاته الخمس عن الهرب فاحترق هو ومن فيه ، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني والثالث وقد هرب من فيهما ، وكان يوما مشهوداً لم ير الناس مثله ، والمسلمون ينظرون فرحين لنجاة المسلمين من الأبراج .

وحُمِلَ ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة فلم يقبل منه شيئاً ، وقال : إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه (١) .

وبعد : فإن ما قام به هذا الرجل المبدع الماهر في الصناعة يعتبر أمراً عظيماً وإنجازاً كبيراً نصر الله تعالى به الإسلام وأقر عيون المسلمين وأذل به الكفار وأبطل مساعيهم .

وهكذا يبرر من عباقرة المسلمين من يتفوقون آنذاك على الأوروبيين الذين مهروا في الصناعة ، وهذا دليل على ارتفاع مستوى المسلمين في الصناعات الحربية ، لأن هذا الرجل لم يكن ليبلغ ما بلغ لولا تقدم المسلمين في الصناعة وتوفر الآلات والمواد اللازمة لذلك ، وقد كانوا في تلك المواد المحرقة قد وصلوا إلى مستوى الأوروبيين ،

(١) الكامل في التاريخ ٢٠٥/٩ - ٢٠٦ .

البداية والنهاية ٣٥٧/١٢ .

ثم تفوق الصليبيون باختراع الموانع التي تمنع عمل النار ، فتوصل هذا المسلم المبدع إلى اختراع مواد تقوي النار بحيث تُبطل مفعول تلك الموانع التي اخترعها الأعداء .

وهكذا تفوق المسلمون آنذاك على أعدائهم في الاختراع والصناعة فأعقب ذلك نصراً مؤزرًا للمسلمين وهزيمة نكراء لأعدائهم .

استيلاء الصليبيين على عكا وعقد هدنة معهم :

هذا وقد جرت معارك أخرى كان النصر فيها حليف المسلمين إلا أنها لم تكن حاسمة ، إلى أن وصل ملك فرنسا ثم ملك إنجلترا على رأس جيشين في عدد من السفن فاستطاع الصليبيون أن يستولوا على عكا، وكان من أسباب ذلك أيضاً ما حصل من سامة أفراد الحامية الإسلامية داخل عكا وإبدالهم بجنود آخرين ليسوا في مستواهم في الخبرة والعدد .

وكان الذي أطال بقاء الصليبيين حول عكا هو اعتصامهم بخنادقهم ، فكانوا قلماً يخرجون للقتال، وإذا خرجوا وانهزموا لجؤوا إليها .

وكانوا إذا خرجوا يقصدون طائفة من المسلمين ليقتضوا عليهم، فمن ذلك أنهم في العشرين من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائه خرجوا واتجهوا نحو جيش المصريين ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ودخل الصليبيون خيامهم فقاتلهم المصريون فيها ثم داروا على الصليبيين من الخلف وقطعوا إمدادهم ، وساعدهم أهل الموصل لقربهم منهم فقتلوا من الصليبيين ما يزيد على عشرة آلاف .

ولما تتابعت الأمداد على الصليبيين خرجوا مرة أخرى من خنادقهم ، فتصدت لهم مقدمة المسلمين بالرماية ، وندم الصليبيون على خروجهم فلزموا مكانهم ، وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا والمسلمون خلفهم يقتلون منهم ، وكان صلاح الدين مريضا وقد نُصب له خيمة فوق تلّ ، فلم يكن له إشراف مباشر ، يقول ابن الأثير : فلولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل وإنما لله أمر هو بالغه (١) .

وقد انتهى أمر صلاح الدين مع الصليبيين إلى عقد هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وذلك في العشرين من شعبان عام ثمان وثمانين وخمسمائة ، وقد كانت الهدنة بطلب من ملك إنجلترا ، وقد أشار أمراء صلاح الدين عليه بالموافقة ليرحل الفرنج القادمون فتخف الوطأة على المسلمين (٢) .

مثل من رحمة صلاح الدين :

وقد كان صلاح الدين رحمه الله رقيق القلب رحيمًا بالمسلمين عطوفا عليهم ، ولقد بلغت رحمته أعداءه ، ومن ذلك أن امرأة من الفرنج سُرِق ولدها الرضيع وهو ابن ثلاثة أشهر ، فوجدت عليه أمه وجدا شديدا واشتكت إلى ملوكهم فقالوا لها : إن سلطان المسلمين رحيم القلب ، وقد أذنّا لك أن تذهبي إليه فتشتكي أمرك إليه ، فجاءت إلى السلطان فأنهت إليه حالها ، فرق لها رقعة شديدة حتى

(١) الكامل في التاريخ ٢٠٨/٩ - ٢٠٩ .

(٢) الكامل في التاريخ ٢٢١/٩ - ٢٢٢ ، البداية والنهاية ٣٧٢/١٢ - ٣٧٣ .

دمعت عينه ، ثم أمر بإحضار ولدها ، فإذا هو قد بيع في السوق ،
فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري ، ولم يزل واقفاً حتى جيء بالغلام ،
فأخذته أمه وأرضعته ساعة وهي تبكي من شدة فرحها وشوقها إليه ،
ثم أمر بحملها إلى خيمتها على فرس مكرمة ، رحمه الله تعالى (١) .

ولاشك أن هذا الموقف وأمثاله من المواقف الأخلاقية كان لها أثر
بالغ في رفع سمعة المسلمين الأخلاقية واجتذاب الناس إلى الدخول
في الإسلام .

(١) البداية والنهاية ١٢/٣٦٤ .

٦ - جهاد الظاهر بيبرس ضد الصليبيين

بقي للصليبيين إمارات في ساحل الشام حيث لم يتم إجلاؤهم بالكلية، إلى أن انتهى عهد الأيوبيين وجاء عهد المماليك فكان للسلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون وابنه خليل دور كبير في القضاء على الصليبيين وإزالة ملكهم عن بلاد الشام بالكلية .

ولقد كان هناك دولة للأرمن النصارى جنوب بلاد الأناضول، وقد كانوا حلفاء للصليبيين والتتار، ولقد أدرك الظاهر بيبرس أن أي عمل حربي يقوم به ضد الأرمن والصليبيين سيكون محرّضاً للتتار للقدوم والمشاركة مع النصارى في مواجهته، والتتار لاتزال لهم دولة قوية في الشرق تحت إمرة حاكمهم القوي هولاکو .

ولقد كان هناك طائفة من التتار لاتخضع لهولاکو وهم مغول القفجاق، ويسمّون القبيلة الذهبية، ورعيّهم هو بركة خان، وقد اعتنق الإسلام، فاغتنم الظاهر بيبرس هذه الفرصة فكاتب بركة خان وحرّضه على قتال هولاکو، فاستجاب لذلك بركة خان وكان مخلصاً في إسلامه فقاتل هولاکو حتى شغله عن المسلمين وأضعفه وفرّق جنده .

وبهذا نجح الظاهر بيبرس في هذا التخطيط الحربي الجيد حيث أمن جانب التتار وتفرّغ للصليبيين (١) .

(١) الحروب الصليبية للدكتور سعيد عاشور ١٠٨٩/٢، والظاهر بيبرس البندقداري هو أحد سلاطين المماليك، تولى الحكم في سنة ثمان وخمسين وستمئة حتى سنة ست وسبعين وستمئة .

ولقد كان فيما قام به السلطان بركة خان عمل جهادي كبير يُشكر عليه ، حيث رفع بجهاده هذا إصراراً ثقيلاً عن كاهل المسلمين .

ولقد سار السلطان الظاهر بيبرس من مصر بجيشه إلى الشام قاصداً جهاد الصليبيين في عام أربعة وستين وستمائة ، وقد نزل في عين جالوت ، وبعث عدة جيوش للإغارة على إمارات الصليبيين في الساحل ، فأغاروا على عكا وصور طرابلس وحصن الأكراد ، فسبوا وغنموا شيئاً كثيراً ، ثم نزل الظاهر بنفسه على مدينة صفد في الثامن من شهر رمضان ، وقد فتحها بعد حصار طويل وقتل كثيراً من أهلها ، ثم جعلها معقلاً للمسلمين فوضع فيها الجنود وزودها بالذخائر والأسلحة (١) .

ثم عاد الظاهر إلى دمشق ، ووجه جيشاً لقتال الأرمن وقد كانوا ناصروا التتار حينما غزوا الشام ، واستنجدوا بهم أيضاً حينما أراد بيبرس فتح أنطاكية ، فوجه بيبرس جيشين بقيادة الأمير قلاوون والأمير المنصور الأيوبي أمير حماة ، فالتقوا مع المسلمين عند دريساك وهي قلعة عند أنطاكية فأنزل المسلمون بالأرمن وحلفائهم هزيمة كبرى واستولوا على عدد من بلدانهم المهمة ، ومنها سيس عاصمة أرمينية الصغرى ، ورجع المسلمون بغنائم كثيرة وعدد كبير من الأسرى ، ومن بينهم ابن هيثوم ملك أرمينية الصغرى ، ولم يستطع هيثوم استرداد ابنه إلا بمقابل تنازله عن مواقع مهمة مثل دريساك التي تتحكم في الطريق

(١) النجوم الزاهرة ١٣٨/٧ .

بين أرمينية وأنطاكية ، ومدن أخرى تتحكم في الطريق بين أرمينية والجزيرة حيث يوجد التتار حلفاء الأرمن » (١) .

وبهذا استطاع بيبرس أن يُضعف أرمينية جداً وأن يحصرها بحيث لا يستطيع أن تستنجد بأعدائه ولا أن تُنجدهم .
فتح مدينة يافا :

وفي يوم السبت ثاني جمادى الآخرة من عام خمسة وستين وستمائة خرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر بجيشه عازماً على قصد الشام على حين غفلة ، وسار نحو يافا ، فوافته رسل صاحبها في الطريق فاعتقلهم ، وأمر العسكر بلبس آلة الحرب في الليل وسار فصبح يافا وأحاط بها من كل جانب ، فهرب من كان فيها من الصليبيين إلى قلعتها ، فملك السلطان المدينة ، وطلب أهل القلعة الأمان فأمنهم وعوضهم عما نهب لهم بأربعين ألف درهم ، فركبوا في المراكب إلى عكا (٢) .

وهكذا تم فتح يافا وإجلاء الصليبيين منها بهذه السرعة والسهولة بفضل الله تعالى ثم بفضل التخطيط الحربي البارِع الذي رسمه السلطان بيبرس الذي جمع الله تعالى له بين الشجاعة النادرة والرأي الثاقب .

فتح أنطاكية :

وبعد أن فتح الظاهر بيبرس يافا توجه شمالاً يريد فتح أنطاكية ،

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤٠ ، الحروب الصليبية / ١٠٩٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤١ - ١٤٢ .

وفي طريقه إليها فتح قلعة الشقيف ، وقلعة الباشورة وغيرهما .
ولما قرب من أنطاكية أمر العسكر ليلاً بلبس آلة الحرب ونزل
أنطاكية في غرة شهر رمضان ، فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون
الأمان وشرطوا شروطاً لم يجب إليها ، وزحف عليها ففتحها يوم
السبت رابع الشهر ، وقد كان هو أول من فتح أنطاكية وقضى على
الصلبيين فيها منذ أن استولوا عليها (١) .

وقد استمر السلطان الظاهر بيبرس في غزو الصليبيين في ساحل
الشام ، ومن ذلك ما قام به سنة تسع وستين وستمائة حيث خرج من
مصر في ثاني عشر من شهر جمادى الآخرة ، وكان معه ولده الأمير
السعيد وقد هاجم عدداً من حصون الصليبيين وقلاعهم الحصينة ،
وفتح منها قلعتي صافيتا والمجدل وحصن الأكراد (٢) .

ومما يذكر للسلطان الظاهر بيبرس كثرة خروجه للجهاد حيث كان
لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار بعاصمة سلطته وهو يرى البلاد
الإسلامية مهددة من الصليبيين والتتار وقد بلغت قوة دولته حداً أربى
الأعداء وجعل بعضهم يحاول الصلح معه ، فرحمه الله رحمة
واسعة .

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٠ .

٧ - جهاد السلطان قلاوون وابنه خليل -

فتح حصن المرقب :

ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بُرْدِي أن السلطان المنصور قلاوون^(١) خرج بجيشه من مصر إلى بلاد الشام ، ووصل إلى حصن المرقب الذي هو تحت سيطرة الصليبيين ، وذلك في العاشر من شهر صفر عام أربعة وثمانين وستمائة ، وحاصر أهل ذلك الحصن ونصب المسلمون المجانيق ورموا بها الحصن وهدموا معظم أبراجه ، واستمر ذلك إلى سادس عشر من شهر ربيع الأول حيث رحف السلطان بجيشه واستولى على ذلك الحصن ، ونزل من فيه من الصليبيين بالأمان على أرواحهم فركبوا وجهاز السلطان معهم من أوصلهم إلى أَنْطَرَسُوس^(٢) .

فتح طرابلس :

ثم ذكر أنه في عام ثمانية وثمانين وستمائة خرج السلطان المنصور قلاوون من الديار المصرية بعساكره لحصار طرابلس ، ووصل في مستهل شهر ربيع الأول إلى طرابلس وحاصرها ، ونصب عليها المجانيق ، وضايق أهلها مضايقة شديدة إلى أن ملكها عنوة في يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول ، وشمل القتل والأسر سائر

(١) هو السلطان المنصور قلاوون بن عبد الله التركي ، تولى الحكم سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة .

(٢) النجوم الزاهرة ٣١٥ / ٧ .

من فيها من الصليبيين ، وغرق منهم في الماء جماعة كثيرة ، كما تم الاستيلاء على عدد من الحصون التابعة لها (١) .

فتح عكا :

كان السلطان المنصور قلاوون قد عزم على حصار مدينة عكا ، وبدأ بالاستعداد لذلك ، ولكن وافته المنية وهو في مخيمه خارج القاهرة بعد مرض أصابه ، ذكر ذلك ابن تغري بردي ثم ذكر أنه لما آل الأمر إلى ولده السلطان خليل بن قلاوون (٢) واستتب له الأمر شرع في إكمال ما عزم عليه أبوه ، فتجهز للسفر ، وأرسل إلى البلاد الشامية ليستعدوا للغزو معه ، وعمل آلات الحصار وجمع الصناع إلى أن تم أمره فخرج بعساكره من الديار المصرية في ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسعين وستمائة ، وسار حتى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر ، فاجتمع عنده على عكا من الأمم ما لا يحصى كثرة ، وكان المطوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة ، ونصب عليها المجانيق الكبار والصغار ، ونقب النقبون في سورها عدة نقوب .

قال : وأنجد أهل عكا صاحب قبرص بنفسه ، وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيراناً عظيمة لم ير مثلاً فرحاً به ، وأقام عندهم ما يقرب من ثلاثة أيام ، ثم عاد عندما شاهد انحلال أمرهم وعظم مآدهمهم ، ولم يزل الحصار عليها والجد في أمر قتالها إلى أن انحلت

(١) النجوم الزاهرة ٣٢١ / ٧ .

(٢) تولى الحكم بعد أبيه ما بين عامي تسعة وثمانين وستمائة وثلاثة وتسعين وستمائة .

عزائم من بها وضعف أمرهم ، واختلفت كلمتهم ، هذا والحصار عمال في كل يوم ، واستشهد عليها جماعة من المسلمين .

فلما كان سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحس عظيم مزعج ، فحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار هرب الفرنج ، وملكت المدينة بالسيف ، ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها ، وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر ، فلم ينج منهم إلا القليل (١) .

فتح مدينة صور :

قال ابن تغري بردي : وكان السلطان [يعني خليل بن قلاوون] عند منارلته عكا قد جهز جماعة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير إلى « صور » لحفظ الطرق وتعرف الأخبار ، وأمره بمضايقة صور ، فبينما هو في ذلك لم يشعر إلا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت ميناء صور ، فحال بينها وبين الميناء ، فطلب أهل صور الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ويسلموا صور فأجيبوا إلى ذلك ، فتسلمها .

ثم ذكر أن السلطان خليل لما علم بذلك جهز إليها من حربها وهدم أسوارها وأبنيتها (٢) .

(١) النجوم الزاهرة ٥/٨ - ٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨/٨ .

نهاية الصليبيين في الشام :

وبعد هذه الفتوح بقي للصليبيين في الشام مدينة صيدا وعثليث وأنطَرطوس ، وكان السلطان خليل بن قلاوون قد ولى على نيابة الشام علم الدين سنجر الشجاعى فحاصر مدينة صيدا حتى فتحها بالأمان لأهلها يوم السبت خامس عشر رجب من سنة تسعين وستمائة ، ثم فتح قلعة جبَّيل وخرَّبها بأمر السلطان ، ثم فتح عثليث بعد شهر .

وأما أهل أنطَرطوس فإنهم لما بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب ، فجرد الأمير سيف الدين بَلْبَان الطَّبَّاحي عسكرا ، فلما أحاطوا بها ليلة الخميس خامس شعبان ركبوا البحر وهربوا إلى جزيرة أرواد ، وهي بالقرب منها ، فندب إليها السَّعْدِيَّ بما كان أحضره من مراكب فأخلوها ، وكان فتح هذه المدن الست في ستة شهور (١) .

وهكذا قام السلطان المنصور قلاوون بمشروع جهادي كبير لاستئصال بقية الصليبيين في الشام ، فبدأ بفتح حصن المرقب الحربي الذي كان واسعا وفي غاية الأهمية ، ثم ثنى بفتح مدينة طرابلس التي كانت مشهورة بحصانتها ومناعة سورها ، ثم ثلث بالعزم على حصار مدينة عكا فوافته المنية قبل ذلك ، فحقق له أمنيته ابنه السلطان خليل الذي خلفه في الحكم ، وكانت عكا أهم مراكز الصليبيين في ساحل الشام .

(١) النجوم الزاهرة ٨ / ١٠ - ١١ .

ثم توجَّع السلطان خليل بن قلاوون أعماله الجهادية بفتح بقية المدن والحصون التي استولى عليها الصليبيون .

وبهذه الفتوحات انتهى وجود الصليبيين في بلاد الإسلام الذي بدأ في عام ثمانية وسبعين وأربعمائة واستمر حتى عام تسعين وستمائة للهجرة، وهذا يعني أن احتلال الصليبيين لأجزاء من بلاد المسلمين استمر اثنتي عشرة ومائتي سنة .

* * *

مواقف وعبد
فى
جهاد المسلمين مع التتار

خروج التتار وسبب ذلك

في سنة ست عشرة وستمائة سار التتار صحبة ملكهم جنكزخان قادمين من بلادهم في جبال طمغاج من أرض الصين، قاصدين قتال خوارزم شاه أمير خراسان وبلاد ماوراء النهر، وكان سبب ذلك أن خوارزم شاه أمر بنهب بعض تجارهم وكانت معهم أموال كثيرة، فلما علم بهم خوارزم أقبل من خراسان بجيشه فاقتتل معهم في بلاد ماوراء النهر قتالا شديداً، ثم رجع إلى بلاده.

ولقد عبّر التتار نهر جيحون واستولوا على بلاد خراسان وماحولها حتى وصلوا إلى حدود العراق وأفسدوا في الأرض وقتلوا مئات الألوف من المسلمين وغيرهم، وفي بيان هول مصيبتهم يقول ابن الأثير رحمه الله تعالى: هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقرت الليالي والأيام عن مثلها، عمت الخلائق ونخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام وإلى الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولايدانيها (١).

ثم كانت النكبة العظمى في بغداد حيث أقبل التتار بقيادة سلطانهم هولاكوخان في مائتي ألف فقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي وقتلوا مئات الألوف في بغداد من العلماء والوجهاء وعامة الناس وذلك في عام ستة وخمسين وستمائة (٢).

(١) الكامل في التاريخ ٣٢٩/٩.

(٢) البداية والنهاية ٢٠٠/٣.

وهذا الذي حصل للمسلمين في الرعب من التتار وعدم الإقدام على مواجهتهم يعتبر مثلاً للإخلاق للراحة والنعيم ، والبعد عن الحياة الجهادية ، فهؤلاء المئات من الألوف في بغداد ومن قبلهم مئات الألوف من المسلمين في بلدان المشرق لوأنهم كانوا متدربين على القتال ويملكون الروح الجهادية لاستطاع أهل كل بلد أن يدافعوا عن أنفسهم ولضعف التتار عن مقاومة جميع أهل تلك البلاد .

إن الإخلاق إلى الراحة والبعد عن الحياة الجهادية من الأمور المخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة أصحابه ، حيث لم يكن في عهدهم أناس مخصصون للقتال وبقية المسلمين لأشأن لهم بذلك ، بل إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا كلهم مجاهدين ، وحينما داهمت جيوش الكفار المدينة النبوية في أحد الأحزاب خرج المسلمون جميعاً بقيادة النبي ﷺ للقتال ، ولم يبق إلا الشيوخ الكبار والنساء والأطفال .

ولقد ظلت هذه الروح الجهادية والمقدرة على القتال عند المسلمين في عصورهم الأولى ، وقد تقدم ذكر أمثلة لذلك .

ثم خبت هذه الروح الجهادية شيئاً فشيئاً حتى نسي كثير من المسلمين الجهاد ، وأصبحوا عاجزين حتى عن الدفاع عن أنفسهم ، وقد ظهر هذا العجز جلياً في استسلامهم وتذللهم للتتار بدون مقاومة تذكر .

وفي عام ثمانية وخمسين وستمائة عبر التتار نهر الفرات قاصدين بلاد الشام بقيادة ملكهم هولاقو ، فاستولوا على حلب ، ثم رحفوا إلى دمشق فاستولوا عليها ، وبذلك استولوا على بلاد الشام كلها .

- مواقف السلطان مظفر الدين قطز -

معركة عين جالوت :

وفي أثناء ذلك سار بطل الإسلام الكبير مظفر الدين قطز التركي حاكم مصر بالجيش المصري إلى الشام ، وانضم إليه جيش من الشام ، وكان هولاء في حلب وقد وجه إلى دمشق قائده الكبير «كتبغانوين» وهذا القائد هو الذي قام بأكثر حروب التتار منذ عهد جنكزخان جد هولاء ، وقد كان التتار يَتِيمُونَ به لكثرة ما حقق لهم من انتصارات .

فلما وصل قطز بالجيش المصري توجه إلى جيش التتار ، ودارت بين المسلمين والتتار معركة هائلة في « عين جالوت » كانت نهايتها انتصار حاسم للمسلمين ، وهذه أول مرة ينتصر فيها المسلمون على التتار التابعين للوكهم ، وقد أحدثت هذه المعركة فرحة عظيمة للمسلمين ، واندحاراً كبيراً للتتار (١) .

وهكذا هزم الله تعالى التتار لأول مرة على يد أولئك الأبطال من الجيش المصري ومن انضم إليه من جيش الشام بقيادة مظفر الدين قطز ، وحار هذا الأمير الشجاع الشهم على شرف القيام بمواجهة التتار وهزيمتهم .

ولقد كانت هزيمة التتار في عرف المسلمين - آنذاك - أمراً بعيد الاحتمال ، ومن أجل ذلك مالأهم بعض أمراء المسلمين وخضعوا لهم ، واستعز النصارى وتناولوا على المسلمين وأهانوهم ظناً منهم أن الدولة ستستمر للتتار ، ولكن الله تعالى بفضله وإحسانه أخلف ظنون التتار

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٣ - ٢٣٥ ، النجوم الزاهرة ٧/ ٧٨ - ٨٣ .

والنصارى والمتخاذلين من المسلمين فنصر عباده المؤمنين وأعز بهم دينه .
إن معركة عين جالوت معركة فاصلة ، فصلت بين الإسلام والكفر ، وبين دولة المسلمين ودولة الكفار ، فالتار الذين انتصروا على أكثر بلاد المسلمين كان في يقينهم أنهم سيستولون على مصر وبقية بلاد المسلمين ، ولكن جنود مصر البواسل - بمعونة جند الشام - كانوا لهم بالمرصاد ، فخيّبوا آمالهم وأبطلوا أحلامهم .

ولقد قُتل في هذه المعركة الفاصلة « كتبغانوين » قائد التتار الكبير ، ورجع هولاءكو ملك التتار نحو المشرق خاسئًا ذليلاً ، وتم تطهير شمال الشام من التتار على يد الظاهر بيبرس أحد قادة قطز الأقوياء .
مواقف جهادية في هذه المعركة :

من ذلك مواقف قائد المسلمين مظفر الدين قطز حاكم مصر ، ولابد قبل بيان مواقفه من إعطاء نبذة موجزة عنه ، فهو محمود بن مودود من سلالة بيت خوارزم شاه حاكم بلاد المشرق الذي قضى التتار على مملكته ، وقد نُقل قطز وهو صغير إلى مصر حيث أصبح مملوكاً للأمير صالح أيوب بن الكامل ، ثم انتقل إلى ملك الأمير عز الدين أيبك التركماني حاكم مصر ، وقد رأى فيه نجابة وشجاعة فقرّبه إليه .

يقول عنه الإمام الذهبي : وكان المظفر أكبر ممالك المعز أيبك التركماني ، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير ، يرجع إلى دين وإسلام وخير ، وله اليد البيضاء في جهاد التتار ، فعوض الله شبابه في الجنة ورضي عنه ذكره ابن تغري برّدي (١) .

(١) النجوم الزاهرة ٨٤ / ٧ .

وقال ابن كثير : لما قُتِلَ أستاذُه المعز قام بتولية ولده نور الدين المنصور علي ، فلما سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة لصغر سنِّ ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه ، فبويع في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة (١) .

ومن مواقفه العالية في هذه المعركة ما ذكره الحافظ ابن كثير قال :
ذُكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قُتِلَ جواده ، ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب (٢) ، فترجَّلَ وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً ، والقتال عمال في المعركة ، وهو في موضع السلطان من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها ، فامتنع وقال لذلك الأمير : ما كنت لأحرم المسلمين نفعك ، ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيول فركب ، فلأَمَّهُ بعض الأمراء وقال : يا خَوْنَدَ لِمَ لاركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآكَ لقتلك وهلك بسبك الإسلام ، فقال : أما أنا فكنت أروح إلى الجنة ، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه ، قد قُتِلَ فلان وفلان وفلان ، - حتى عد خلقاً من الملوك - فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ، ولم يضيع الإسلام (٣) .

فهذا موقف جليل لهذا الأمير البطل دل على تواضعه وعدم اهتمامه بحظ نفسه في سبيل مصلحة المسلمين العامة ، كما يدل على

(١) البداية والنهاية ٢٣٨/١٣ ، النجوم الزاهرة ٨٤/٧ .

(٢) الوشاقية هم سائسو الخيل .

(٣) البداية والنهاية ٢٣٨/١٣ .

تذكره عظمة الإسلام والهدف العالي الذي ينشده المؤمنون حقاً وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

وقال الحافظ ابن كثير : وقد رُوي عنه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمرء والجيش الذين معه : لا تقتلوهم حتى تزول الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح ، ويدعوا لنا الخطباء والناس في صلاتهم ، رحمه الله تعالى (١) .

وهذه لفظة جيدة تدل على اهتمام مظفر الدين بالاعتماد على الله تعالى واستمداد النصر منه ، حيث أُمِّل بموافقة ساعة صلاة الجمعة أن يستجيب الله جل وعلا دعاء خطباء الجمعة والمسلمين لهم بالنصر .

وقال الحافظ ابن كثير أيضاً في بيان انتصار المسلمين وهزيمة التتار : وقُتل أميرهم « كتبغانوين » في المعركة وأُسر ابنه وكان شاباً حسناً ، فأحضر بين يدي المظفر قطز فقال له : أَهْرَبَ أبوك ؟ قال : إنه لا يهرب ، فطلبوه فوجدوه بين القتلى ، فلما رآه ابنه صرخ وبكى ، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى ، ثم قال : أنا طيب ، كان هذا سعادة التتار ، وبقتله ذهب سعدهم .

قال : وهكذا كان كما قال : ولم يفلحوا بعده أبداً ، وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ، وكان الذي قتله الأمير آقوش الشمسي رحمه الله تعالى (٢) .

وهذا الخبر فيه دلالة على خبرة مظفر الدين قطز بمكامن القوة عند الأعداء ، حيث أدرك أن قوة التتار ونجاحهم يتمثلان في قائدهم الكبير

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٩ .

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٠ .

كتبغانوين ، الذي توالى انتصاراته منذ عهد جنكيزخان جد ملكهم هولاكو ، وقد كان الأمر كما قال قطز حيث انتكس التتار بعد مقتله وتقلص ملكهم .

وفي سجود مظفر الدين لله تعالى شكرا دلالة على عظمة اهتمامه بنصر الإسلام والمسلمين رحمه الله تعالى .

ومن مواقفه الجهادية أثناء المعركة ما ذكره المؤرخ يوسف ابن تغري بردي قال : ثم رحل الملك المظفر قطز بعساكره من غزة ونزل الغور بعين جالوت ، وفيه جموع التتار في يوم الجمعة خامس عشرين شهر رمضان [يعني من عام ثمانية وخمسين وستمائة] ووقع المصاف بينهم في اليوم المذكور وتقاتلا قتالا شديداً لم يُرَ مثله ، حتى قُتل من الطائفتين جماعة كثيرة ، وانكسرت ميسرة المسلمين كسرة شنيعة ، فحمل المظفر - رحمه الله - بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة حتى تحايوا وتراجعوا ، واقتحم الملك المظفر القتال وياشر ذلك بنفسه ، وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا ، وعظم الحرب ، وثبت كل من الفريقين مع كثرة التتار ، والمظفر مع ذلك يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت ، وهو يكرُّ بهم كرة بعد كرة ، حتى نصر الله الإسلام وأعزه ، وانكسرت التتار ، وولوا الأدبار على أقبح وجه بعد أن قُتل معظم أعيانهم ، وأصيب مُقدِّم العساكر التتارية كتبغانوين (١) .

وهكذا تبين لنا دور المظفر قطز رحمه الله في نجاح المسلمين في تلك المعركة حيث كانوا من قبل إذا انهزمت طائفة منهم انهزموا أمام

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٧٩ .

التتار ، ولكنه استطاع بمن معه من الأبطال أن يسدّ تلك الثغرة التي انفتحت بانكسار ميسرة جيش المسلمين ، ولقد كان لتشجيعه الجيش - وهو القائد - الأثر الكبير في ثبات أفراده حتى تحقق لهم النصر بإذن الله تعالى .

رؤيا صادقة تحمل البشارة بالنصر :

لقد كان من أهم الحوافز للأمير مظفر الدين على الإقدام على حرب التتار رؤيا صادقة رآها في صغره ، وفي بيان ذلك يقول المؤرخ يوسف بن تغري بردي نقلاً عن الشيخ قطب الدين اليونيني قال : حكى لي المولى علاء الدين بن غانم في غرة شوال سنة إحدى وتسعين وستمائة ببعلبك ، قال : حدثني المولى تاج الدين أحمد بن الأثير - تغمده الله برحمته - مامعناه : أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف - رحمه الله - لما كان على « برزة » في أواخر سنة سبع وخمسين وصله قُصَاد من الديار المصرية بكتب يخبرونه فيها أن قطز تسلطن وملك الديار المصرية وقبض على ابن أستاذه .

قال المولى رحمه الله : فطلبني السلطان الملك الناصر فقرأت عليه الكتب ، وقال لي : خذ هذه الكتب ورحُ إلى الأمير ناصر الدين القيمري والأمير جمال الدين بن يَغمور أوقف كلا منهما عليها ، قال : فأخذتها وخرجت فلما بعدت عن الدهليز لقيني حسام الدين البركة خاني وسلم علي وقال : جاءكم بريدي أو قُصَاد من الديار المصرية؟ فوريت وقلت : ماعندي علم بشيء من هذا ، قال : قطز تسلطن وتملك الديار المصرية ويكسر التتار .

قال تاج الدين : فبقيت متعجبا من حديثه وقلت له : أيش هذا القول ؟ ومن أين لك هذا ؟ قال : والله هذا قطز خشداشي^(١) ، كنت أنا وإياه عند الهيجاوي من أمراء مصر ونحن صبيان ، وكان عليه قمل كثير ، فكنت أسرح رأسه على أنني كلما أخذت منه قملة أخذت منه فلسا أو صفعته ، ثم قلت في غضون ذلك : والله ماأشتهي إلا أن يرزقني الله إمرة خمسين فارسا ، قال لي : طيب قلبك أنا أعطيك إمرة خمسين فارسا ، فصفعته وقلت : أنت تعطيني إمرة خمسين ! قال : نعم ، فصفعته وقال لي : وألك علة ! أيش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارسا ؟ أنا والله أعطيك ، قال : ويلك كيف تعطيني ؟ قال : أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذي طلبت ، قلت : ويلك أنت مجنون ! أنت بقمملك تملك الديار المصرية ؟ قال : نعم ، رأيت النبي ﷺ في المنام وقال لي : أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار ، وقول النبي ﷺ حق لاشك فيه ، قال : فسكت وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب .

قال تاج الدين : فلما قال لي هذا قلت له : وردت الأخبار بأنه تسلطن ، قال لي : والله هو يكسر التتار .

قال تاج الدين : فرأيت حسام الدين البركة خاني - الحاكي ذلك - بالديار المصرية بعد كسر التتار فسلم علي ، وقال : يامولاي تاج الدين تذكر ماقلت لك في الوقت الفلاني ؟ قلت : نعم ، قال : والله حالما عاد الملك الناصر من قطيا دخلت الديار المصرية أعطاني^(٢)

(١) أي كان تابعا لي .

(٢) يعني مظفر الدين قطز .

إمرة خمسين فارساً كما قال : لارائد على ذلك (١).

فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يُقدم على قتال التتار بعزم وقوة، بعدما نكل عن ذلك كثير من الأمراء أو قاتلوهم بضعف وخوف .

لقد دخل مظفر الدين تلك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ولجنده، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي ﷺ لهم بالتمكين في الأرض ، ومادامت هذه الرؤيا قد انتشرت - كما جاء في هذا الخبر - فإن الذين علموا بها من جنوده وقادته سيكونون أيضاً على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر ، فكان ذلك دافعا قويا لهم إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى، وبذلك انتصروا على أعدائهم .

وبعد معركة عين جالوت تجرأ المسلمون على أعدائهم من التتار وكانت لهم معهم مواقف جهادية مشرقة .

ومن ذلك ما ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بُرْدِي من أن التتار قدموا إلى الشام في أوائل شهر محرم من عام تسعة وخمسين وستمائة، فلما سمع بهم أهل حلب انسحب جيشها إلى حماة ، ثم انسحب جيش حلب وحماة إلى حمص فلما علم بهم التتار لحقوا بهم وكانوا في ستة آلاف ، فخرج إليهم المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص والجوكنداري العزيزي صاحب حلب بعساكرهم، فحمل

(١) النجوم الزاهرة ٨٧/٧ - ٨٩ ، وانظر البداية والنهاية ٢٣٩/١٣ .

المسلمون على التتار حملة رجل واحد فهزموهم وقتلوهم شر قتلة،
وهرب أمير التتار بيدرا في نفر يسير ، وكانت الوقعة عند قبر خالد بن
الوليد رضي الله عنه (١) .

(١) النجوم الزاهرة ١٠٦/٧ - ١٠٧ .

– مواقف الظاهر بيبرس في جهاد التتار (١) –

من الأعلام الذين كان لهم دور فعال في جهاد التتار السلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام الذي خلف السلطان مظفر الدين قطز ، وقد كان للظاهر بيبرس دور مهم في معركة عين جالوت فقد كان من أبرز قادتها ، وهو الذي قام بمهمة ملاحقة التتار حتى مدينة حلب .

يقول الحافظ ابن كثير في بيان مواقفه مع التتار : وقد كان هولاء كوخان لما بلغه ماجرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين فحيل بينهم وبين ما يشتهون ، فرجعوا إليه خائبين خاسرين ، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر الملك الظاهر ، فقدم دمشق ، وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة ، فلم يقدر التتار على الدنو إليه ، ووجدوا الدولة قد تغيرت ، والسواعد قد شمرت ، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت ، ورحمته بهم قد نزلت ، فعند ذلك نكصوا على أعقابهم ، وكروا راجعين القهقري ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات (٢) .

فهذا موقف يذكر للأمير الظاهر بيبرس البندقداري حيث سارع

(١) هو السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، تولى الحكم في سنة ثمان وخمسين وستمائة بعدما قتل السلطان مظفر الدين قطز ، وقد استمر الظاهر بيبرس في حكم مصر والشام حتى سنة ست وسبعين وستمائة حيث توفي في هذه السنة .

(٢) البداية والنهاية ١٣/٢٣٦

إلى ملاقاته التتار قبل أن يصلوا إلى دمشق، وفرق جنده على الثغور والمعاقل ، فحفظ بلاد الشام ، وأرعب التتار حتى نكصوا على أعقابهم وعرفوا أنه قد أصبح للمسلمين دولة قوية .

ومما يدل على عظمة هيبة السلطان الظاهر بيبرس عند التتار ما ذكره ابن تَغْرِي بَرْدِي من أن ملك التتار «أَبْغَابِن هولاكو» أمر عساكره بقصد البلاد الشامية ، فخرج عسكره في عشرة الاف فارس، وعليهم الأمير صَمَغْرَا والبرَوَانَاه (١) ، فلما بلغهم أن الملك الظاهر بالشام أرسلوا ألفاً وخمسمائة من المَغْل ليتجسسوا الأخبار ويغيروا على أطراف بلاد حلب ، وكان مُقَدَّمُهُم أَمَال بن يَبْجُونُون ، ووصلت غارتهم إلى عيتاب ثم إلى قسطون (٢) ، ووقعوا على تركمان نارلين بين حارم وأنطاكية فاستأصلوهم .

قال : فتقدم الملك الظاهر بتجفيل البلاد (٣) ليحمل التتار الطمع فيدخلوا فيتمكن منهم ، وبعث إلى مصر بخروج العساكر، فخرجت ومُقدَّمُهَا الأمير بَيْسَرِي، فوصلوا إلى السلطان وخرج بهم، فسبق إلى التتار خبره فولوا على أعقابهم (٤) .

وهكذا تبدلت الموازين والقوى ، فأصبح التتار يرهبون من المسلمين

(١) البرواناه لفظ فارسي معناه في الأصل الحاجب، ثم أطلق على الوزير الأكبر وهو سليمان بن علي الصاحب معين الدين وزير السلاجقة حكام بلاد الأناضول - عن هامش النجوم الزاهرة - .

(٢) عيتاب بلدة بين حلب وإنطاكية ، وقسطون حصن من أعمال حلب .

(٣) أي إظهار الجفل والخوف من التتار .

(٤) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٥ - ١٥٦ .

بعد أن كان المسلمون يرهبون منهم ، والناس هم الناس ، ولكن لما كان المسلمون متفرقين ومتناحرين فيما بينهم وليس عندهم اهتمام بجهاد الأعداء فإنهم قد ضعفوا وأصبحوا نهبا لأي دولة قوية تغير عليهم ، ولما ظهر فيهم الحاکمان القويان مظفر الدين قطز ثم الظاهر بيبرس قاما بتوحيد بلاد الشام ومصر في دولة واحدة قوية ، وكونا الجيوش القوية التي تحمل روح الجهاد .

معركة البيرة :

لقد اغتتم التتار فرصة بُعد السلطان الظاهر بيبرس عن شمال الشام فجاءوا من المشرق وتحالفوا مع الروم والسلاجقة الذين يحكمون جزءاً من بلاد الأناضول ، حتى وصلوا إلى بلدة « البيرة »^(١) ، وفي هذا الخبر ذكر الحافظ ابن كثير أن التتار نزلوا على مدينة « البيرة » في ثلاثين ألف مقاتل ، خمسة عشر ألفاً من المغول ، وخمسة عشر ألفاً من الروم ، والمقدم على الجميع « البرواناه »^(٢) بأمر « أبغا » ملك التتار ، ومعهم جيش الموصل وجيش ماردين والأكراد ، ونصبوا عليها ثلاثة وعشرين منجنيقا ، فخرج أهل البيرة في الليل فكبسوا عسكر التتار ، وأحرقوا المنجنيقات ونهبوا شيئاً كثيراً ، ورجعوا إلى بيوتهم سالمين ، فأقام عليها الجيش مدة ، ثم رجعوا عنها بغيتهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال^(٣) .

(١) هي بلدة تقع بين مدينة حلب وبلاد الروم .

(٢) هو معين الدين سليمان بن علي صاحب كما تقدم .

(٣) البداية و النهاية ١٣ / ٢٦٩ .

هذا وإن مقام به أهل بلدة البيرة يعتبر مثلاً عالياً للشهامة والشجاعة، وذلك لا يكون غالباً إلا نتيجة للإيمان القوي وابتغاء فضل الله تعالى وثوابه .

إن الذي يمنع الناس من الإقدام على القتال هو الخوف من القتل، ولكن العقلاء إذا تذكروا بأن الأعداء إذا استولوا على بلادهم قتلوهم شر قتلة وأهانوهم وانتهكوا أعراضهم . . . إذا تذكروا ذلك فإنهم يُقدمون جميعاً على قتال الأعداء لأنه إن قُتل بعضهم في ميدان المعركة كان أعزَّ لهم وأكرم ، هذا في مقتضى العقل السليم ، فكيف بالمؤمنين الذين وعدهم الله تعالى بالجنة في الآخرة إذا باعوا نفوسهم له جل وعلا وبذلوا طاقتهم في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ١٢

وإن مما يُذكر للسلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام أنه لما سمع بنزول التتار على البيرة أنفق على الجيش ستمائة ألف دينار، ثم ركب سريعا وفي صحبته ولده السعيد، فلما كان في أثناء الطريق بلغه رحيل التتار عنها فعاد إلى دمشق (١) .

فهذا موقف جهادي كبير لهذا السلطان ، يدل على اهتمامه البالغ بأمور المسلمين والقيام بنجدتهم وإرهاب الكافرين، ولعل رحيل الأعداء عن ذلك البلد كان سببه ما بلغهم من قصد السلطان إليهم، وهو الذي اشتهر عندهم بالقوة والشجاعة والحزم .

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٩ .

معركة أبلُستين (١) :

ومن أبرر مواقف السلطان الظاهر بيبرس الجهادية ما ذكره ابن تَغْرِي بَرْدِي من أن السلطان خرج من القاهرة يوم الخميس العشرين من شهر رمضان عام ستة وسبعين وستمائة نحو الشام قاصداً بلاد الروم ، فلما وصل بلاد الروم قدَّم الأمير شمس الدين سُنُقْرَ الأشقر على جماعة من العسكر وأمره بالمسير بين يديه ، فوقع على كتيبة من التتار وعدتهم ثلاثة آلاف فارس ، ومَقَدَّمُهُم «كراي» فهزَّمهم سنقر الأشقر وأسر منهم طائفة و ذلك في يوم الخميس تاسع ذي القعدة .

ثم ورد الخبر على الظاهر بأن عسكر الروم والتتار مع البرَّواناه اجتمعوا على نهر جِيحان (٢) ، فلما صعد العسكر الجبل أشرف على صحراء أبلُستين فشاهد التتار قد رتبوا عساكرهم أحد عشر فرقة في كل فرقة ألف فارس ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خوفاً من باطن يكون لهم مع المسلمين ، وجعلوا عسكر الكرج فرقة واحدة .

قال : فلما تراءى الجمعان حملت ميسرة التتار حملة واحدة وصدّموا سنجق الملك الظاهر ، ودخلت طائفة منهم بينهم وشقوا الميسرة وساقوا إلى الميمنة ، فلما رأى الملك الظاهر ذلك أردفهم بنفسه ، ثم لاحت التفاتة منه فرأى الميسرة قد أتت عليها ميمنة التتار ، فأمر الظاهر جماعة من أصحابه الشجعان بإردافها ، ثم حمل هو بنفسه رحمه الله ، فلما رأته العساكر حملت نحوه برمّتها حملة رجل

(١) مدينة مشهور ببلاد الروم ، وقد كانت آنذاك في سلطان السلاجقة .

(٢) هو نهر بالمصيصة ومنبعه من بلاد الروم .

واحد، فترجّل التار عن خيولهم وقاتلوا قتال الموت فلم يغن عنهم ذلك شيئاً ، وصبر لهم الملك الظاهر وعسكره وهو يكرّ في القوم كالأسد الضاري ، ويقتحم الأهوال بنفسه ، ويشجع أصحابه ويطيّب لهم الموت في الجهاد إلى أن أنزل الله تعالى نصره على المسلمين ، وانكسر التار أقبح كسرة ، فمنهم من قُتل ومنهم من أسر ، وبقيتهم فروا إلى الجبال فاعتصموا بها ، فقصدتهم العساكر الإسلامية وأحاطوا بهم ، فترجلوا عن خيولهم وقاتلوا فقتل منهم جماعة .

واستشهد من المسلمين جماعة ، منهم عدد من الأمراء (١) .

ولأنه لواضح من ملاحظة أحداث هذه المعركة أثر السلطان الظاهر بيبرس في إنجاحها ، وذلك بتشجيعه أفراد جيشه على الثبات وثباته بنفسه واقتحامه المخاطر ، وملاحظاته الدقيقة على مواقع الخلل في جيشه .

وإن مما يذكر لقادة ذلك الجيش وأفراده ثباتهم الراسخ أمام هجوم الأعداء العنيف بالرغم مما اعترى بعضهم من الانكسار المؤقت ولكن كان لشجعان المسلمين أثر في صد الأعداء حتى تراجع أفراد الجيش الإسلامي ، ثم صبروا لأعدائهم الذين استقتلوا وأظهروا التحدي حتى أنزل الله تعالى نصره على عباده المؤمنين وخذل أعداء المعتدين .

* * *

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٦٦ - ١٦٩ ، البداية والنهاية ١٣/ ٢٧١ - ٢٧٢ .

– مواقف السلطان قلاوون (١) –

معركة حول حمص :

ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي أن السلطان قلاوون سار من مصر إلى دمشق في عام ثمانين وستمائة ، وأنه ورد عليه خبر مجيء التتار إلى البلاد الشامية وهو بدمشق فتهاً لقتالهم ، وأرسل يطلب العساكر المصرية ، وبعد قليل حضرت عساكر مصر إلى دمشق ، واجتمعت العساكر عند السلطان ، ولم يتأخر أحد من التركمان والعربان وسائر الطوائف .

ووصل الخبر بوصول التتار إلى أطراف حلب ، فخلت حلب من أهلها وجندھا ونزحوا إلى جهة حماة وحمص ، وتركوا الغلال والحواصل والأمتعة .

ثم ورد الخبر بوصول مَنكُوتَمُر بن هولاكو ملك التتار إلى عِيَتَاب وماجاورها في يوم الأحد سادس عشرين جمادى الآخرة ، فخرج السلطان المنصور قلاوون بعساكره في يوم الأحد المذكور ، وخيم بالمرج ، ووصل التتار إلى بَغْرَاس ، فقدم السلطان المنصور عسكره أمامه ، ثم سافر في آخر جمادى الآخرة وسار حتى نزل بعساكره على حمص في شهر رجب .

وشرعت التتار تتقدم قليلا قليلا بخلاف عاداتهم ، فلما وصلوا حماة أفسدوا بنواحيها ، واستمر عسكر السلطان بظاهر حمص على حاله إلى أن وصلت التتار إليه في يوم الخميس رابع عشر شعبان ،

(١) هو السلطان المنصور قلاوون بن عبد الله التركي ، تولى الحكم سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة .

فركب المنصور بعساكره وصافً العدو ، والتقى الجمعان عند طلوع الشمس ، وكان عدد التتار على ما قيل مائة ألف فارس أو يزيدون ، وعسكرُ المسلمين على مقدار النصف من ذلك أو أقل ، وتواقعوا من ضحوة النهار إلى آخره ، وعظم القتال بين الفريقين وثبت كل منهم .

قال الشيخ قطب الدين اليونيني : وكانت وقعة عظيمة لم يُشهد مثلها في هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة ، وكان الملتقى فيما بين مشهد خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الرستن (١) والعاصي ، واضطربت ميمنة المسلمين وحملت التتار على ميسرة المسلمين فكسروها ، وانهزم من كان فيها ، وكذلك انكسر جناح القلب الأيسر ، وثبت السلطان المنصور قلاوون ، رحمه الله تعالى ، في جمع قليل بالقلب ثابتا عظيما ، ووصل جماعة كثيرة من التتار خلف المنكسرين من المسلمين إلى بحيرة حمص ، وأحرق جماعة من التتار بحمص وهي مغلقة الأبواب ، وبذلوا نفوسهم وسيوفهم فيمن وجدوه من العوام والسوقة والغلمان والرجالة المجاهدين بظاهرها ، فقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وأشرف الإسلام على خطة صعبة ، ثم إن أعيان الأمراء ومشاهيرهم وشجعانهم مثل سُنْقَرُ الأشقر ، وبدر الدين بَيْسَرِي ، وعلم الدين سَنْجَرُ الدويداري ، وعلاء الدين طَيْبَرَسُ الوزيرِي ، وبدر الدين بيليك ، وسيف الدين أَيْتَمُشُ السعدي ، وحسام الدين لاجين المنصوري ، والأمير حسام الدين طُرَنْطَاي ، وأمثالهم لما رأوا ثبات السلطان ردوا على التتار وحملوا عليهم حملات حتى كسروهم كسرة عظيمة ، وجرح مَنكُوتْمَرُ مقدَّم التتار .

(١) الرستن قرية بين حمص وحماه تشرف على نهر العاصي .

وجاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا في عَرَبِه عَرَضًا ،
فتمت هزيمتهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تُجَاوِز الوصف ، واتفق أن
ميسرة المسلمين كانت قد انكسرت كما ذكرنا ، والميمنة ساقَت على
العدو ولم يبق مع السلطان إلا النفر اليسير ، والأمير حسام الدين
طرنطاي قَدَّامَه بالسناجق^(١) ، فعادت الميمنة الذين كسروا ميسرة
المسلمين في خلق عظيم ومروا به ، وهو في ذلك النفر تحت السناجق
(يعني السلطان المنصور قلاوون) والكوسات تُضْرَب ^(٢) .

قال : ولقد مرت به في ذلك الوقت وماحوله من المقاتلة ألف إلا
دون ذلك ، فلما مروا به (يعني ميمنة التتار التي كانت كَسَرَت
ميسرة المسلمين) ثبت لهم ثباتًا عظيمًا ، ثم ساق عليهم بنفسه
فانهزموا أمامه لا يلوون على شيء ، وكان ذلك تمام النصر ، وكان
انهزامهم عن آخرهم قبل الغروب ، وافترقوا فرقتين : فرقة أَخَذَتْ
جهة سَلَمِيَّةَ والبرِّيَّةَ ، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات .

قال : ولما انقضى الحرب في ذلك النهار وعاد السلطان إلى
منزلته ، وأصبح بكرة يوم الجمعة سادس عشر رجب جهز السلطان
وراءهم جماعة كثيرة من العسكر والعربان ، ومقدمهم الأمير بدر الدين
بيليك الأيْدَمُرِي .

قال : وكُتِبَت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد وحصل
للناس السرور الذي لا مزيد عليه ، وعُمِلَت القلاع ورُئِنَت المدن ، أما

(١) وتنطق الصناجق أيضا وهي كلمة تركية معناها اللوية .

(٢) هي الطبول الكبار وتستعمل في الحرب .

أهل دمشق فإنه كان ورد عليهم الخبر أولاً بكسرة المسلمين، ووصل إليهم جماعة ممن انهزم، فلما بلغهم النصر كان سرورهم أضعاف سرور غيرهم، وكان أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى ملتقى التتار وهم يدعون الله تعالى في كل يوم ويبتهلون إليه، وخرج أهل البلاد بالنساء والأطفال إلى الصحاري والجوامع والمساجد، وأكثروا من الابتهاال إلى الله عز وجل في تلك الأيام لا يفترون عن ذلك، حتى ورد عليهم النصر العظيم ولله الحمد وطابت نفوس الناس، ورد من كان نزح عن بلاده وأوطانه، واطمأن كل أحد وتضاعف شكر الناس لذلك.

قال: وقُتل في هذه الواقعة من التتار ما لا يحصى كثرة، وكان من استشهد من عسكر المسلمين دون المائتين على ما قيل (١).

وهكذا عشنا مع أحداث هذه المعركة الكبيرة التي خطط لها التتار وجمعوا لها الجموع الكثيرة ليقضوا بها على وجود المسلمين ودولتهم القوية في مصر والشام، ولكن ظنونهم خابت، وأحلامهم تبددت أمام ثبات شجعان المسلمين.

لقد تعود التتار على الهجوم الصاعق في بداية المعارك الذي يعقبه انهزام كثير من المسلمين وفرارهم، لكنهم وجدوا منهم في معركة عين جالوت وماتلاها غير ماتعودوا منهم، إلا أنهم في هذه المعركة قد اعتدوا بكثرة جمعهم، وهم يعلمون أن المسلمين لا يستطيعون أن يجمعوا مثلهم فأقدموا على قتالهم، غير أن الفارق في العدد عوضه

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٠١ - ٣٠٥.

شجاعة الشجعان بعد الأمل الكبير في نصر الله تعالى والتوكل عليه .
وفي عرض مقطع من هذه المعركة يتبين لنا أهمية الثبات والصبر
في النصر ، وذلك فيما فعلته ميمنة التتار حيث هجموا على ميسرة
المسلمين وهم ألوف فانهزموا ، بينما لما هجم هؤلاء التتار على السلطان
قلاوون ثبت لهم وصبر وهو في ألف أو أقل حتى هزمهم وفرقهم .
وأخيراً فإن لما قام به المسلمون من دعاء الله تعالى والتضرع إليه
على النحو المذكور أثراً معلوماً في تنزل نصر الله تعالى فإنه جل وعلا
مع عباده المؤمنين بنصره وتأييده إذا لجئوا إليه بإخلاص وصدق .

- دخول التتار في الإسلام -

إن من عجائب التاريخ أن تلك الأمة الهمجية تدخل في الإسلام حيث أسلم بركه خان أحد زعماء التتار وأسلم كثير من قومه، وبلغ من إخلاصه أنه قام بحروب كبيرة ضد ابن عمه هولاكو خان زعيم التتار الذي قضى على دولة الإسلام وقتل مئات الألوف من المسلمين، يقول الحافظ ابن كثير عن بركه خان: السلطان بركه خان بن تولى بن جنكيزخان، وهو ابن عم هولاكو، وقد أسلم بركه خان هذا، وكان يحب العلماء والصالحين، ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده، وكان يناصر الملك الظاهر ويعظمه ويكرم رسله إليه، ويطلق لهم شيئاً كثيراً، وقد قام بالملك بعده بعض أهل بيته وهو منكوتر بن طغان بن بابوين بن تولى بن جنكيزخان، وكان على طريقته ومنواله ولله الحمد (١).

والى بركه خان هذا يرجع الفضل بعد الله تعالى في دحر هولاكو وصدّه عن إكمال هجومه على بلاد الإسلام .

بل إنه قد دخل في الإسلام أحد بناء هولاكو وهو أحمد وقد أصبح سلطاناً على التتار بعد أخيه أبغا بن هولاكو، وذلك في عام واحد وثمانين وستمائة ، ذكر ذلك المؤرخ ابن تَغْرِي بَرْدِي وذكر أنه مسلم حسن الإسلام، وعمره يومئذ مقدار ثلاثين سنة، وأنه وصلت أوامره إلى بغداد تتضمن إظهار شعائر الإسلام وإقامة مناره، وأنه أعلى الدين، وبنى الجوامع والمساجد والأوقاف ورتب القضاة، وأنه انقاد

(١) البداية والنهاية ٢٤٩/١٣ .

إلى الأحكام الشرعية، وأنه ألزم أهل الذمة بلبس الغيار^(١) وضرب عليهم الجزية^(٢) .

ثم أظهر الإسلام ملك التتار قازان بن أرغون بن أباقا بن هولاكو، وسمى نفسه بعد الإسلام محمودا، ولكن كانت أعماله مع المسلمين تتنافى مع الإسلام .

وإن في دخول هذه الأمة في الإسلام دليلا على عظمة الإسلام، وعلى مقدار اعتزاز المسلمين بإسلامهم ، فإن المعروف في تاريخ الأمم- في حال اكتساح أمة لأمة أخرى في الحروب - أن المغلوب يقلد الغالب ، فيتأثر بسياسته وأخلاقه وأفكاره الدينية ، فيكون الغزو الفكري تابعا للغزو العسكري ، لكن الذي حصل للأمة الإسلامية آنذاك كان بضد ذلك حيث كان المسلمون يحتقرون التتار ويحكمون عليهم بالانحطاط الفكري والخلقي ، بينما أدرك التتار عظمة المسلمين في المجال الفكري والأخلاقي، والاجتماعي والسياسي والاقتصادي . . ثم لما حللوا ذلك وجدوا أن سر تلك العظمة يكمن في الدين الإسلامي العظيم الذي يحكم جميع تصرفات المسلم وسلوكه في هذه الحياة . . إنهم لم يروا دين الإسلام محصورا في شعائر تعبدية ، ثم ينطلق المسلمون بعد ذلك في حياتهم على مقتضى ما تمليه عليهم أفكارهم وأهواؤهم ، لأنهم وجدوا أن أنظمة الإسلام السياسية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية تفوق مستوى تفكير الإنسان،

(١) يعني اللباس الذي يتميزون به كالزئار ونحوه .

(٢) النجوم الزاهرة ٣١٠ / ٧ .

ولاتتغير بتغير البلاد والزمان ، فأدركوا أن وراء هذا التفكير الموحد الذي شمل أكثر بلاد العالم قوة عظمى ومبادئ عليا يخضع لها جميع المسلمين ، فقادهم ذلك إلى تعظيم الإسلام والدخول فيه .

لقد كان دخول رعماء التتار في الإسلام يعني توقف الحرب بينهم وبين دولة الإسلام القائمة في مصر والشام ، خصوصا وأن الخلافة الإسلامية قد قامت في هذه الدولة بعد أن بايع السلطان الظاهر بيبرس المستنصر بالله أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر العباسي وذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة ، فصار الاعتداء على هذه الدولة يعني الخروج على الخلافة .

— مواقف السلطان محمد بن قلاوون (١) —

ذكر المؤرخ يوسف بن تغري بردي أن قازان ملك التتار قد رحف على بلاد الشام بجيش كبير وذلك في عام تسعة وتسعين وستمائة، وأن السلطان محمد بن قلاوون قد خرج من مصر إلى الشام ووصل إلى دمشق ثم رحف إلى حمص وانضم جيش الشام إلى جيش مصر، والتقوا مع التتار قرب مدينة سَلَمِيَّة يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول، وحملت ميسرة المسلمين على التتار فكسرتهم أقبح كسرة، وقتلوا منهم نحو خمسة آلاف أو أكثر ولم يقتل من المسلمين إلا اليسير، ثم حمل قلب المسلمين أيضًا حملة هائلة وصدموا العدو أعظم صدمة، وثبت كل من الفريقين ثباتًا عظيمًا، ثم حصل تخاذل في عسكر الإسلام بعضهم في بعض، بلاء من الله تعالى، فانهزمت ميمتهم بعد أن كان لاح لهم النصر، فلاقوة إلا بالله، ولما انهزمت الميمنة انهزم أيضًا من كانوا وراء القلب من غير قتال، وألقى الله الهزيمة عليهم فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر، وانسحب السلطان في طائفة يسيرة من أمرائه ومُدَبِّرِي مملكته، وترك أفراد الجيش العتاد والسلاح والمؤن وحاولوا النجاة بأنفسهم.

ولقد أصاب أهل الشام رعبٌ عظيم حينما علموا بهزيمة جيش

(١) هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون التركي، وهو أشهر سلاطين المماليك وقد تولى السلطنة ثلاث مرات : الأولى ما بين عامي ثلاثة وتسعين وأربعة وتسعين وستمائة، والثانية ما بين عامي ثمانية وتسعين وستمائة وثمانية وسبعمائة، والثالثة استقر بالسلطنة ما بين عامي تسعة وسبعمائة وواحد وأربعين وسبعمائة.

السلطان ، ولكن خفف من رعبهم حينما علموا أن قازان مسلم وأن غالب جيشه من المسلمين ، وأنهم لم يتبعوا المنهزمين (١) .

أما سبب انهزام المسلمين بعدما لاح لهم النصر فقد ذكره السلطان محمد بن قلاوون في خطابه الذي بعثه لقازان ملك التتار جوابا على خطاب قازان الذي يذكر فيه إسلامه وإسلام قومه وأن السبب في غزوه بلاده هو اعتداء بعض رعية السلطان على بعض رعية ملك التتار، وقد أنكر عليه السلطان ما يحصل من التتار من الإفساد في الأرض مع كونهم يظهرون الإسلام ، وأبان له بأن سبب انهزام المسلمين من جيشه هو معرفتهم بأن ملك التتار مسلم وأن غالبية جيشه قد أظهروا الإسلام فأصابهم عند ذلك شيء من التردد في جوار قتالهم (٢) .

ولقد جدَّ المسلمون بعد ذلك من جيش دولة الخلافة في قتالهم حينما بان لهم إفسادهم وأفتاهم العلماء بأنهم يشبهون الخوارج كما سيأتي .

وهذه المعركة وإن كانت نتيجتها لصالح التتار فإن فيها مواقف تشكر لجيش الشام ومصر وخاصة السلطان محمد بن قلاوون الذي كان آنذاك لم يبلغ الخامسة عشرة من العمر ولكن كان في دولته عدد من الأمراء الشجعان وكان لهم دور جيد في ثبات الجيش أول المعركة .

مواقف لشيخ الإسلام ابن تيمية :

وفي أثناء ذلك جرى موقف كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه

(١) النجوم الزاهرة ٨ / ١٢٠ - ١٢٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨ / ١٤٢ - ١٤٦ .

الله تعالى ، وذلك حينما خرج من دمشق هو وعدد من العلماء والأعيان لتلقي قازان وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، وقد ذكر ذلك الحافظ ابن كثير ، وذكر عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر البالسي حكاية ماجرى من ذلك ، فقال : وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ ابن تيمية لما تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه: قل للقازان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاض وإمام وشيخ على ما بلغنا ، فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا ؟

قال : وجرت له مع قازان وقطلو شاه وبولاي أمور ونُوبٌ قام فيها ابن تيمية كلها لله وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل .

قال : وقرب إلى الجماعة طعاما فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقليل له : ألا تأكل ؟ فقال : كيف أكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟

قال : ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه : « اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لك فانصره وأيده وملّكه البلاد والعباد ، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلبا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليُذَل الإسلام وأهله فاخذه وزلزله ودمره واقطع دابره » ، قال : وقازان يؤمن على دعائه ويرفع يديه .

قال : فجعلنا نجمع ثيابنا خوفا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله .
قال : فلما خرجنا من عنده قال له القاضي نجم الدين بن صُصُري

وغيره : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك ، والله لانصحبك من هنا ، فقال : وأنا والله لا أصحبكم .

قال : فانطلقوا عصابة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه ، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه ، وهو سائر إلى دمشق وينظرون إليه ، قال : والله ماوصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه ، وكنت أنا من جملة من كان معه ، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فشلحوهم عن آخرهم ، هذا الكلام أو نحوه ، وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره (١) .

ففي هذا الخبر عدة مواقف وعبر :

أولا : في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أمام ملك التتار الجبار ، ذلك الكلام القوي الرصين الذي أنكر عليه فيه قيامه بظلم المسلمين ، وذلك في قتالهم ونهب أموالهم مع أنه مسلم ويظهر شعائر الإسلام .

ثانياً : في دعائه القوي الواضح الذي دعا فيه لملك التتار إن كان يريد عزة الإسلام والمسلمين ، ودعا عليه بتلك الدعوات القوية الساحقة إن كان يريد إذلال الإسلام والمسلمين .

ثالثاً : في ورعه الدقيق ، حيث امتنع عن الأكل من طعام التتار لكونه مما نهبه من أموال المسلمين .

وفي هذه المواقف كان رحمه الله تعالى في غاية القوة والجرأة في قول الحق أمام سلطان جبار قد اشتهر بالبطش والعنف .

(١) البداية والنهاية ٨/١٤ ، ٩١ - ٩٢ .

ولقد كان الإقدام على الإنكار على ذلك السلطان الجبار يعتبر إقداما على الشهادة في سبيل الله تعالى في أغلب الاحتمالات ، ولا يمكن أن يقدم على ذلك إلا من قد حملوا أرواحهم على أكفهم وأصبح هدفهم الأعلى هو إظهار عزة الإسلام وإنصاف المظلومين مهما تكن النتائج في ذلك ثم إنه لا يقوى على الوقوف مثل ذلك الموقف إلا الرجل الذي امتلأ قلبه إيمانا بالله عز وجل وكان قوي الاستحضار لعظمته وجلاله ، لأن فكره - والحال هذه - لا يتصور قوة ولا عظمة في الوجود إلا قوة الله جل وعلا وعظمته ، بينما تتلاشى من نظريه كل مظاهر القوة والعظمة التي يظهر بها سلاطين البشر .

ولقد كان هذا هو الدافع لشيخ الإسلام ابن تيمية ليقف ذلك الموقف العظيم ، ولقد عبر عن ذلك بقوله لمن سأله عن موقفه ذلك : ذكرت عظمة الله تعالى فأصبح السلطان أمامي كالقط .

رابعاً : في هذا الخبر عبرة عظيمة ، وذلك في موقف السلطان قازان من شيخ الإسلام ابن تيمية حيث لان له حتى أصبح بن يديه كالحمل الوديع ، وتلاشى عنه جبروته وتعاضمه وأبهة سلطانه ، وأصبح من تأثره بكلام ابن تيمية إلى حد أنه طلب الدعاء له وكان يؤمن على دعائه حتى حينما دعا عليه إذا هو انحرف عن الطريق المستقيم ، ولا شك أن ذلك من تسخير الله تعالى ، حيث ألان قلب ذلك السلطان لابن تيمية ، فإن القلوب كلها بيد الله عز وجل يصرفها كيف يشاء .

خامساً : وفيه عبرة فيما حدث لابن تيمية في رجوعه إلى

دمشق ، وما حدث لمعارضيه الذين أبوا أن يصاحبوه لظنهم أن سلطان التتار سيرسل إلى ابن تيمية من ينتقم منه في الطريق ، فكان الأمر على خلاف ماتوقعوا ، حيث رجع ابن تيمية إلى دمشق في عزة وحماية قوية من فرسان التتار الذين أعجبوا به وبالغوا في احترامه ، بينما رجع أولئك الذين فارقوه بشرّ حال ، وذلك كله مع ماسبق يوضح لنا معية الله تعالى لأوليائه بالنصر والتأييد جزاء لهم على توكلهم عليه وتعظيمهم إياه واستمدادهم النصر منه ، وخذلانه لمن غاب عن باله تصور عظمته ، وهيمن على قلبه تصور عظمة المخلوقين والرهبة منهم .

موقف جهادي لنائب القلعة :

ولما استولى التتار على بلاد الشام عاثوا في الأرض فساداً هم وأتباعهم من النصارى فقتلوا في دمشق وماحولها عدداً كبيراً من المسلمين وسبوا كثيراً من النساء والأطفال ونهبوا كثيراً من الأموال ، وولوا على نيابة الشام سيف الدين قبجق المنصوري الذي كان لجأ إليهم قبل ذلك لخلاف بينه وبين سلطان مصر والشام ، قال الحافظ ابن كثير : وأرسل قبجق إلى نائب القلعة [يعني أرجواش المنصوري] ليسلمها إلى التتار فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع فجمع له قبجق أعيان البلد فكلّموه أيضاً فلم يجبههم إلى ذلك ، وصمم على ترك تسليمها إليهم وبها عين تطرف ، فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك : لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزا

لأهل الشام التي لاتزال دار إيمان وسنة حتى ينزل بها عيسى بن مريم عليه السلام (١) .

فهذا موقف يذكر لنائب القلعة أرجواش حيث صمم على عدم تسليم القلعة لنائب التتار ، مع أن الشام كله قد سقط بأيدي التتار ، فما نسبة هذه القلعة إلى بلاد الشام ؟ ومع ذلك ومع احتمال قيام التتار بتدمير تلك القلعة فقد ثبت فيها نائبها ومن معه من الجنود وأبى أن يسلمها .

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية تأثير واضح وقوي على نائب القلعة ، حيث ائتمر بأمره القوي الصارم الذي يلزمه بالثبات حتى هدم آخر حجر في تلك القلعة ، وهذا الموقف من شيخ الإسلام يدل على روح جهادية عالية تتسم بالقوة والثبات والتصميم على الدفاع عن الإسلام والمسلمين حتى آخر قطرة من دمه ودم أتباعه ، هذا مع قلة مؤيديه الذين يأترون بأمره فكيف لو كان معه جيش كبير ؟

ولقد كان تصميم أرجواش نائب القلعة ثابتاً ، فلقد كلّمه - إضافة إلى أمير دمشق - الأمير حسام الدين لاجين والأمير بكتمر وغيرهما في تسليم قلعة دمشق إلى نائب التتار وقالوا له : دَمُ المسلمين في عنقك إن لم تسلمها ، فأجابهم : دم المسلمين في أعناقكم ، أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى قازان وحستم له المجيء إلى دمشق وغيرها ، ثم وبخهم ، ولم يسلم قلعة دمشق ، وتهيأ للقتال والحصار واستمر على حفظ القلعة ، ثم ترادفت قُصَادُ

(١) البداية والنهاية ٩/١٤ .

غازان إلى أرجواش هذا وطال الكلام بينهم في تسليم القلعة، فثبته الله تعالى ومنع ذلك بالكلية، وكان هؤلاء الأمراء قد لجئوا إلى قازان فراراً من الملك محمد بن قلاوون حاكم مصر والشام (١).

وذكر الحافظ ابن كثير بعض مافعلته عصابات التتار بأهل الشام من القتل والنهب ثم قال: وخرج الشيخ ابن تيمية في جماعة من أصحابه يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر - يعني من عام تسعة وتسعين وستمائة - إلى ملك التتر، وعاد بعد يومين ولم يتفق اجتماعه به، حجه الوزير سعد الدين والرشيد مشير الدولة والتزما له بقضاء الشغل، وذكر له أن التتر لم يحصل لكثير منهم شيء إلى الآن ولا بد لهم من شيء (٢).

وهذه هي المحاولة الثانية من شيخ الإسلام ابن تيمية في مقابلة ملك التتار، مما يدل على تفانيه في إعزاز الإسلام وحماية المسلمين، وتضحيته بنفسه ووقته من أجل ذلك، ولكن تبين من كلام وزراء قازان بأن التتار لن يرجعوا إلا وقد أخذوا من الأموال مايكفيهم، وقد حصل لهم نائبهم قبجق وعماله كثيراً من أموال الناس بالقوة (٣).

وذكر الحافظ ابن كثير دخول التتار إلى دمشق، واستيلاءهم على كثير من أموال الناس، ثم قال: وشرع التتر في عمل مجانيق بالجامع ليرموا بها القلعة من صحن الجامع، وغلقت أبوابه، ونزل التتار في مشاهدته يحرسون أخشاب المجانيق وينهبون ماحوله من الأسواق.

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٢٥.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٠.

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ١٠، النجوم الزاهرة ٨/ ١٢٦.

قال : وفي ذلك اليوم - يعني يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى من عام تسعة وتسعين وستمئة - توجه السلطان قازان ، وترك نوابه بالشام في ستين ألف مقاتل نحو بلاد العراق ، وجاء كتابه : « إنا تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل ، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها » وقد أعجزتهم القلعة أن يصلوا إلى حجر منها وخرج سيف الدين قبجق لتوديع قطلوشاه نائب قازان ، وسار وراءه ، وضربت البشائر بالقلعة فرحا لرحيلهم ولم تفتح القلعة ، وأرسل أرجواش ثاني يوم من خروج قبجق القلعية إلى الجامع فكسروا أخشاب المنجنيقات المنصوبة به ، وعادوا إلى القلعة سالمين (١) .

وهكذا كان أصحاب القلعة هم الوحيدون الذين صمدوا في وجه التتار وأعجزوهم عن فتح القلعة ، وإن المتأمل ليعجب من فتحهم الشام كله وعجزهم عن فتح قلعة ، مما يدل على أن سلامة هذه القلعة منهم مع كثرتهم وكثرة ما يملكونه من الأسلحة ووسائل التدمير دليل على نصر الله تعالى أوليائه المؤمنين وخذلان أعدائهم .

وقال الحافظ ابن كثير في خبر هذه القلعة : وخرج طائفة من القلعة فقتلوا طائفة من التتار ونهبوهم ، وقتل جماعة من المسلمين في غبون ذلك ، وأخذوا طائفة ممن كان يلوذ بالتتر ، ورسم قبجق لخطيب البلد وجماعة من الأعيان أن يدخلوا القلعة فيتكلموا مع نائبها في المصالحة ، فدخلوا عليه يوم الإثنين ثاني عشر جمادى الآخرة ، فكلموه

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٠ .

وبالغوا معه ، فلم يجب إلى ذلك ، وقد أجاد وأحسن وأرجل في ذلك بيض الله وجهه (١) .

فيا ترى لو كان قادة بلاد الشام وجنودها من أمثال هذا القائد القوي الحازم وجنوده المطيعين المنتظمين هل يكون للتار وغيرهم من أعداء الإسلام موطئ قدم ١٢

لقد كان أمل أرجواش كبيراً في أن يزول التار وأن تعود بلاد مصر والشام دولة واحدة ، وهذا ما تحقق بعد ذلك حيث جلا التار وعادت دولة الإسلام القوية ، وكانت قلعة دمشق رمز الثبات الذي حطم كبرياء التار ومنعهم من دعوى الاستيلاء على الشام كله .
مواقف أخرى لابن تيمية وغيره :

ولما رحل قازان إلى العراق ببعض جيشه وترك جيشاً في الشام بقيادة بولاي كان لشيخ الإسلام ابن تيمية موقف مع بولاي ذكره الحافظ ابن كثير فقد ذكر أنه في اليوم الثامن من شهر رجب من العام التاسع والتسعين وستمائة خرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مخيم بولاي فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين فاستنقذ كثيراً منهم من أيديهم وأقام عنده ثم عاد (٢) .

فهذا مثل من بذل الإحسان والسعي في إنقاذ المسلمين من الضرر ، حيث غامر شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه وذهب إلى والي التار وسعى في إنقاذ أسرى المسلمين ، وهذا يعتبر من الأعمال

(١) البداية والنهاية ١٤/١١ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/١١ - ١٢ .

الجهادية العالية، من حيث اشتماله على المشقة الكبيرة في مخاطبة الجبارين واحتمال التعرض للشهادة في سبيل ذلك .

هذا وقد ذكر الحافظ ابن كثير رحيل بقية جيش التتار خوفاً من جيش مصر القادم ، وفي ذلك يقول : ونودي بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام، وفي عشية يوم السبت رحل بولاي وأصحابه من التتار وانشمروا عن دمشق، وقد أراح الله منهم . . إلى أن قال : ونادى أرجواش في البلد : احفظوا الأسوار وأخرجوا ما كان عندكم من الأسلحة، ولا تهملوا الأسوار والأبواب ، ولا يبيتن أحد إلا على السور، ومن بات في داره شئ، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد ، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط (١) .

وهذا موقف حزم وعزم من شيخ الإسلام ابن تيمية ونائب القلعة أرجواش ، حيث حوّلوا المسلمين كلهم في البلد إلى مجاهدين، وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون مجاهداً إذا احتاجت إليه الأمة، وأن يكون كل أفراد الأمة جنوداً احتياطيين ينفرون إلى الجهاد عند اللزوم .

وذكر الحافظ ابن كثير أنه في مستهل صفر من عام سبعمائة وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام وأنهم عازمون على دخول مصر فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم . . إلى أن قال : وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية في ثاني صفر بمجلس في الجامع وحرّض الناس على القتال، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في

(١) البداية والنهاية ١٢/١٤ .

ذلك، ونهى عن الإسراع في الفرار ، ورغب في إنفاق الأموال في الذبّ عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن ما ينفق في أجره الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيرا، وأوجب جهاد التتار حتما في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك .

كما ذكر أن الشيخ زين الدين الفارقي وإبراهيم الرقي وابن قوام وشرف الدين ابن تيمية وابن خبارة خرجوا إلى نائب السلطنة الأفرم - وكان مرابطا في المرج - فقوموا عزمه على ملاقاته العدو، واجتمعوا بمهنا أمير العرب فحرضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة، وقويت نياتهم على ذلك (١).

وهذا موقف يذكر لهؤلاء العلماء فقد قاموا بمهمتهم وأدوا الأمانة التي جعلها الله تعالى في رقابهم، فالعلماء هم المسئولون عن تبليغ الإسلام ، وهم أول المسئولين عن إصلاح المجتمع الإسلامي وإعداده للجهاد وحماية دار الإسلام .

وقال الحافظ ابن كثير في بيان ماجرى بعد ذلك وماحصل من مواقف : واستهل جمادى الأولى - يعني من عام سبعمائة - والناس على خطة صعبة من الخوف، وتأخر السلطان واقترب العدو، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى في مستهل هذا الشهر، وكان يوم السبت إلى نائب الشام في المرج (٢) فثبتهم وقوى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الأعداء ، وتلا قوله تعالى

(١) البداية والنهاية ١٤/١٥ - ١٧ .

(٢) يعني بذلك الأفرم نائب السلطان في الشام وكان مرابطا مع الجيش في المرج .

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ [الحج : ٦٠] وبات وبات عند العسكر ليلة الأحد، ثم
عاد إلى دمشق ، وقد سأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى
مصر يستحث السلطان على المجيء ، فساق وراء السلطان، وكان
السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة،
وتفارط الحال، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان
لهم به حاجة، وقال لهم : إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا
له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى
جردت العساكر إلى الشام ، ثم قال لهم : لو قُدر أنكم لستم حكام
الشام ولا ملوكه واستنصر أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم
حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم ، وقوى جأشهم
وضمن لهم النصر هذه الكرة ، فخرجوا إلى الشام ، فلما تواصلت
العساكر إلى الشام فرح الناس فرحا شديداً بعد أن كانوا يثسوا من
أنفسهم وأهليهم وأموالهم .

قال : ورجع الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في
السابع والعشرين من جمادى الأولى على البريد ، وأقام بقلعة مصر
ثمانية أيام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو ، وقد اجتمع
بالسلطان - يعني الناصر محمد بن قلاوون - والوزير وأعيان الدولة
فأجابوه إلى الخروج (١) .

وهذا موقف جهادي كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث أثر

(١) البداية والنهاية ١٤/١٦ - ١٧ .

بتوجيهاته السديدة القوية على سلطان مصر والشام ووزرائه حتى حملهم على تجهيز الجيش لملاقاة جيش التتار .

ولقد ضرب ابن تيمية بهذا مثلاً عالياً للعالم الرباني المجاهد الذي طبق كل ماتعلمه من الإسلام حتى ما هو شاق على النفوس كالجهاد وإنكار المنكر .

وهكذا أظهر ابن تيمية صورة العالم الديني بأنه ذلك العالم الذي يبصر المسلمين بجميع واجباتهم ، ويسارع في نجاتهم وإنقاذهم من الكوارث والنكبات . . . العالم الذي يبرز عند الفزع ويتوارى عند الطمع ، وليس ذلك العالم الذي يقبع في زاوية من زوايا المسجد أو المدرسة الدينية يدرس العلم ولا يهمه أمر المسلمين . . . وليس العالم الذي يتهالك على الدنيا وينافس عليها أهلها .

مقارنة بين الأحزاب والتتار :

عقد شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية مقارنة جيدة بين الأحزاب الذين تحزبوا ضد رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة النبوية وموقف الرسول ﷺ والصحابة منهم وبين التتار الذين تحزبوا مع الأعداء الآخرين ضد المسلمين في أواخر القرن السابع ، وفي ذلك يقول رحمه الله تعالى :

ثم إنه تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩] .

ثم ذكر قصة الأحزاب باختصار إلى أن قال في قصة التتار : وفي

هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مغل وغيرهم من أنواع الترك ، ومن فرس ومستعربة ، ونحوهم من أجناس المرتدة ، ومن نصارى الأرمن وغيرهم . ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين ، وهو بين الإقدام والإحجام ، مع قلة من يزارتهم من المسلمين . ومقصودهم الاستيلاء على الدار ، واصطلام أهلها . كما نزل أولئك بنواحي المدينة بآراء المسلمين .

ودام الحصار على المسلمين عام الخندق - على ما قيل - بضعا وعشرين ليلة . وقيل : عشرين ليلة .

وهذا العدو عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر ، وكان أول انصرافه راجعا عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه : يوم الاثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى ، يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة . واجتمع بهم الداعي ، وخاطبهم في هذه القضية . وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف .

وكان عام الخندق برد شديد ، وريح شديدة منكرة ، بها صرف الله الأحزاب عن المدينة ، كما قال تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ﴾ .

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد . على خلاف أكثر العادات . حتى كره أكثر الناس ذلك . وكنا نقول لهم : لا تكرهوا ذلك فإن لله فيه حكمة ورحمة . وكان ذلك من أعظم

الأسباب التي صرف الله به العدو : فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد ، حتى هلك من خيلهم ماشاء الله . وهلك أيضا منهم من شاء الله . وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع مارأوا أنهم لاطاقة لهم معه بقتال . حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال : لا يبيض الله وجوهنا : أعدونا في الثلج إلى شعره ، ونحن قعود لاناخذهم ، وحتى علموا أنهم كانوا صيدا للمسلمين ، لو يصطادونهم ، لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة .

وقال الله في شأن الأحزاب : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ [١٠] هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿ [الأحزاب : ١٠ ، ١١] .

وهكذا هذا العام . جاء العدو من ناحيتي علو الشام ، وهو شمال الفرات . وقبلتي الفرات . فزاغت الأبصار ريغا عظيما ، وبلغت القلوب الحناجر لعظم البلاء ، لاسيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر ، وتقرب العدو ، وتوجهه إلى دمشق . وظن الناس بالله الظنون . هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام ، حتى يصطلموا أهل الشام . وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة ، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر . وهذا يظن أن أرض الشام مابقيت تسكن ، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام . وهذا يظن أنهم يأخذونها ، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها ، فلا يقف قدامهم أحد ، فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ، ونحوها . وهذا - إذا أحسن

ظنه - قال: إنهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين . ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم ، كما خرج ذلك العام . وهذا ظن خيارهم . وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار النبوية ، وأهل التحديث والمبشرات أمانى كاذبة ، وخرافات لاغية . وهذا قد استولى عليه الرعب والفرع ، حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب ، ليس له عقل يفهم ، ولا لسان يتكلم .

وهذا قد تعارضت عنده الأمارات ، وتقابلت عنده الارادات ، لاسيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب . ولا يميز في التحديث بين المخطئ والصائب . ولا يعرف النصوص الاثرية معرفة العلماء ، بل إما أن يكون جاهلا بها وقد سمعها سماع العبر ، ثم قد لا يتفطن لوجوه دلالتها الخفية ، ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الروية .

فلذلك استولت الحيرة على من كان متسما بالاهتداء ، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١] . ابتلاهم الله بهذا الابتلاء ، الذي يكفر به خطيئاتهم ، ويرفع به درجاتهم . وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ، ما استوجبوا به أعلى الدرجات . قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢] . وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية ، والخلافة الرسالية ، وحزب الله المحدثون عنه . حتى حصل لهؤلاء التأسى برسول الله ﷺ ، كما قال الله

تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

إلى أن قال : فدلّت هذه الآية - وهي قوله تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ - على أن المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة التي توجب أمن الإنسان : من الخوف ، حتى يظنوا أنها كانت غروراً لهم ، كما وقع في حادثتنا هذه سواء .

ثم قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣] وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع ، وجعل الخندق بينه وبين العدو . فقالت طائفة منهم : لا مقام لكم هنا ، لكثرة العدو . فارجعوا إلى المدينة . وقيل : لا مقام لكم على دين محمد ، فارجعوا إلى دين الشرك . وقيل : لا مقام لكم على القتال فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم .

وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال : ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم ، فينبغي الدخول في دولة التتار . وقال بعض الخاصة : ما بقيت أرض الشام تسكن ، بل ننتقل عنها ، إما إلى الحجاز واليمن ، وإما إلى مصر . وقال بعضهم : بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء ، كما قد استسلم لهم أهل العراق ، والدخول تحت حكمهم .

فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النارلة . كما قيلت في تلك . وهكذا قال طائفة من المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض ، لأهل دمشق خاصة والشام عامة : لا مقام لكم هذه الأرض .

ونفي المقام بها أبلغ من نفي المقام . وإن كانت قد قرئت بالضم

أيضا (١). فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان ، فكيف يقيم به ؟
قال الله تعالى ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ
وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣] .

وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ
عند سلع داخل الخندق ، والنساء والصبيان في أطام المدينة - يارسول
الله ، إن بيوتنا عورة . أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل .

- وأصل العورة : الخالي ، الذي يحتاج إلى حفظ وستر . يقال :
أعور مجلسك إذا ذهب ستره ، أو سقط جداره . ومنه عورة العدو - .

وقال مجاهد والحسن : أي ضائعة نخشى عليها السراق . وقال
قتادة : قالوا : بيوتنا مما يلي العدو ، فلا نأمن على أهلنا ، فائذن لنا
أن نذهب إليها ، لحفظ النساء والصبيان . قال الله تعالى ﴿وَمَا هِيَ
بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله يحفظها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ فهم يقصدون
الفرار من الجهاد ، ويحتجون بحجة العائلة .

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة ، صاروا يفرون من
الشغل إلى المعازل والحصون ، وإلى الأماكن البعيدة كمصر ، ويقولون :
مامقصودنا إلا حفظ العيال ، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا ، وهم
يكذبون في ذلك ، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لودنا
العدو ، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ وقد كان يمكنهم
إرسالهم والمقام للجهاد ، فكيف بمن فر بعد إرسال عياله ؟ قال الله
تعالى ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا

(١) وهي قراءة حفص ، وقد سار الشيخ في تفسير الآية على قراءة أخرى .

بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿ [الأحزاب: ١٤] فَأَخْبِرْ أَنَّهُ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةُ مِنْ جَوَانِبِهَا ثُمَّ طُلِبَتْ مِنْهُمْ الْفِتْنَةُ - وَهِيَ الْإِفْتِنَانِ عَنِ الدِّينِ بِالْكَفْرِ ، أَوْ النِّفَاقِ - لَأَعْطَوْا الْفِتْنَةَ . وَلَجَاءُوهَا مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ .

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم . ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام - وتلك فتنة عظيمة - لكانوا معه على ذلك . كما ساعدتهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا ، ما بين ترك واجبات ، وفعل محرمات ، إما في حق الله ، وإما في حق العباد . كترك الصلاة ، وشرب الخمر ، وسب السلف ، وسب جنود المسلمين ، والتجسس لهم على المسلمين ، ودلالتهم على أموال المسلمين ، وحریمهم . وأخذ أموال الناس ، وتعذيبهم ، وتقوية دولتهم الملعونة ، وإرجاف قلوب المسلمين منهم ، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ [الأحزاب: ١٥] وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا قديما وحديثا في هذه الغزوة . فإن في العام الماضي وفي هذا العام في أول الأمر كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر ، ثم فر منهزما لما اشتد الأمر .

ثم قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٦] فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل ، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون . ولذلك قال النبي ﷺ : « إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا

فلاتخرجوا فراراً منه » والفرار من القتل كالفرار من الجهاد، وحرف «لن» ينفي الفعل في الزمن المستقبل، والفعل نكرة والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها . فاقترضى ذلك : أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبداً ، وهذا خبر الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره .

والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن . فإن هؤلاء الذين فروا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم : بل خسروا الدين والدنيا، وتفاوتوا في المصائب . والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا، حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم وقل في المقيمين، فما منع الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ولا قتل، بل الموت قل في البلد من حين خرج الفارون ، وهكذا سنة الله قديماً وحديثاً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يقول : لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ثم تموتون ، فإن الموت لا بد منه ، وقد حكى عن بعض الحمقى أنه قال : فنحن نريد ذلك القليل ، وهذا جهل منه بمعنى الآية ، فإن الله لم يقل : إنهم يمتعون بالفرار قليلاً ، لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبداً ، ثم ذكر جواباً ثانياً : أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل ، ثم ذكر جواباً ثالثاً ، وهو أن الفار يأتيه ما قُضي له من المضرة، ويأتي الثابت ما قُضي له من المسرة، فقال : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٧] .

إلى أن قال : وقد ذكر أهل المغاري - منهم ابن اسحق - أن النبي

ﷺ قال في الخندق : « الآن نغزوهم ، ولا يغزوننا » فما غزت قريش ولا غطفان ، ولا اليهود المسلمين بعدها ، بل غزاهم المسلمون : ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة . كذلك - إن شاء الله - هؤلاء الأحزاب من المغل وأصناف الترك ومن الفرس ، والمستعربة ، والنصارى ، ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام : الآن نغزوهم ولا يغزوننا ويتوب الله على من يشاء من المسلمين ، الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق ، بأن ينيبوا إلى ربهم ، ويحسن ظنهم بالإسلام ، وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم . فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولي الأبصار ، كما قال : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥] .

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا : ريح شديدة باردة ، وبما فرق به بين قلوبهم ، حتى شتت شملهم ، ولم ينالوا خيراً ، إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة ، كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين ، فردهم الله بغيظهم ، حيث أصابهم من الثلج العظيم ، والبرد الشديد ، والريح العاصف ، والجوع المزعج ، ما الله به عليم .

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام ، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة . وكنا نقول لهم : هذا فيه خيرة عظيمة . وفيه لله حكمة وسر ، فلا تكرهوه . فكان من حكمته أنه فيما قيل : أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم ، وهو

كان فيما قيل سبب رحيلهم . وأُبتلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه . وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى ، يوم دخلت مصر عقيب العسكر واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه ، فلما ثبت الله قلوب المسلمين صرف العدو ، جزاء منه وبيانا أن النية الخالصة و الهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل ، وإن تباعدت الديار .

وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغل والكرج وألقى بينهم تباضا وتعاديا ، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش و غطفان ، وبين اليهود . كما ذكر ذلك أهل المغاري ، فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق ، بل من طالعها علم صحة ذلك ، كما ذكره أهل المغازي ، مثل عروة بن الزبير ، والزهرى ، وموسى بن عقبة ، وسعيد بن يحيى الأموي ، ومحمد بن عائذ ، ومحمد بن اسحق ، والواقدي ، وغيرهم .

ثم تبقى بالشام منهم بقايا ، سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم ، مضافا إلى عسكر حماة وحلب وما هنالك . وثبت المسلمون بازائهم ، وكانوا أكثر من المسلمين بكثير ، لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماة ، وأذلهم الله تعالى ، فلم يقدموا على المسلمين قط ، وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقهم غيره ، فجرت مناوشات صغار ، كما جرى في غزوة الخندق ، حيث قتل علي بن أبي طالب

رضي الله عنه فيها عمرو بن عبد ود العامري لما اقتحم الخندق، هو ونفر قليل من المشركين .

كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين . وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم . وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات ، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات . وبعضهم في جزيرة فيها . فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم ، وخالطوهم وأصاب المسلمون بعضهم . وقيل : إنه غرق بعضهم .

وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب (١)، بعد أن جرى ما بين عبور قازان أولاً وهذا العبور - رجفات ووقعات صغار، وعزمنا على الذهاب إلى حماة غير مرة لأجل الغزاة، لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الذين بقوا ، وثبت بإزائهم المقدّم الذي بحماة ومن معهم من العسكر ومن أتاه من دمشق ، وعزموا على لقائهم ونالوا أجراً عظيماً . وقد قيل : إنهم كانوا عدة كمانات ، إما ثلاثة ، أو أربعة . فكان من المقدّر أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يُلقى في قلوب عدوهم الرعب فيهربون، لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل « تيزين » و « الفوعة » و « معرة مصرين » وغيرها ما لم يكونوا وطئوه في العام الماضي .

وقيل : إن كثيراً من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم بسبب الرفض، وأن عند بعضهم فرامين منهم ، لكن هؤلاء ظلمة ، ومن

(١) يعني من عام سبعمائة .

أعان ظالماً بلي به ، والله تعالى يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] .

وقد ظاهرهم على المسلمين : الذين كفروا من أهل الكتاب ، من أهل « سيس » والإفرنج . فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيتهم وهي الحصون - ويقال للقرون : الصياصي - ويقذف في قلوبهم الرعب وقد فتح الله تلك البلاد . ونغزوهم إن شاء الله تعالى فنفتح أرض العراق وغيرها ، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه (١) .

فهذه مقارنة جيدة تدل على علم واسع وفهم عميق لكتاب الله تعالى وواقع المسلمين وواقع أعدائهم ، كما تدل على فهم شيخ الإسلام ابن تيمية لأسباب النصر وأسباب الخذلان .

ومن هذه المقارنة وما سبق ذكره من بيان مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية في أحداث المسلمين مع التتار يتبين لنا أثر هذا العالم الرباني في نصر المسلمين على أعدائهم وتوجيه المسلمين إلى الاعتقاد الصحيح والاستقامة في أمور الجهاد .

معركة شقحب :

سار قازان ملك التتار بجيوشه من العراق ونزل على الفرات ، وبعث أمامه قائده قطلوشاه إلى الشام في ثمانين ألف مقاتل ، وخرجت العساكر المصرية إلى الشام مع الأمراء بيبرس وطغرل وكراي ولاجين ، ودخل بيبرس ومن معه دمشق في منتصف شعبان ، ولبث يستحث السلطان محمد بن قلاوون على الخروج .

(١) فتاوى ابن تيمية ٤٤٣/٢٨ - ٤٦٦ .

وبلغ التتار تجمُّع للمسلمين عند حماة فبعثوا إليهم طائفة كثيرة من جيش ليقطععوهم ، فتوجه إليهم أسندمر كرجي نائب طرابلس ، وبهادر آص ، وكجكن ، وإغزلوا العادلي ، وتمر الساقى ، ومحمد بن قراسنقر ، في ألف وخمسمائة فارس بمنزلة عرُض - وهي بلد من أعمال حلب - في حادي عشر شعبان على غفلة فافترقوا أربع فرق ، وقاتلوهم قتالاً شديداً من نصف النهار إلى العصر حتى كسروهم وأفنؤهم ، وكان التتار - فيما يقال - أربعة آلاف ، وكان هؤلاء التتار قد هجموا قبل ذلك على التركمان ، فاستنقذ هؤلاء الأمراء التركمان وحرَّيمهم وأولادهم من أيدي التتار ، وهم نحو ستة آلاف أسير ، ولم يُفقد من العسكر الإسلامي إلا الأمير أنص الجمدار المنصوري ومحمد ابن باشقرد الناصري ، وستة وخمسون من الأجناد ، وأسروا من التتار مائة وثمانين (١) .

وهكذا انتصر ألف وخمسمائة من المسلمين على أربعة آلاف من التتار ، لما صبر المسلمون وكانوا يداً واحدة على أعدائهم ، وإنما كان المسلمون يُخذلون أمام التتار لشدة فزعهم وعدم صبرهم واختلاف قلوبهم ، وكانت هذه المعركة الصغيرة بدايةً جيدة للقاء الكبير الذي تم بعد ذلك في شقحب ، حيث كان لهذه المعركة أثر في تحطيم معنوية التتار .

وذكر الحافظ ابن كثير أن التتار وصلوا إلى بلاد الشام ، وأن جيش حلب وحماة تقهقروا إلى حمص ، ثم خافوا أن يدهمهم التتار

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٧ - ١٥٨ ، البداية والنهاية ١٤/ ٢٤ .

فساروا إلى دمشق وانضموا إلى جيشها في المرج ، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك الأراضي فسادا ، وقلقَ الناس قلقا عظيما ، واختبئ البلد لتأخر قدوم السلطان محمد بن قلاوون ببقية الجيش المصري ، وقال الناس : لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم ، وتحذّر الناس بالأراجيف ، فاجتمع الأمراء بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو ، وشجعوا أنفسهم ، ونوّدوا بالبلد أن لا يرحل أحد منه فسكن الناس ، وجلس القضاة بالجامع وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على القتال (١) .

وهذا موقف جهادي مشكور لهؤلاء الأمراء الذين ثبتوا المسلمين وشجعوهم على القتال ولم يسمعوهم لإرجاف المرجفين وكذلك قام القضاة بموقف جيد حينما حلفوا الفقهاء والعامة على الثبات والجهاد .

قال الحافظ ابن كثير : وتوجه الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في « القطيعة » فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو ، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم ، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يَحْلِفُ للأمراء والناس : إنكم في هذه الكرة منصورون ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول إن شاء الله تحقيقا لاتعليقا ، وكان يتأول أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصِرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٠] (٢) .

(١) البداية والنهاية ٢٥ / ١٤ .

(٢) البداية والنهاية ٢٥ / ١٤ .

وهذا موقف جهادي رائع لشيخ الإسلام ابن تيمية ، حيث سعى لتثبيت الجيش الإسلامي وتقوية عزائم أفرادهِ ، وذلك بخروجه أولاً إلى الجيش القادم من حماة وإعلامهم بما عزم عليه المجاهدون في دمشق من الثبات الذي وثقوه بالحلف ، ثم بقيامه ثانياً بالحلف أمام الأمراء والعامّة بحصول النصر للمسلمين في تلك المعركة ، وذلك راجع إلى ثقته بنصر الله تعالى حينما تتحقق عوامل النصر من المجاهدين ، وقد لاحظ في تلك المرة تحقق تلك العوامل ، كما أنه راجع إلى غزارة علمه حيث تأول قول الله تعالى ﴿ ذَلِكَ وَمِنْ عَاقِبِ بِمِثْلِ مَا عَاقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ وقد بغى التتار كثيراً على المسلمين وبالغوا في العدوان عليهم .

وقال الحافظ ابن كثير في بيان حال المسلمين آنذاك في ترددهم في قتال التتار : وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتار ، من أي قبيل هو ! فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام ، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه فقال الشيخ تقي الدين : هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية رضي الله عنهما ، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم ، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة ، فتفطن العلماء والناس لذلك ، وكان يقول للناس : إذا رأيتُموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني ، فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد (١) .

(١) البداية والنهاية ٢٥ / ١٤ .

وهذا مثل من رسوخ علم ابن تيمية حيث أبان للناس انطباق صفة الخوارج على التتار الذين أظهروا الإسلام ولم يطبقوا منه إلا قليلا ، كما أن في هذا الخبر مثالا على ثقة المسلمين البالغة بابن تيمية سواء في ذلك أهل العلم أو العامة ، وبهذه الثقة التي تكونت من اتصافه بالعلم النافع والعمل الصالح استطاع أن يؤثر على المسلمين وأن يقودهم إلى الجهاد .

لقد كان لهذه الشبهة أثر في هزيمة المسلمين في معركتهم السابقة مع التتار ، حيث تخاذل المسلمون في قتالهم لكونهم يظهرون الإسلام ، وكان على أثر ذلك استيلاء التتار على بلاد الشام وماقاموا به من قتل الأمنين ونهب أموال المسلمين ، فلما قيض الله تعالى للمسلمين في ذلك الزمن عالما جليلا يكشف لهم الشبهات ويُجَلِّي لهم الحقائق ويدفعهم إلى اليقين من سلامة الاتجاه قويته معنويتهم وتوحد هدفهم وأقدموا على الجهاد بنفوس مطمئنة وعزائم قوية .

هذا وقد كان جيش مصر وصل إلى الشام بقيادة بعض الأمراء ثم وصل السلطان قبل وصول التتار إلى دمشق ففرح بذلك المسلمون في الشام ، وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن عسكر الشام ندب شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية إلى أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق فسار إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر ، فجاء هو وإياه جميعا ، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال ، فقال له الشيخ : السُّنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لانقف إلا معهم ، وحرص السلطان على

القتال ويشره بالنصر ، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لاتعليقاً ، وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم ، وأفطر هو أيضاً ، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليُعلمهم أن إفطارهم - ليتقوا على القتال - أفضل فيأكل الناس ، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ « إنكم ملاقو العدو غداً ، والفطر أقوى لكم » فعزم عليهم في الفطر عام الفتح كما في حديث أبي سعيد الخدري (١) .

وقد كان وصول السلطان في يوم السبت ثاني شهر رمضان عام اثنين وسبعمائة ، وعند لقاء الأمراء به ورد إليهم الخبر بوصول التتار فلبسوا السلاح واتفقوا على قتال التتار بشقحب تحت جبل غباغب ، وعند وصولهم إلى هذا المكان صفوا جيشهم ، فصف السلطان محمد ابن قلاوون في القلب وبجانبه الخليفة المستكفي بالله ، ومشى السلطان والخليفة ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة ، وصار الخليفة يقول : يامجاهدون لا تنظروا لسلطانكم وقاتلوا عن دين نبيكم ﷺ وعن حريمكم ، والناس في بكاء شديد .

ورحفت كتائب التتار كقطع الليل ، وذلك بعد الظهر من يوم السبت ثاني رمضان المذكور ، وحمل قطلوشاه قائد التتار على ميمنة الجيش الإسلامي فثبتوا لهم ، وقُتل في ذلك الهجوم عدد من أمراء

(١) البداية والنهاية ٢٧/١٤ .

المسلمين ونحو الألف من فرسانهم فلما وقع ذلك أدركهم الأمراء من القلب والميسرة وصاح سلاّر : هلك والله أهل الإسلام ، وصرخ في بيبرس والمماليك البرجية فأتوه دفعة واحدة فأخذهم وصدّهم بهم العدو ، وقصد مُقدّم التتار قطلوشاه ، وتقدم عن الميمنة حتى أخذت راحة .

وأبلى سلاّر في ذلك اليوم وبيبرس بلاء حسنا ، وكانا المقدّمان في أمراء مصر ، فلما رأى باقي الأمراء ذلك منهم ألّقوا نفوسهم للموت ، واقتحموا القتال وكان لسلاّر وبيبرس في ذلك اليوم اليدُ البيضاء على المسلمين ، رحمهما الله تعالى ، واستمروا في القتال حتى كشفوا التتار عن المسلمين .

وجاءت طائفة من التتار لنجدة قطلوشاه ، ووقفوا في وجه سلاّر وبيبرس ومن معهم فخرج من عسكر السلطان عدد من القادة والمماليك السلطانية وأردفوا سلاّر وبيبرس وقاتلوا أشد القتال حتى أراحوهم عن مواقفهم ، واستمر القتال بين المسلمين والتتار إلى أن وقف كل من الطائفتين عن القتال في المساء .

ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه ، وصعد عليه وفي نفسه أنه انتصر وأن بولاي في أثر المنهزمين ، فلما صعد الجبل رأى السهل والوعر كلّ عساكر ، والميسرة السلطانية ثابتة وأعلامها تخفق ، فبُهِتَ وتَحَيَّرَ ، واستمر بموضعه حتى كمل معه جمعه .

أما القائد الآخر بولاي فإنه انهزم ومعه عشرون ألفا من التتار وفروا هاربين .

وبات السلطان وسائر عساكره على ظهور الخيل ، وتلاحق بهم المنهزمون شيئاً بعد شيء على صوت الطبول السلطانية ، وأحاط عسكر السلطان بالجبل الذي بات عليه التتار ، وصار سلار وييرس وقبجق والأكابر في طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد يوصونهم ويرتبونهم ويؤكدون عليهم في التيقظ ، ووقف كل أمير في مصافه وثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس .

وشرع قطلوشاه في ترتيب من معه ، ونزلوا مشاة وفرساناً وقاتلوا العساكر ، فبرزت الممالك السلطانية بمقدّمها إلى قطلوشاه وجويان ، وعملوا في قتالهم عملاً عظيماً ، فصاروا تارة يرمونهم بالسهام وتارة يواجهونهم بالرماح ، واشتغل الأمراء أيضاً بقتال من في جهتهم يتناوبون القتال أميراً بعد أمير ، وألحّت الممالك السلطانية في القتال وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية مالا يوصف ، حتى إن بعضهم قُتل تحته الثلاثة من الخيل .

وما زال القتال دائراً حتى انتصف نهار الأحد ، فصعد قطلوشاه الجبل بجيشه وقد اشتد عطشهم ، واتفق أن بعض من كان أسرهُ التتار هرب ونزل إلى السلطان وعرفه أن التتار قد أجمعوا على النزول في السحر لمصادمة العساكر السلطانية وأنهم في شدة من العطش ، فاقتضى الرأي أن يفرّج لهم عند نزولهم ويركب الجيش أفقيتهم ، فلما باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الإثنين ركب التتار في الرابعة من النهار ونزلوا من الجبل فلم يتعرض لهم أحد ، وساروا إلى النهر فاقتحموه ، فعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين وأيدهم الله تعالى بنصره حتى

حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ووضعوا فيهم السيوف ومروا في
أثرهم قتلاً وأسراً إلى وقت العصر .

وعاد المجاهدون إلى السلطان وعرفوه بهذا النصر العظيم وبات
السلطان لَيْلَتَهُ وأصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهل دمشق ، فسار
إليها في عالم عظيم لا يحصيهم إلا الله تعالى وهم يضجُّون بالدعاء
والهناء والشكر لله تعالى على هذه المنَّة .

أما المنهزمون من التتار فإن كثيراً منهم قُتلوا على يد الفرق التي
تبعَتْهم من الجيش وكذلك من رجال البادية وعامة المسلمين (١) .

وهكذا تم هذا الانتصار الحاسم للمسلمين على التتار بعد عناء
شديد وجهاد مرير ، ولم يتجراً التتار بعدها على حرب دولة المسلمين
في الشام ومصر ، وكان وقع الهزيمة شديداً على ملك التتار قازان
حيث كان قد انتخب لتلك المعركة أفضل رجاله .

* * *

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٧ - ١٦٣ .

فهرس الجزأين الخامس عشر والسادس عشر

الموضوع	الصفحة
الإمام الزاهد والخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز	٧
- ارهاصات بين يدي خلافته	٩
- فراسة صادقة من جده عمر رضي الله عنه	٩
- رؤيا صالحة من جده عمر رضي الله عنه	١١
- مولده ونشأته	١٢
- رؤيا صادقة وعزم على الاستقامة والعدل	١٥
- من مواقفه في إمارته على الحجاز	١٧
- استشارته فقهاء المدينة	١٧
- إجلاله سعيد بن المسيب	١٨
- استخلافه وموقف لرجاء بن حيوة	١٩
- تقديره أهل الفضل	٢١
- تقديره ولد قتادة بن النعمان	٢١
- تقديره زياد مولى ابن عياش	٢٣
- إكرامه من ينتسبون إلى علي رضي الله عنه	٢٥
- نماذج من جرائه في الحق وحزمه وحكمته	٢٦
- إنكاره على الوليد بن عبد الملك في الحكم بالهوى	٢٦
- مشورته على سليمان بن عبد الملك في الحكم	٢٨
- إنكاره على سليمان بن عبد الملك في الإنفاق	٢٩
- إنكاره على سليمان في تحكيمه كتاب أبيه	٣٠

الموضوع	الصفحة
- عزله ولاة السوء	٣١
- قوته في الرجوع إلى الحق	٣٣
- تلذذه بتنفيذ الحق	٣٤
- بيانه مهمة الحاكم	٣٥
- من أخباره في العدل والاهتمام بالمسئولية	٣٨
- رغبته في التأسي بجده عمر رضي الله عنه	٣٨
- تذكيره بالحساب الأخروي	٣٩
- وعظه سليمان بن عبد الملك في رد المظالم	٤٠
- اتخاذه رقباء على نفسه ليستقيم على الحق	٤٠
- ما قام به من رد المظالم	٤٢
- بدؤه بنفسه وأهل بيته	٤٢
- من كتاباته في رد المظالم	٤٣
- حرصه على الإسراع في رد المظالم	٤٤
- مثل من صرامته ومالقي من عشيرته	٤٥
- مساواته بين عشيرته وسائر المسلمين	٤٦
- خبر روح بن الوليد وخصمائه	٤٧
- إنصافه الرجل الحمصي من العباس بن الوليد	٤٨
- نزعه إقطاع أحد الرجال	٤٩
- مثل من حكمته وموقف لابنه عبد الملك	٥١
- حواراه مع هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد	٥٢
- خطبته أمام الغرباء	٥٤
- رده منحة عنيسة بن سعيد	٥٦

- ٥٩ - إنصافه أحد الرعية من عامله عروة
- ٦٠ - إنصافه أهل سمرقند
- ٦٢ - كتابه إلى عمر بن الوليد
- ٦٥ - جوابه لعنسة حينما سأله
- ٦٧ - مثلاً من حكمته وحزمه
- ٦٨ - إنصافه رجلاً من عدي بن أرطاة
- ٧٠ - خبره مع فرتونة مولاة ذي أصبح
- ٧٢ - إنصافه رجلاً اشتكى من أحد أقاربه
- ٧٢ - تسويته بين الناس في مجلس الحكم
- ٧٣ - أمره بوضع الضرائب
- ٧٥ - مكافأته من رفع إليه مظلمة
- ٧٦ - اهتمامه بفداء الأسرى والقضاء عن الغارمين
- ٧٨ - خبره مع الأسير الأعمى
- ٨١ - اهتمامه بأمور الرعية
- ٨١ - مثل من اختياره الولاة
- ٨٣ - مثل من احتياظه في اختيار الولاة
- ٨٤ - حرصه على تولية الأكفاء
- ٨٥ - مثل من نباهة عمر وفطنته
- ٨٨ - موقفه في رفع الظلم عن ريد بن حسن
- ٩٠ - شكوى عمته باسم بني أمية
- ٩١ - تأديبه لمن سخر أهل الذمة
- ٩٢ - مثل من بركة الحكم بالعدل

٩٣	- إنصافه الأعراب من بعض بني أميه
٩٤	- وصيته عُمًا له بالتقوى والعدل
٩٩	- خبره مع المرأة التي فرض لبناتها
١٠٣	- إنصافه الدميّين من أهل لُجران
١٠٥	- إنصافه الدميّين من أهل قبرص
١٠٦	- إنصافه أحد المظلومين من اليمن
١٠٦	- سؤال عطاء عن أحوال عمر بن عبد العزيز
١٠٨	- خبره مع الخوارج
١١٤	- جهوده في الدعوة والإصلاح
١١٤	- من توجيهاته في آداب الصحبة
١١٨	- من تذكيره بالآخرة
١١٩	- من جهوده في تصحيح المفاهيم الخاطئة
١٢١	- إنكاره العصية القبلية
١٢٤	- اهتمامه بشكر النعمة
١٢٥	- اهتمامه بتعليم أهل البادية
١٢٥	- اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام
١٢٨	- اهتمامه بإصلاح المجتمع
١٣١	- إباحته المراعي العامة للأمة
١٣٢	- توجيهه إلى الإمساك عما جرى بين الصحابة
١٣٣	- إبطاله سب علي على المنابر
١٣٣	- اهتمامه بإلغاء الضرائب والجزية عن أسلم
١٣٦	- إحياءه لسنة العطاء

- ١٣٨ إغناؤه المحتاجين عن المسألة -
- ١٣٩ اهتمامه بدفع المهور من بيت المال -
- ١٣٩ جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع -
- ١٤٠ تجرده من العصبية وإكرامه أهل البيت -
- ١٤٢ اهتمامه بالإصلاح بين الناس -
- ١٤٣ نماذج من مواعظه وحكمه -
- ١٤٥ اهتمامه بسد الذرائع الموصلة إلى الشرك -
- ١٤٦ كتابه لبعض عماله في التزهيد في الدنيا -
- ١٤٨ وصيته للقضاة -
- ١٤٩ حثه على التقوى -
- ١٥٠ كتابه إلى أهل الموسم بالبراءة من الظلم -
- ١٥٢ من خطبه في الزهد -
- ١٥٣ موعظة له في التوكل والعفة -
- ١٥٣ خطبة له وجيزه بليغة -
- ١٥٥ آخر خطبة خطبها -
- ١٥٦ فهمه لشمول العبادة -
- ١٥٧ تعزيتة البليغة لأهل صديقه -
- ١٥٨ مثل من صبره ويقينه -
- ١٥٩ جوابه على من قال أبقاك الله -
- ١٦٠ من مواعظه البليغة -
- ١٦١ موعظته لمن سأله شيئاً من الدنيا -
- ١٦٢ نماذج من أدبه وحكمته -

الموضوع	الصفحة
- تأثره من شعر الزهد واستشهاد به	١٦٤
- إيمانه بالقضاء والقدر	١٦٨
- موقفه من الشعراء المداحين	١٦٨
- اهتمامه بالجهاد في سبيل الله تعالى	١٧٤
- اهتمامه بمكارم الأخلاق	١٧٦
- نفوره من الاتهام بالكذب	١٧٦
- من أمثلة تواضعه	١٧٧
- جوابه لمن اتهمه بالكبر	١٧٩
- مثل من حلمه على من جهل عليه	١٨٠
- مثل آخر من حلمه	١٨٠
- عفوه عن الذي شجه في وجهه	١٨١
- مثل من عفوه عند الغضب	١٨١
- مثل من رحمته بالمجاهدين	١٨٢
- رحمته بالأسرى	١٨٣
- مثل من رحمته بالأيتام	١٨٣
- مثل من رحمته بالغلمان	١٨٤
- رحمته بجارية له	١٨٤
- مثل من رحمته بأهل الذمة	١٨٥
- مثل من رحمته بالحيوان	١٨٦
- مواقفه في الزهد والورع والخشية	١٨٧
- خبر بدء إنابته	١٨٧
- خبره مع سليمان بن عبد الملك بمناسبة البرق والرعد	١٨٧

- ١٨٧ - خروجه للنزهة والعبرة في ذلك
- ١٨٩ - خبره مع الغراب وما فيه من العبر
- ١٩٠ - خشيته من العذاب بالريح
- ١٩٠ - خشيته من ارتكاب السيئات بمكة
- ١٩١ - زهده في مظاهر الخلافة
- ١٩٤ - زهده في مخصصات الخلافة
- ١٩٥ - مثل من طموحه نحو المعالي
- ١٩٥ - ورعه عما حُمِّل على دواب البريد
- ١٩٦ - رده أحد أملاكه من الإقطاع
- ١٩٨ - مقدار ماردته من ماله لبيت المال
- ١٩٨ - مثل من تورعه عن مال المسلمين
- ١٩٩ - استجابة دعائه في ابنه الصغير
- ٢٠١ - أمثلة من تحريره في ملكية الجواري
- ٢٠٢ - تورعه عن مزارع خبير
- ٢٠٣ - تورعه عن حلي زوجته
- ٢٠٤ - تورعه عن صرف شيء من المال العام في الحج
- ٢٠٥ - تورعه عن دماء الناس وأموالهم
- ٢٠٧ - نماذج من تورعه عن المال العام
- ٢١١ - خوفه من الرياء والسمعة
- ٢١٢ - مثل من حرصه على إخفاء عمله الصالح
- ٢١٣ - تورعه عن البناء
- ٢١٣ - تورعه عن قبول الهدية

- ٢١٤ مثل آخر من رده الهدية
- ٢١٥ مثل من أجلاله رسول الله ﷺ
- ٢١٥ أمره والي المدينة بالاقتصاد في الوقود والورق
- ٢١٧ وعظه مسلمة في الاقتصاد في المأكّل
- ٢١٧ حواراه مع عمته في رد مخصصاتها
- ٢٢٠ رفضه أن يوصي لأولاده بشيء
- ٢٢٢ وصيته لمسلمة في التحري في الأموال
- ٢٢٣ اعتباره بزهد النبي ﷺ
- ٢٢٣ من أمثلة زهده
- ٢٢٤ تربيته أولاده على التقشف والزهد
- ٢٢٤ موعظة المنصور بسيرة عمر المالية
- ٢٢٦ دقة موازنته بين الدنيا والآخرة
- ٢٢٦ أمثلة من زهده وإصلاحه
- ٢٢٧ مثل من خشيته وموقف لأبي قلابه
- ٢٢٨ نهاية عمر بن عبد العزيز وما في ذلك من مواقف
- ٢٣٠ سؤال الفقهاء عن حال عمر في بيته
- ٢٣١ من ثناء العلماء على عمر
- ٢٣١ ثناء ملك الروم عليه
- ٢٣٩ الخوارج ومواقف أئمة المسلمين وقادتهم منهم
- ٢٤٢ الخوارج وماورد فيهم من أحاديث
- ٢٤٥ مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من الخوارج
- ٢٥٢ بعث ابن عباس لمحاورتهم

الموضوع	الصفحة
- جريمتهم بقتل المسلمين الأمنين	٢٥٤
- خبر ذي الثُدَيَّة ومعجزة لرسول الله ﷺ	٢٥٩
- معجزة أخرى لرسول الله ﷺ	٢٦٣
- حكم علي رضي الله عنه عليهم	٢٦٤
- مثل من ورع علي رضي الله عنه	٢٦٤
- الخوارج في عهد بني أمية	٢٧٠
- ثورة فروة الأشجعي وأصحابه	٢٧٠
- ثورة المستورد التيمي وأصحابه	٢٧١
- خبر الخوارج مع ابن الزبير رضي الله عنهما	٢٧٥
- تفرق الخوارج إلى فرق	٢٧٧
- مواقف أهل البصرة في قتال الأزارقة	٢٧٨
- المهلب بن أبي صفرة والأزارقة	٢٧٩
- مثل من فتنه الخوارج في المغرب	٢٨٢
- مواقف وعبر في جهاد المسلمين مع الصليبيين	٢٨٧
- بداية الغزو الصليبي وجهاد بعض أمراء المسلمين	٢٩١
- حال المسلمين آنذاك	٢٩١
- سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين	٢٩٢
- جهاد سقمان وجكرمش مع الصليبيين	٢٩٥
- جهاد طغتكين مع الصليبيين	٢٩٧
- جهاد عماد الدين زنكي	٢٩٩
- معركته مع الصليبيين حول حمص	٢٩٩
- فتح حصن بعرين	٣٠٠

الموضوع	الصفحة
- مواجهة بينه وبين الصليبيين والروم	٣٠١
- فتح مدينة الرها	٣٠٢
- جهاد نور الدين محمود مع الصليبيين	٣٠٤
- معركة يغرَى	٣٠٥
- استيلاؤه على حصن عزاز وماحوله	٣٠٥
- معركة دلك وفتحها	٣٠٦
- فتح قلعة حارم	٣٠٦
- فتح قلعة بانياس	٣١٠
- فتح حصن المنيطرة وصافيثا وعريمة	٣١٢
- القضاء على حملة صليبية	٣١٢
- فتح حصن الكرك ولقاء مع الصليبيين	٣١٣
- حملة تأديبية للصليبيين	٣١٤
- مواقف نور الدين الأخلاقية	٣١٤
- جهاد أسد الدين شيركوه	٣٢٥
- معركة البابين	٣٢٧
- جهاد صلاح الدين الأيوبي	٣٣٧
- غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة	٣٣٧
- موقف لأهل الإسكندرية في صد حملة صليبية	٣٣٨
- موقعة حطين	٣٤١
- يوم المعركة	٣٤٢
- فتح بيت المقدس	٣٤٩
- فتح قلعة برزية	٣٥٥

الموضوع	الصفحة
- فتح حصن الشعر	٣٥٩
- حصار مدينة صور	٣٦٠
- استنجد صليبي الشام بأهل أوربا	٣٦١
- وصول الصليبيين إلى عكا	٣٦٣
- معركة الأصبول	٣٦٥
- ابتكار علمي حربي موفق	٣٦٧
- استيلاء الصليبيين على عكا	٣٦٩
- مثل من رحمة صلاح الدين	٣٧٠
- جهاد الظاهر بيبرس ضد الصليبيين	٣٧٢
- فتح مدينة يافا	٣٧٤
- فتح أنطاكية	٣٧٤
- جهاد السلطان قلاوون وابنه خليل	٣٧٦
- فتح حصن المرقب	٣٧٦
- فتح طرابلس	٣٧٦
- فتح عكا	٣٧٧
- فتح صور	٣٧٨
- نهاية الصليبيين في الشام	٣٧٩
- مواقف وعبر في جهاد المسلمين مع التتار	٣٨١
- خروج التتار وسبب ذلك	٣٨٣
- مواقف السلطان مظفر الدين قُطُز	٣٨٥
- معركة عين جالوت	٣٨٥
- مواقف جهادية في هذه المعركة	٣٨٦

الموضوع	الصفحة
- رؤيا صادقة تحمل البشارة بالنصر	٣٩٠
- مواقف السلطان الظاهر بيبرس	٣٩٤
- معركة ألبيرة	٣٩٦
- معركة أبلستين	٣٩٨
- مواقف السلطان قلاوون	٤٠٠
- معركة حول حمص	٤٠٠
- دخول التتار في الإسلام	٤٠٥
- مواقف السلطان محمد بن قلاوون	٤٠٨
- مواقف لشيخ الإسلام ابن تيمية	٤٠٩
- موقف جهادي لنائب القلعة	٤١٣
- مواقف أخرى لابن تيمية وغيره	٤١٧
- مقارنة بين الأحزاب والتتار	٤٢١
- معركة شقحب	٤٣٢